روائع الأدب العالمي 5

سفينة الملذات

تأليف الكاتب الفرنسي المعاصر

موريس ديكوبرا



سفينة الملذات

سفينة الملذات

تأليف
موريس ديكوبرا

ترجمة
حلمي مراد

الناشر
دار البشير للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - بيروت
تلفون : 674 803 1 961 00 فاكس : 223 790 1 961 00
E-mail : daralbachir@terra.net.lb

الإسم الأصلي للكتاب
LE BATEAU DES MILLE CARESSES

إسم المؤلف
MAURICE DIKOPRA

القصة.. مرآة للأحداث الدولية!

عزيزي القارئ:

من أقوى ما يستند إليه دعاة "الواقعية" في الأدب القصصي، أنّ القصة يجب أن تكون مرآة للأحداث الجارية التي تحيط بالكاتب، وقد كان المقتنعون بهذا الاتجاه يقتصرون – في الغالب – على الأحداث التي تجري في الوسط الذي يعيش فيه الكاتب، أو – على الأكثر – في بلده.

ولكن عصر السرعة، وانتشار الطائرات واللاسلكي، قرّب بين البلدان والبيئات، بحيث أصبحت الأحداث الكبرى التي تجري في مكان ما من العالم، تدوّي في العالم بأسره، وتهز نفوس أهله قاطبة.. وقد انعكس هذا التطور على القصة، فأصبحت في المناسبات الكبرى – كما حدث في الحرب العالمية الثانية – مرآة للأحداث العالمية، لا المحلية، ولا القومية وحدها!

والقصة التي أقدمها لك اليوم – "**سفينة الملذات**" – من هذا النوع. فإن الحرب العالمية الثانية، خلفت أحداثا دولية في ميدانها الأكبر هو الشرق عامة.. الشرق الذي انتفض أخيرا لكي يتخلّص من أطماع الغرب الذي ظل يستعمره طويلا ويمتص دماءه. وقد قدر للموقف الراهن بين الصين الشعبية وحكومة "**شانغ كاي شيك**" في "**فورموزا**" أن يكون صورة صادقة لهذا الصراع بين الشرق والغرب.. الشرق الممثل في الصين الشعبية التي نهضت لتحتل مكانها في العالم، كدولة كبرى، قوية، عاملة.. والغرب الممثل في حكومة "**فورموزا**"، التي ارتضت لنفسها أن تكون مخلب القط في يد "**أمريكا**" الطامعة في السيطرة والاستعمار!

ولقد انعكس هذا الصراع على خيال الروائي الفرنسي الكبير "**موريس ديكوبرا**" الذي طاف – خلال العشرين عاما الأخيرة – بمختلف بقاع الشرق، وارتاد القارة الآسيوية، وعاش في مختلف الأجواء التي تسيطر عليها: من الجو الشاعري المشوب بروحانية الشرق القديم وتصوّفه، إلى الجو العابث الذي نفث فيه الاستعمار الغربي – بسياسته وأطماعه – فسادا وتهتّكا، إلى الجو السياسي الذي يبثّ فيه الغرب دسائسه

ومؤامراته في سبيل الوصول إلى غاياته الدنيئة!

في هذه الأجواء عاش "**ديكوبرا**" سنوات، واستخلص منها هذه القصة الرائعة، الحافلة بالمخاطرات والمفاجآت.. والمشحونة بالعواطف، وألوان الهوى والشهوات!

ومن الطبيعي أن يحاول "**ديكوبرا**" أن يتحامل ويتحيز بعض الشيء – على الأقل – وأن يعرّض ببعض مظاهر الحياة والسياسة في الشرق، جريا على عادة الكتّاب الغربيين، رغم أنه كشف – دون أن يفطن – عن خسة الجاسوسية الغربية، في موضوع القصة ذاته، وهو التوسل ببائعات الهوى للحصول على أسرار "**الصين الشعبية**".. ولم يكن ثمة بد من أن نطهّر القصة من بعض السموم التي دسّت عن قصد بين السطور، فخرجنا بها عن دائرة الأدب الصرف، الذي تلتزم "مطبوعات ميوزيك" إزاءه، مبدأ "الترجمة الكاملة الأمينة".. وإن لم ينل هذا من روعة القصة وقوتها..

إنها لون جديد من ألوان القصة، يحلّق بك الخيال فيه بين الهوى والدسائس.. فلأدعك الآن تتعرف عليه!

المحرر

الفصل الأول

ملاكان حارسان.. خير من ملاك واحد!

كان الليل وضيئا، والأمواج تعكس الأضواء المنبعثة من الزوارق التي ازدحمت في الميناء، ومن مصابيح التحذير التي تحدد أمكنة سفن البضائع.. ومن كشّافات الزوارق البخارية، ومن ألوف المصابيح التي تزخر بها "**هونج كونج**" وترصِّع سفح "**جبل طارق**" الآسيوي.. وعلى رصيف الميناء - حيث يغدو ويروح بقية من العمال والمتعطلين المتسكعين، من ذوي العيون المنحرفة - ظل "**فرانسيس أرنولد**" يتمشّى جيئة وذهابا، فقد ضربوا له موعدا للمقابلة عند مرسى السفينة القادمة من "**كاولون**". وكان قد حضر في الساعة التاسعة تماما، تدفعه اللهفة، بعد أن أحيت الرسالة التي تلقاها موات آماله.

وظل "**فرانسيس**" يترقّب الرجل الذي يقترب منه وفي يده اليمنى الخطاب الذي كان "**فرانسيس**" قد أرسله - منذ عشرة أيام - إلى الشركة الآسيوية للاستيراد والتصدير رقم ٣٤٠ بشارع "**فيكتوريا**".. وتساءل "**فرانسيس**" وهو يذرع الرصيف: لماذا استدعته إدارة هذه الشركة للمقابلة ليلا - بعد مواعيد العمل في المكتب - بدلا من استدعائه إلى مقر المؤسسة الرسمي، حيث تقضي العادة باستقبال رجل مثله يطلب عملا؟!

والواقع أن "**فرانسيس أرنولد**" كان قد أوشك على الإفلاس، وأخذ ينفق البقية الباقية من دولاراته.. وكان قد اتجه إلى قنصلية "**فرنسا**"، حيث استقبلوه بشيء من عبارات التشجيع، وبالوعود بأن يحاولوا إخراجه من أزمته.. ولكنه لم يظفر بطائل!.. فليس من اليسير أن يعثر قائد طائرة على أعمال ثانوية كتلك التي يجدها ساقي المقهى حين يتعطل عن عمله الثابت. ولقد فكر "**فرانسيس**" - تحت ضغط الظروف البغيضة - في أن يعرض خبرته الفنية على سلطات "**الصين**" الحمراء في "**كانتون**". بيد أن هذا التفكير لم يدم إلا برهة وجيزة، لأنه قدر أن ماضيه في خدمة ديموقراطيات الغرب المنحلّة، لن يكون معززا لطلبه.. وحتى لو أنهم قدّروا مزاياه المهنية، فليس من شك في أنهم سيفضلون عليه طيارا قضى خدمته السابقة في الجانب الآخر من الستار

الحديدي!.. وساءل نفسه – وهو يقطع الرصيف رائحا غاديا – أيكتب عليه أن يلجأ بعد قليل إلى مراحم "جيش الخلاص" كي يجد القوت، أو أن يترك السلطات تعيده إلى "**فرنسا**"، باعتباره مسافرا متسللا اختبأ خلسة في الباخرة؟!

*****

وفجأة ظهر صيني بدين، ربعة القامة، ذو بطن بارز، ورأس عار أصلع كأنه بيضة في ملاسته!.. وعليه بذلة كاملة من صوف "**الألباجا**"، كثيرة الغضون. ووقف الرجل خلفه، ثم استخرج من جيبه خلسة ذلك المظروف الذي اتفق على اعتباره آية لـ"**فرانسيس**"، فأخرج "**فرانسيس**" من جيبه المظروف الآخر الذي كان يتضمن الرد. وأفتر فم الصيني البدين عن ابتسامة عريضة كشفت عن لثته التي تعلو أسنانه المصفرة، وأشرق بها محياه المستدير الذي ينبئ عن طيبة، ثم تمتم باللغة الإنجليزية، ولكن في لكنة أجنبية واضحة: "مستر "**أرنولد**" فيما أظن؟".

– نعم. هو أنا.

– هل لك في أن تتبعني إذا تكرمت؟

– طبعا.. إلى من أتشرف بتوجيه الخطاب؟

وراقت هذه العبارة المهذبة للصيني البدين، فضمّ يديه أمام صدره، وانحنى انحناءة عميقة حتى لا يكون أقل تأدبا من الفرنسي. وقال: أنا "**شو لي لانج**". مندوب الشركة الآسيوية للاستيراد والتصدير".

– تشرفنا يا مسيو "**شو لي لانج**".. وأين ستذهب الآن؟

– سأقودك إلى السيد مدير الشركة.

– في شارع "**فيكتوريا**" رقم ٣٤٠؟

فهزّ الصيني البدين رأسه بالنفي وقال: "بل في داره!".

فأظهر "**فرانسيس**" الدهشة. واستطرد المندوب الذي كان يخبُّ إلى جواره – بسبب قصر قامته وبدانته – قائلا ببساطة: "إنه يفضل أن تكون المقابلة في البيت".

– وهل يكون تطفلا مني أن أسألك عن اسم مديرك؟

– ليس هذا سرا، فإن اسمه موجود في دليل تليفون "**هونج كونج**".. إنه يدعى "**فان لونج**".

وسار الرجلان بين العمائر الشاهقة، والفنادق، والمصارف والمكاتب والمتاجر الكبرى التي كانت تتلألأ بينها – هنا وهناك – لافتات "النيون" المتعددة الألوان. ولو لم يكن الشارع مزدحما بعربات "الركشة" والعمال الهنود والصينيين، لاعتقد المرء أنه في حي من أحياء مدينة "**لندن**" الحافلة، نقل بأعجوبة إلى الأراضي الآسيوية!

وبعد أن مرّ بكثير من الحوانيت الفاخرة، ومحلات الخياطين الإنجليز، ومتاجر التحف التي تباع للسائحين، دخلا إلى "**هونج كونج**" الصينية بمعنى الكلمة.. "**هونج كونج**" التي لا تذوق النوم أبدا.. "**هونج كونج**" التجار والفنانين والحوانيت الخشبية والرايات الملونة والأطعمة الغريبة التي تقدم في الهواء الطلق!.. وتسللا في منعطف إلى اليمين، ثم إلى اليسار، بين تيه من بيوت غير متناسقة، وبنايات من كل نوع، و"فيلات" كانت صبغتها العصرية تزداد كلما أوغلا إلى الداخل. كما أخذت تزداد مظاهر الترف والرفاهية كلما صعدا ذلك الجزء المشيد من المدينة على تل صخري!

وعرج السيد "**شو لي لانج**" على شارع عريض قليل الضوء، يفضي إلى القمة.. ثم وقف أمام حديقة مترامية على سفح تلك الهضبة، ظهرت فيها يد العناية والتنسيق بما أينع فيها من أزهار. وكانت "الفيلا" كبيرة مربعة، بيضاء اللون كالبيوت الإيطالية، تحيط بها أشجار الكافور من كل جانب. ودقّ السيد "**شو لي لانج**" الجرس. فظهر خادم صيني.. واقتيد "**فرانسيس**" إلى الداخل، دونما كلام، ثم رجاه المندوب أن يتفضل بالجلوس، واختفى على الفور، بعد أن قال له: "إن السيد **فان لونج** سيقابلك حالا!".

ولم يكن الصالون مضاء إلا بمصباح واحد، تظلله طرفة من الحرير على شكل معبد صيني بلون "الكرز". أما الأرض فكانت مكسوّة بفسيفساء متعددة الألوان، فوقها أبسطة فاتحة اللون حريرية الملمس.. كما أسدلت على النوافذ ستر ثقيلة صفراء، مطرزة. وكان الأثاث كله من خشب الصندل، والمقاعد الوثيرة محلاة بفراء الثعالب الفضية. فما من شك في أن مدير الشركة الآسيوية للاستيراد والتصدير كان ينعم بذوق رفيع ويهوى جمع القطع الفنية، مما نمت عنه تلك المجموعة الفاخرة من التحف العاجية العتيقة، التي

ترجع إلى عصر "**منج**"، والتي تبهر النظر خلف واجهة زجاجية ضخمة، مضاءة من الداخل.

وكان "**فرانسيس**" يتأمل – من بعيد – تلك التحف التي جمعتها يد خبير، حين سمع حفيف ثياب من خلفه. وإذا السيد "**فان لونغ**" قد دخل في صمت، منتعلا خفا سميكا، وعليه ثوب صيني بديع الشكل، أزرق حالك كالليل، يشبه طيلسانا من قطعتين. فوقف "**فرانسيس**" على الفور.. وسأله الصيني: السيد "**فرانسيس أرنولد**"".

– نعم يا سيدي هو أنا.

– حسن جدا. لقد كلّفت مندوبي بأن يأتي بك إلى هنا لسببين: الأول هو أني لا أريد أن أدخل إلى مكاتبي أشخاصا لا أدري بعد ما إذا كانوا سيعملون فيها أم لا.. والثاني هو أن خطابك استرعى انتباهي من بين أربعين خطابا أخرى تلقيتها ردا على إعلاني.

وكان "**فرانسيس**" عارفا بأحوال الشرق الأقصى، معرفة تكفيه كي يحدس أن هذا الصيني الذي كان يتكلم الإنجليزية بطلاقة، إنما كان – يقينا – من نتاج هجين، وليس من أهل "**كانتون**" أو "**شانغهاي**". إذ كانت له قامة أهل "**منشوريا**" وأكتافهم العريضة، ولكن ملامحه الدقيقة كانت تشي بدم مختلط. ولعل أمه كانت برتغالية وأبوه صينيا!

وصفّق الرجل بيده فقدّم أحد غلمانه الشاي الأخضر، ثم توارى. ودهش "**فرانسيس**" – من جديد – لهذه المجاملة التي لم تجر بها العادة عند استقبال شخص متقدم لوظيفة أمين للمخازن.

*****

وجلس "**فان لونغ**" بالقرب من منضدة صغيرة، ثم أخرج – من صندوق من خشب الصندل المزخرف – ذلك الخطاب الذي كان "**فرانسيس**" قد وجّهه إليه. فبسطه أمامه ليستعين به في الحديث، وقال:

– أرى يا سيد "**أرنولد**"، بناء على البيانات التي أرسلتها إلينا، أنك مواطن فرنسي.. ولدت في "**باريس**" سنة ١٩١٩، وتلقيت بها دراستك الثانوية. وكنت طيارا حربيا

تحت التمرين – قبيل سنة ١٩٣٩ – ثم أصبحت طيارا في سنوات الحرب، وسقطت بك الطائرة مشتعلة في "**بلجيكا**"، ونلت وسام الجرحى، وقضيت ثلاث سنوات أسيرا، ثم هربت، وعدت إلى الخدمة في قوات "**فرنسا**" الحرة.. وحصلت على أوسمة الخ.. إلخ عظيم!.. هذا تاريخك العسكري.. أما الذي يعنينا نحن، فهو نشاطك المدني منذ وضعت الحرب أوزارها في "**أوروبا**". إنك أصبحت طيارا في خطوط شركة "**أزوريو**"، ولكنك لا تشير هنا إلى السبب الذي تركت من أجله تلك الشركة بعد أربع سنوات من الخدمة!

– لأسباب شخصية.. فقد نشب صدام عنيف بيني وبين المدير التجاري للشركة، إذ انتزع مني صديقة عزيزة!

– ماذا تعني بمصادفة عنيفة؟

– لقد هشّمت وجهه أمام ثلاثمائة شخص في محطة "**أورلي**"، وهو عائد من "**استانبول**"، فأكرهت على تقديم استقالتي.

– إنك لعنيف يا سيد "**أرنولد**"!

– بل إني أقدر إنسان على تمالك أعصابي، بيد أن هناك إهانات لا يمكن أن تغتفر!

– تذكر أن الثور الهائج يكسر قرنيه في نطاح الجدار، أما الثعبان فيتسلل في يسر خلال أضيق فجوة لا تكاد تبصرها العين. ولكن لندع الأمثال والحكم الصينية الآن، وإن كانت ركازة الحكمة البشرية منذ ألوف السنين!.. خبرني، كيف اتفق لك أن تكون متعطلا في "**هونج كونج**"، مع استعدادك للقيام بأي شيء، بدليل أنك تقدمت لمثل هذه الوظيفة المتواضعة؟

– هذا أمر غاية في البساطة. فإنني – منذ تركي شركة "**أزوريو**" الجوية – التحقت بالعمل في شركة للنقل الجوي، فكنت بمثابة سائق "التاكسي"، وقدت طائرات من جميع الأنواع، لنقل شحنات ثقيلة.. وقادني هذا إلى "**الشرق الأقصى**"، وإلى "**الهند الصينية**"، ثم إلى "**هونج كونج**"، حيث استغنت الشركة عن خدماتي، لأنها – كما تستطيع أن تتحقق بنفسك – قد أعلنت إفلاسها. وأصارحك بأنني قد استنفدت مدخراتي كلها، ولهذا قدّمت الطلب الذي بين يديك!

وظل السيد "**فان لونج**" مصغيا لهذه التفاصيل باهتمام خاص، ثم سأله: "كم عدد ساعات طيرانك يا سيد "**أرنولد**؟".

فأجاب: "٥٦٤٠ ساعة.. وهاك بطاقتي!".

– أعتقد أنك حلّقت بأنواع مختلفة من الطائرات؟

– لا أزعم أنني قدت جميع الأنواع تماما، وإنما.. كلها تقريبا.. من أصغرها، إلى "**الكونستاليشن**" الضخمة.

فقال السيد "**فان لونج**": "عظيم!". وأشعل سيجارة، وأمعن النظر طويلا في "**فرانسيس**" من خلال الدخان، وكأنه يزن – عن بعد – جليسه، ويقدر طاقته واستعداداته البدنية وصفاته المعنوية. وكان "**فرانسيس**" في عجب من هذه الأسئلة، لاسيما أن الأمر كان يتعلق بوظيفة أمين مخزن فحسب. ولذا قطع حبل الصمت بقوله: "هل لي أن أسأل عن نوع المبادلات والصفقات التي تقوم بها شركتكم؟".

– إننا نشتري من الأوروبيين ونبيع للصينيين.. والعكس بالعكس، وسلعنا هي المصابيح الكهربائية، وأجهزة الراديو، وآلات التصوير، والرادار، والأدوات الكهربائية، والعقاقير.. إلخ.

وغمغم "**فرانسيس**": "فهمت!". بينما اضطجع "**فان لونج**" مسترخيا في مقعده، شأن الرجل الذي لم يكن ينوي أن يضع حدا سريعا للمقابلة. ثم وجه فجأة إلى "**فرانسيس**" سؤالا لم يكن مرتقبا، إذ قال:

– ما هي معتقداتك السياسية يا سيد "**أرنولد**"؟

وكان "**فرانسيس**" يرى أن المعتقدات السياسية لا يمكن أن تكون ذات قيمة بالنسبة لشخص يطلب وظيفة أمين مخزن – في (بدروم) مؤسسة للتصدير – ويتولى إعداد الطرود.

فأجاب بحرارة وعن صدق: "لا شيء!".

– أتشعر بنفور واضح من الفاشيين أو الشيوعيين؟

– اسمح لي أن أقول لك إن المعسكرين سواء في نظري من حيث عدم الأهمية.. فلابد للإنسان من أن يأكل أولا، ثم يفكر في السياسة بعد ذلك!

– إن صراحتك تعجبني. والآن لنتكلم في الموضوع: لقد تلقينا – كما قلت لك – أربعين طلباً لائقا، ردا على إعلاننا. فلماذا تراني وضعت طلبك أنت على حدة؟.. لأنك تدخل في زمرة الرجال الذين نحن بحاجة إليهم. فلقد كان إعلاننا في صحيفة "**هونغ كونغ هيرالد**" غامضا، لأننا غير ميالين إلى إظهار نوع المعاونين الذين ننشدهم. فالمنافسة شيء لابد من التحوط دونه في "**هونغ كونغ**" أكثر مما في أي موضع في العالم! وكونك طيارا قديما مجرباً يعزز مركزك لدينا!

وتقبل "**فرانسيس**" إيضاح السيد "**فان لونغ**"، إذ من ذا الذي يدري؟.. قد تكون هذه سمة من سمات النفسية الآسيوية الحذرة الملتوية، التي تنشر إعلانا عن طلب غواصين، بينما تكون – في الحقيقة – بحاجة إلى بهلوانات في السيرك!.. ولكنه تساءل مع ذلك: "ما أظن أن أمين المخازن الذي تنشدونه، يعمل كثيرا في السحاب؟"!

– بل هو يمارس عمله هناك بالذات!

فرفع "**فرانسيس**" حاجبيه، واستطرد "**فان لونغ**" قائلا: "إن نظامنا في التسليم السريع – رعاية منا لبعض العملاء الذين يقطنون خارج "**هونغ كونغ**" – يلزمنا بالالتجاء إلى خدمات طيار خاص!".

وهنا بدأت المسألة تثير اهتمام "**فرانسيس**"، فقال باسما: "إذا كنت يا سيدي محتاجا إلى سائق نقل طائر، فأعتقد أن خبرتي تساعدني على القيام بذلك العمل. ما نوع طائرتكم؟".

– "**البتروس**" خفيفة.. بمحركين.

– أعرف هذا النوع، فهو من صناعة "**وست لاند**"، وسرعته ٦٥٠ كيلو مترا في الساعة، وحمولته الكاملة ثلاثة أطنان.. ويرتفع إلى عشرة آلاف متر.

– بالضبط.. هل تستطيع أن تقوده؟

– وأصابعي في أنفي!

– عفوا؟!

– هذا تعبير شائع لدينا.. أردت أن أقول إنني أستطيع قيادة الطائرة دون أدنى صعوبة.

– عظيم. وهل تقبل يا سيد "**أرنولد**" العمل شهرا تحت الاختبار، كطيار للشركة الآسيوية للاستيراد والتصدير، في مقابل خمسمائة دولار أمريكي؟

– أجل يا سيدي.

– إن لطائرتنا طاقما من الميكانيكيين، وملاحا.. وسنتولى تقديمهم إليك والطائرة في محطة الطيران المدني في "**فيرفيلد**"، وستذهب غدا للتعرف عليها وعلى طاقمها.. وسأصدر الأوامر باستقبالك في الحظيرة الخاصة بالطائرة، ثم تقوم بتجربتها في الجو، وتقدم لي تقريرا عن ذلك في مكاتب الشركة – بشارع "**فيكتوريا**" رقم ٣٤٠ – حوالي الساعة الخامسة إن أمكن!

ونهض "**فان لونج**" وقرع طبلا نحاسيا لاستدعاء مندوبه. ثم التفت نحو "**فرانسيس**" وقال له: "وعلى فكرة.. لا أظنك تستاء إذا دفعنا إليك غدا مائة دولار تحت الحساب، خصما من مرتبك؟". فأجاب "**فرانسيس**": "بل إنني أكون ممتنا لك جدا يا سيد "**فان لونج**".

*****

وظهر "**شو لي لانج**" لدى الباب، فأمر "**فان لونج**" بأن يرافق السيد "**أرنولد**". وانحنى "**فرانسيس**" ثم خرج، فصحبه المندوب مخترقا الحارات المتعرجة المظلمة. وسأله بابتسامته التي كانت تفيض تفاؤلا: "وبعد يا سيد "**أرنولد**". ما هي نتيجة مقابلتك للمدير؟".

– يا سيد "**شو لي لانج**"، لقد عينت بوظيفة طيار!

– عظيم جدا. عظيم جدا!.. من المؤسف حقا أننا لسنا بعد في اليوم السابع من الشهر القمري السابع، فإن ذلك كان حريًا بأن يعد فألا حسنا لك!.. ولكنك كافر قادم من الغرب. ولا شك أنك تسخر من معتقداتنا. ولكني لو كنت مكانك لتقدمت بصلاة ليلية قصيرة، في معبد "**كوان ين**"، إلهتنا التي تحمل السعادة والحظ الحسن إلى البشر!

– طبعا يا سيد "**شو لي لانج**"، ولكن.. في مرة أخرى، فأنا متعب الليلة، ويجب أن أذهب غدا إلى مطار "**فيرفيلد**".

– عفوا يا سيد "**أرنولد**".. ستنتظر إلهتنا، "**كوان ين**" ضراعتك، فلا تهمل أمرها، إذ إنها تحمي من يحبونها.. إن لديكم – في عقيدة "**يسوع**" – ملائكة حارسة، على ما أعتقد.. أليس كذلك؟ إذن فلو أنني كنت في مكانك، لطلبت إلى ملائكتكم الحارسة من جهة، وإلى "**كوان ين** " من جهة أخرى، أن تسهر عليّ.. فإن ملاكين حارسين أفضل من ملاك واحد!

– لقد اعتدت المخاطر يا سيد "**شو لي لانج**"، إذ قضيت محلّقا بين السحب أكثر من ستة آلاف ساعة!

فنظر المندوب إلى "**فرانسيس**" من ركن عينيه، ولم يعلق بشيء. ثم وقف عند ناصية شارع شديد الانحدار نحو المدينة المنخفضة، وقال: "هل تعرف طريقك من هنا يا سيد "**أرنولد**"؟".

– نعم.. أشكرك يا سيد "**شو لي لانج**"، وسأراك بالطبع غدا في مكاتب الشركة!

فحيّاه المندوب، ثم دار على عقبيه واختفى في ظلام الليل. ولم يجد "**فرانسيس**" أدنى مشقة في العودة إلى شارع "**رادزال**"، حيث كان ينزل في فندق "**الملك إدوارد**". وهو نزل صغير يؤمه ضباط البحرية، وصف ضباط الحامية الإنجليزية، ونفر من صغار الموظفين في الإدارة المدنية لصاحبة الجلالة.

وما إن رقد في فراشه حتى انفسح له الوقت لاستعادة خواطره. فإن مقابلته الانفرادية مع "**فان لونج**" فتحت أمامه أبواب الأمل في تحسن الحال. إذ إن قيادة طائرة الشركة أفضل كثيرا من إعداد الطرود أو إحصاء المصابيح الكهربائية فوق الرفوف المتربة!.. وبعد أن انقضت هزة السرور بالحصول على وظيفة مرتبها خمسمائة دولار، راح "**فرانسيس**" يفكر في عبارات "**فان لونج**"، فإن الحديث المتبادل – في حجرة التدخين بدار مدير الشركة – لم يخل من أمور غريبة غير منتظرة.. ذلك أن "**فرانسيس**" دعي لعمل استدرج إليه دون أن يمت بصلة إلى نص الإعلان. كما أن الرجل الذي استقبله لم يكن يشبه في شيء تاجرا عاديا من تجار المصابيح، أو العقاقير، أو أقراص الحاكي.. وهناك ذلك السؤال الطارئ، الخاص بمعتقداته السياسية. فما شأن السياسة بتسليم أنابيب الأسبرين والساعات الدقاقة؟!.. ثم هناك مسألة يحسن الوقوف عندها، وهي: لماذا

تملك الشركة الآسيوية للاستيراد والتصدير طيارة خاصة، لإرسال السلع إلى عملائها، في حين أنه كان من الأيسر استخدام السفن الساحلية التي تجوب المنطقة بالأجر، أو استخدام الطائرات التي تملكها الشركات المدنية للطيران في الشرق الأقصى؟!

كل هذه الأسئلة بدت بغير جواب في الوقت الحاضر، وظلت تدور في تلافيف مخ "**فرانسيس**"، متواثبة لا تستقر. وفجأة تذكّر عودته مع المندوب، والتلميح الخفي من الرجل الصيني إلى كرامات الملائكة الحارسة والإلهة "**كوان ين**"، وفضلها في حمايتنا من المخاطر الخفية العارضة.. بل إن السيد "**شو لي لانج**" أضاف إلى ذلك قوله بإنجليزيته المنغومة: "ملاكان حارسان خير من ملاك واحد!".

أكان هذا تحذيرا ونذيرا؟.. أتراه كان تلميحا إلى خطر غامض لم يكن "**فرانسيس**" يدري عنه شيئا في الوقت الحاضر. ولكن المندوب المطّلع كان يتوقعه؟!.. اللهم إلا أن يكون السيد "**شو لي لانج**" مصابا بفزع عصبي من الطائرات، الأمر الذي قد يبرر مخاوفه المنطوية على ودّ!

وتنهّد "**فرانسيس**" بارتياح الرجل الذي أدار الحظ وجهه إليه بعد طول إدبار. ثم ضرب بقبضة يده وسادته، ونام.. وفي تلك الليلة، رأى في أحلامه السماء تمطر دولارات أمريكية، كأوراق الشجر حين تهب عليها رياح الخريف.

ورأى نفسه يجمعها بخفة، وحبور في جوف قبعته!

الفصل الثاني

بار اللوتس الأسود

لم يكن بار "**اللوتس الأسود**" – القائم على رصيف الميناء أمام مرساة السفن التي تعمل بين "**هونج كونج**" و"**ماكاو**" – يشبه في شيء مأوى القراصنة، كما قد يوحي بهذا الظن اسمه. فليس بين زبائنه ورواده أحد من القراصنة الذين يضعون على عيونهم المفقوءة عصابات سوداء، أو يغطي الوشم الفظيع صدورهم العريضة. وإنما هو مشرب وادع، خاضع لرقابة الشرطة، لا تقع فيه حوادث القتل، بل تحتسى فيه المشروبات الروحية المختلفة، وتلك البيرة التي يؤثرها ملاحو بوارج صاحبة الجلالة البريطانية، عندما ترسو وحدات أسطول الشرق الأقصى في ميناء "**هونج كونج**".

ولقد كان يدير "**اللوتس الأسود**" صف ضابط سابق في الجيش الهندي، اسمه "**جون ماك فرسن**".. خدم عشرين عاما في الفرق الجبلية المسماة "**سيفورت هاي لاندرز**"، عندما كانت تلك الفرق تضم السيخ وأهل (**مدراس**) و"**لاهور**" وغيرهم، قبل تحرر "**الهند**".. وقد كان "**ماك فرسن**" اسكتلنديا شاحب العينين، ذا وجه شديد الحمرة، وشعر غزير. وهو مخلص ودود، يستقبل رواد حانته بترحاب، ويقدم إليهم في المناسبات كأسا آخرى من الشراب حتى يشجعهم على العودة. وكان فخورا بمجموعته من السفن الشراعية الدقيقة الموضوعة في زجاجات بيضاء، ومن تماثيل "**بوذا**" المنحوتة في الصخر الصلد، ومن التحف الصغيرة الغريبة المضحكة التي جمعها أثناء عمله مع الحملة التي أوفدت إلى "**مصر**" – في الحرب العالمية الثانية – لتحارب تحت راية المارشال "**مونتجمري**".

وكان "**فرانسيس**" كثير التردد عليه أثناء تعطله عن العمل، ليطالع لديه الصحف الإنجليزية القديمة، والمجلات التي كان السائحون ينسونها، وهو يحتسي قدحا من الشراب. وكانت لهجة الاسكتلندي – المنبعثة من الحلق – تروق له، كما كانت النوادر التي يرويها تسليه وتنسيه همومه!

وفي غداة مقابلته لـ"**فان لونج**"، ذهب "**فرانسيس**" – بعد العشاء – إلى "**اللوتس الأسود**". وكان قد قضى يوما حافلا بنشاط غير عادي. إذ تعرف إلى الطائرة ذات المحركين من طراز "**البتروس**"، وحلّق بها تحليقا تجريبيا فوق الخليج وفوق البحر. ثم عاد بعد ذلك إلى مكاتب الشركة، التي كانت تزخر بالموظفين الصينيين.. وأدخلوه إلى مكتب السيد "**فان لونج**" فكاد لا يعرف السيد الأنيق الذي استقبله – مرتديا حُلَّة أنيقة من "السكروتة" الهندية، وقميصاً أبيض يزيّنه رباط عنق فاخر – ذلك السيد الذي رآه من قبل في ثوب صيني!

وكانت أولى كلمات بادره بها السيد "**فان لونج**": "والآن!.. ما رأيك في هذا الطيران التجريبي الأول؟".

– إنها طائرة ممتازة، يا سيد "**فان لونج**"!.. مرهفة، مستجيبة، سهلة القياد، يجد المرء لذة في قيادتها!

– عظيم!.. مر إذن بالخزينة وتسلّم أول إذن مالي. ثم انتظر تعليماتي الجديدة إليك، في صباح الغد. فإن المهمة الأولى ستكون في انتظارك!

ودسّ "**فرانسيس**" الدولارات في جيبه، ثم قدّم لنفسه وجبة فاخرة في قاعة المائدة الفخمة في فندق "**كارلتون**". ولم يكن يعرف أحدا في "**هونج كونج**" تقريبا، لأن ضائقته المالية – التي استمرّت شهورا – لم تيسر له الحصول على الشراب الذي يسهل إنشاء علاقات طيبة بالناس. ولما كان متلهفا غاية اللهفة على جمع معلومات عن مخدومه، فقد خطر له أن صديقه "**ماك فرسن**" قد يستطيع أن يقدم إليه معلومات ذات قيمة عنه.

*****

وإذ دخل "**اللوتس الأسود**" – في نحو التاسعة مساء – سرّه أن وجد أن الرواد كانوا قلة. وكان هناك موظف بالجمرك، يترنم في أسى – أمام مائدة البار – فصاح "**فرانسيس**" برب الحانة: هاللو "**جاك**"!.. إني أدعوك إلى كأس من "الجن" المعتق.. تقبل، فهذا دوري في تقديم الشراب!".

وأدهشت هذه اللهجة الطافحة بالسرور، الرجل الإسكتلندي، فجاء وجلس بجوار "**فرانسيس**" وقال له: "ماذا حدث لك أيها الفرنسي؟.. إنك تبدو كمن عثرت يده على كنوز ملكة "**سبأ**".

– أصبت التخمين يا صديقي، فلقد حصلت على وظيفة! وتساءل صاحب المشرب ممازحا: "طباخ؟". فأجابه "**فرانسيس**": "كلا، بل طيار!".. فعاد الأول يتساءل: "**إير فرانس**؟". فأجاب: كلا، عند "**فان لونج**!".

– آه! "**فان لونج**"...

– قل لي، ما رأيك في ذلك وأنت الذي تعرف "**هونج كونج**" بجميع دخائلها!

– هل أنت حقا في خدمة "**فان لونج**"؟

– مدير الشركة الآسيوية للاستيراد والتصدير.. أتعرفها؟

– أعرفها.. أوه! إن مركزها متين، وأي مصرف في الشرق الأقصى يقبل توقيع "**فان لونج**" وهو مغمض العينين!

– هذا مما يطمئن. وهو مطابق لما قاله لي مدير فندق "**الملك إدوارد**". فهل له صفقات ضخمة مع "**أوروبا**"؟

– نعم!.. أتقول إنه استخدمك كطيار؟

– .. لطائرة الشركة الخاصة.

– لم أسمع مطلقا من قبل عن مؤسسة للتصدير والاستيراد هنا، تملك طائرة لحاجاتها الخاصة، فإن السفن تكفي لهذه العمليات.

– ربما كان السبب أنهم أكثر تقدما من منافسيهم؟

فجعل "**ماك فرسن**" يعبث بخده، وشرب جرعة من "الجن"، ثم سأله وهو يطوي جفنيه على عينيه الشاحبتين: أتعرف "**فان لونج**" هذا؟ أتعرف من هو؟"

– إطلاقا!.. إنه مخدومي الجديد، وقد قابلته في بيته ذات مساء وهذا كل شيء!

– إنه هجين من أم برتغالية وأب صيني. وقد عاش طويلا في جزيرة "**فورموزا**" قبل أن ينشئ بيته التجاري في "**هونج كونج**" في سنة ١٩٤٧ .. وقد تعلّم التجارة والاقتصاد عندما كان سكرتيرا صغير الشأن في حاشية "**سونج**" كبير وزراء المالية وزوج أخت

المارشال "**تشانغ كاي شك**".

وكان اسم "**تشانغ كاي شك**" كافيا لكي يرهف "**فرانسيس**" أذنيه، فإذا ماضي "**فان لونغ**" يقترن في ذهنه بسؤاله إياه عن معتقداته السياسية، وعما إذا كان مع الفاشية أو الشيوعية.. فما دام مخدومه قد عاش في "**فورموزا**" وعمل تحت رئاسة "**سونغ**"، فمن المرجح أن يكون مخلصا للماريشال المنفي في جزيرته!.. وقبل أن يفتح "**فرانسيس**" فمه، أجاب "**ماك فرسن**" عن ذلك السؤال الذي كان على وشك توجيهه إليه: "إن الشائع بين الناس أن "**فان لونغ**" أميل إلى "**تشانغ كاي شك**" منه إلى "**ماوتسي تونغ!**".

- أظن إذن أن معتقداته السياسية إذا تدخلت وأثرت في مصالحه التجارية، فإنها تدفعه إلى المتاجرة مع "**فورموزا**" وليس مع "**بكين**".

- لا وجه لهذا الظن، فلعلك قد لاحظت يا صديقي أن الناس هنا يتاجرون في أي شيء ومع أي معسكر.. إذ ليس للنقود رائحة.. والذهب أثمن عندهم من الدم المراق - لقد فعلنا ذلك أيضا في "**أوروبا**" خلال حربين عالميتين. فكان المحايدون يتخمون بالمنافع والتجارة السرية مع المعسكرين المتحاربين، وهم يلوحون بأقدس الشعارات وأنظفها، فَأثْرَوا على أشلاء البلهاء المساكين!

- إن "**هونغ كونغ**" تعتبر - بوجه الإجمال - "**سويسرا**"، "**آسيا**". فنحن محايدون بين الوطنيين في "**تايبه**" والحمر في "**كانتون**". ونحن مرفأ التجارات، ومكمن المهربين والجواسيس، وملاذ الرأسماليين من أهل "**شانغهاي**" الذين أودعوا أموالهم وأقواتهم هنا في حمى التاج البريطاني. وقد باركوا جميعا معاهدة "**نانكن**" التي قدمت إلينا "**هونغ كونغ**" على صحفة من الفضة، في مقابل صحفة أرز!..وكم كان الرأسماليون في "**شانغهاي**" سعداء بالاحتماء هنا عندما قبض الشيوعيون على زمام السلطة!.. وكم من مليونير ممن يتقلب اليوم تحت شمس خليجنا، كان من الممكن أن تبقر بطنه وتترك أحشاؤه طعاما للنسور!

- والسيد "**فان لونغ**"؟

- آه!.. صاحبك الطيب "**فان لونغ**"!.. لقد لمحته يوما، رغم أنه لا يتردد كثيرا على

"**اللوتس الأســـود**"، كما سمعتهم يتحدثون عنه بما يكفي لتكوين فكرة عن هذا الإنسـان.. فهـو تاجر حصيف بالطبع، بيد أن غريزتي توحي إليّ بأنه أكثر من تاجر مصابيح كهربائية وبطاريات جيب، ومكاو للشعر مما تستخدمه الصينيات الأنيقات.. وما دمت في خدمته الآن فسوف يتسنى لك أن تكوّن عنه فكرة في وقت قريب!

*****

ولقد كان "**فرانسيس أرنولد**" في الخامسة والثلاثين من عمره.. تزوج – بعد تحرير "**فرنسا**" – فتاة يقال إنها من أسرة طيبة، وقد استهواها زي الضابط الطيار وأوسمته.. وكان اسمها "**ديانا**"، كإحدى بطلات الروائي "**جورج أونيه**". أما اسم التدليل فكان "**ديـــدي**"... وكانت الابنة المدللة لرجل من أثرياء رجال الصناعة، ترمّل وظل – منذ بلغت ابنته الخامسة عشرة من عمرها – حريصا على تلبية رغباتها ونزواتها.. وقد أوتيت تلك الفتنة المترفعة، التي تتمتع بها الوارثات من بنات كبار البرجوازيين. وكانت لها قبل الزواج علاقتان غراميتان بعشيقين سرعان ما أصبح أمرهما في حيز الماضي المفروغ منه. ولكنّ فترات غياب "**فرانسيس**" الطويلة – في أسفاره – لم ترق لـ"**ديدي**"، التي لم تكن تعترف بنظام للعمل ولا بمواعيد للطيران والرحلات.. فبعد سنتين من الزواج كانت تتخللهما مشاحنات متكررة ضاق بها صدر "**فرانسيس**"، وبعد إنذارات نهائية تتلخص في تخييره بين عجلة القيادة وبين "**ديدي**"، أصبح الطلاق أمرا لا مناص منه.. وسرحت "**ديدي**" زوجها العزيز ليذهب إلى سُحبه وتحليقاته!.. ولما وجد "**فرانسيس**" نفسه أعزب مرة أخرى، خاض عددا من المغامرات الغرامية عملا بما هو مأثور عن الملاحين من أن للواحد منهم زوجة في كل مرفأ.. وراح يقتل الوقت مع راقصات نحيلات من الهند الصينية، وطالبات من "**الملايو**" في "**سنغافورة**". وعرف سكرتيرات من هاويات المغامرات الشاعرية، ومطلّقات مستهترات!.. علاقات بنت يومها، فليس لها غد، ولكنها كانت ترضي شهواته، وتترك قلبه جائعا!

وفيما كان نهبا للضيق في "**آسيا**" – منذ أربعة أشهر – عثر على شقيقة الروح، أو على الأقل على رفيقة لطيفة تواسيه في آلامه.. اسمها "**نينا وونج**". وكان والدها –

الذي توفي من عهد قريب – من المنشوريين المثقفين.. أما والدتها فكانت روسية مهاجرة، رائعة الجمال، كما كان يبدو من صورة فوتوغرافية تحملها "**نينا**" في قلادة ذهبية. وقد أنتج هذا المزيج العجيب من الدماء الآسيوية والسّلافية، ذلك النموذج البديع للأنوثة. فقد كانت "**نينا**" طويلة مثل أبيها، سوداء الشعر مثل أمها.. وكانت عيناها زرقاوين، كأنهما جوهرتان من اللازورد تحت حاجبين مقوسين يزيدان من الطالع الشرقي في سحنتها. وهي رشيقة ملفوفة القوام، دقيقة المعصمين، بديعة اليدين. فلم يكن عجيبا أن يهيم بها "**فرانسيس**" حبا حينما التقى بها في محلات الإخلاص الكبرى – "**جران مجازان سنسير**" – وهي في "**هونج كونج**" بمثابة محلات "**البون مارشيه**" في "**باريس**"، حيث كانت تعمل كخبيرة ترشد السيدات الصينيات في اختيار الثياب الأوروبية والملابس الداخلية ونوافل الزينة!

ولقد ولدت "**نينا**" في "**موكدن**"، وتيتّمت في سن الرابعة والعشرين، فغادرت "**بكين**" – حيث تلقت علومها – لتستقر في الجنوب.. في "**كانتون**"، ولا سيما وأنها تعلمت لغة "**كانتون**" من أمها التي يرجع أصلها إلى "**كزانجتونج**"!.. حتى إذا ألفت نفسها بغير عائل ولا مال، عاشت – في البداية – عيشة شريفة، وإن كانت فقيرة، إذ عملت كرفيقة بالأجر للراقصين في أحد المراقص. وكانت كبرياؤها تمنعها دائما من الانزلاق في المغامرات الوضيعة مع الغرباء من أوروبيين، وآسيويين، وهجناء الجنسين السلافي أو الأوروبي والصيني.. قد ورثت عن أبيها الراحل قوة الإرادة والصلابة، كما ورثت عن أمها الروسية رقة العاطفة والخيال!

وكم من ثري بدين قبيح الخلقة حاول إغراءها لتكون خليلته الخاصة، عارضا عليها أن يعولها. فكانت ترفض تلك العروض باحتقار، وتقول إنها لن تمنح نفسها إلا للرجل الذي تحبه.. وسواء لديها أن يكون هذا الرجل أميرا أو متسولا!.. وقد عرض لها هذا الرجل في شخص "**فرانسيس**"، الذي لم يكن أميرا ولا متسولاً، بيد أنه لم يكن يعتبر الرجل المثالي لامرأة تكسب قوتها بعناء وضيق. وكان قد دعاها للعشاء.. وفيما كانا يتناولان الحلوى، قالت له بعد كل ما صارحته به: "لست أقبل أن أشارك رجلا – لا يروقني جسديا وخلقيا – فراشا، ولو في مقابل مليون تايل.. فإني أفضل فاقتي على

بحبوحة العيش والرفاهية مع ثري بدين أصفر اللون، ولو أغرقني بالجواهر النادرة والأحجار الكريمة!".

وكان "**فرانسيس**" قد استهواها منذ الساعة الأولى، فقالت له في صراحة أخّاذة: "إنك تعجبني أيها العزيز!.. وأنا لا أزال محتفظة بعذريتي.. وعلى استعداد لأن أقدمها إليك!".

وبصراحة لا تقل عن صراحتها أجابها "**فرانسيس**": "إن لاقتراحك هذا أعمق الأثر في نفسي أيتها العزيزة، ولكنني لا أصلح لفتاة تنشد الزواج.. فأنا حطام فاشل قذفته المقادير على صخرة "**هونج كونج**"، في حين أنك أهل - في الواقع - لما هو أفضل من التضحية بما أوتيت من نعم، في سبيل الحياة مع مخلوق فقير من طرازي.. إنه يسيء إليك إذ يقدم لك خاتم الزواج!".

وبلطف شديد قالت: "**نينا**" وهي تربت يد "**فرانسيس**": "ومن ذا الذي حدثك في شأن خاتم الزواج؟".

✿✿✿✿✿

ودامت علاقتهما أربعة أشهر من غير ارتباط قهري أو وعود خادعة. وكانت "**نينا**" تعيش في بيت أرملة صينية تأويها وتقوم برعايتها في أمومة.. وفي غداة مقابلة "**فرانسيس**" لـ"**فان لونج**"، اتصل الشاب تليفونيا بـ"**نينا**"، وقال لها في حبور: "عزيزتي، لقد حدثت معجزة كبرى!.. لم أعد مهددا بخبز الصدقة أو بالحساء الشعبي، فقد حصلت على عمل!.. تعالي لمقابلتي هذا المساء في فندق "**الملك إدوارد**" في الساعة العاشرة، وسأقص عليك كل شيء!".

وكان سرور "**نينا**" عظيما بهذا النبأ السّار. وفي الساعة العاشرة طرقت باب حجرة "**فرانسيس**" طرقا خفيفا. وكان قد عاد لتوه من بار "**اللوتس الأسود**". وارتمت في اندفاع ساحر بين ذراعيه، وهي تصيح: "ماذا وقع لك يا "**فرانسيس**"؟ احك لي بسرعة!".. فلخّص لها "**فرانسيس**" وقائع اليوم السابق، فكان عجبها شديدا. وقالت:

- خمسمائة دولار لشهرك الأول!.. إن هذا هو ينبوع الثراء! يجب أن تحرق أعواد

البخور أمام مذبح "**بوذا**" في معبد الرحمة الأكبر!

– ولسوف تذهبين أنت منذ الغد إلى محل "**وينج أون**" لتشتري ذلك الثوب الذي أعجبك وأنت مارة به ذاك المساء!

– كم أنت لطيف! إني أعبدك يا "**فرانسيس**"!

– والآن، انتظارا لارتدائك هذا الثوب، اخلعي الثوب الذي عليك، فإن الحر الليلة شديد!

وبغير تردد أطاعت "**نينا**".. وكانت نافذة "**فرانسيس**" مفتوحة، وواقعة مباشرة تحت ضوء أحمر صادر من أحد إعلانات "النيون". فبدت "**نينا**" وهي عارية فتنة لناظري "**فرانسيس**"، فأخذ يتأملها!

ولم يسعد "**فرانسيس**" يوما بحضور "**نينا**"، كما سعد في تلك الليلة، لأن إقبال الحظ طرد شبح الفاقة الذي ظل جاثما منذ أسابيع عند فراشه!..

وكانت "**نينا**" مشوقة إلى معرفة المزيد عن هذا العمل الجديد. واجتهد "**فرانسيس**" في أن يشفي فضولها. وما لبث أن قال: "أسمعت يا عزيزتي شيئا عن "**فان لونج**" مدير الشركة الآسيوية للاستيراد والتصدير؟".

– أجل. إنها مؤسسة كبيرة، ومحترمة جدا!

– الجميع يقولون لي ذلك. وليس مركزها المالي هو الذي يهمني – فأنا واثق من استطاعتهم دفع الخمسمائة دولار في نهاية الشهر – ولكن الذي يحيّرني هو "**فان لونج**" نفسه.. المدير!

– لم أره في حياتي!

– اجتهدي لكي تعرفي شيئا عنه.

– وما الذي يقلقك من ناحيته؟

– إنها الطريقة الخارقة للعادة التي استقبل بها مخلوقا مسكينا مثلي، قدّم إليه طلبا للحصول على وظيفة لا أهمية لها إطلاقا!

*****

ونـام "**فـرانسـيس**" إلى الضحى، بعد أن غادرته "**نينا**" في منتصف الليل. وفي الساعة العاشرة صباحا أيقظه رنين التليفون مذعورا. وإذا عاملة تليفون الشركة الآسيوية للاستيراد والتصدير تدعوه للحضور فورا لمقابلة السيد "**فـان لونج**". فارتدى ثيابه بسرعة، وتوجّه إلى شارع "**فيكتوريا**".. واستقبله مندوب المدير بابتسامته الأزلية، وأدخله إلى مكتب المدير. فأشار "**فان لونج**" إلى "**فرانسيس**" أن يجلس، ثم قال له:

– يا سيد "**أرنولد**". إننا بحاجة إلى خدماتك اليوم بالذات.. هل تعرف "**ماكاو**"؟

– طبعا أعرفها..

– ستغادر مطار "**فيرفيلد**" في الظهر، وتهبط في "**ماكاو**"، في مطار "**سان جوان**"، وسيرشدك إليه "**جامبوا**".. ملاح طائرتك، فقد أصدرت إليه تعليماتي. وسيعرفك بوكيلنا هناك السيد "**هو**" – ومكتبه قريب من الميناء – ويسلمه رسالة تتعلق بك. وهاك خمسة وعشرين دولارا صينية، كي تتمكن من المقامرة في لعبة "الفانتان".

– وهل المطلوب مني أن أفلس بها البنك؟

– كلا. وسيشرح لك السيد "**هو**" كل شيء. ومتى انتهيت من مهمتك فعليك أن تركب طائرتك من "**سان جوان**" – ولو في بهمة الليل – وتعود إلى "**هونج كونج**"، فتفضي إليّ بنتيجة رحلتك أيا كانت ساعة وصولك. وبما أنك لم تألف بعد جيدا طريق داري، فعليك أن تحضر إلى هنا حيث تجد ياوري في انتظارك كي يقودك إلى بيتي. هل فهمت مرادي؟

– الأمر واضح غاية الوضوح.

وكان الأمر واضحا جدا حقا، وغريبا جدا.. أيضا وأخذ "**فرانسيس**" يسائل نفسه – وحق له أن يتساءل – كيف تستلزم أعمال الشركة الآسيوية للاستيراد والتصدير طيرانا عاجلا كهذا إلى "**ماكاو**"، واشتراكا في لعبة "**الفانتان**"، وعودة عاجلة إلى "**هونج كونج**"؟!.. ومن المدهش حقا أن يختار عميل للمؤسسة ملهى ليعقد فيه اتفاقا على

صفقة ثلاجات كهربائية أو أسلاك. ولكنه لم يوجه أي سؤال بهذا الخصوص إلى "**فان لونغ**"، واكتفى بأن سأله:

- أعتقد أنني لن أواجه أية صعوبة لدى سلطات "**فيرفيلد**". سواء في الرحيل أو في العودة؟

- إطلاقا يا سيد "**أرنولد**"، فقد نسيت أن أذكر لك أن علاقاتي الشخصية مع مطار "**فيرفيلد**" المدني، علاقات ودية للغاية. والمدير البرتغالي لمطار "**سان جوان**" صديق لي أيضا. وبالتالي ليس لديك ما تخشاه من هذه الناحية!

فحنى "**فرانسيس**" رأسه وخرج، فركب سيارة النقل التابعة للشركة إلى "**فيرفيلد**"، حيث وجد في انتظاره "**جامبوا**".. ملاح الطائرة وعامل اللاسلكي بها في الوقت نفسه. وكان "**فرانسيس**" قد تعرّف من قبل بهذا البرتغالي.. وهو شاب جميل الشكل، نحيف، رشيق، كأنه راقص محترف. وقد وقع اختيار "**فان لونغ**" عليه لأنه كان يعرف "**آسيا**" جيدا، من "**سايجون**" إلى "**شانغهاي**". وقدّم إليه "**فرانسيس**" كأسا من الشراب ليحمله على الكلام قبل الرحيل. ولكن "**جامبوا**" كان قد التحق بالعمل منذ شهر واحد، ولم يكن كثير الاستطلاع. وكان جوابه على أسئلة "**فرانسيس**" بلهجة الارتياح التام: "أوه! الشركة الآسيوية للاستيراد والتصدير؟!.. إن كنت في شك من جهة شيكاتها، فاطمئن!.. حساباتها لا حد لها!".. وهكذا وثق "**فرانسيس**" على الأقل من أنه لا يعمل لحساب مؤسسة وهمية.

وعند الظهر تماما، أقلع بالطائرة متجها إلى "**ماكاو**"، وبعد سبع عشرة دقيقة، هبط مطار "**سان جوان**"، فإذا به مطار بدائي. وبمجرد نزولهما من جوف الطائرة، التقى "**فرانسيس**" و"**جامبوا**" برجل صيني حيًّا الشاب البرتغالي أولا، فقال الملاح يعرّف كلا منهما بالآخر: "السيد "**أرنولد**".. السيد "**هو**"!".

وبعد التحيات المألوفة، صعد "**أرنولد**" إلى سيارة "**فورد**" عتيقة، تولى السيد "**هو**" قيادتها قيادة أبعد ما تكون عن الحذق والمهارة. فكان يغيرّ السرعة بضوضاء شديدة، ويترنّح بالسيارة كامرأة سكرى.. وتوقف قبل أن يصل إلى الميناء أمام نوافذ محصّنة

بقضبان من الحديد، تعلوها لافتة "الشركة الآسيوية للاستيراد والتصدير". وعندئذ استأذن "**جامبوا**" من السيد "**هو**" قائلاً: سأعود في نحو الساعة العاشرة مساء. فقال الرجل: "وهو كذلك يا سيد "**جامبوا**".

ولما اختفى البرتغالي عن ناظريهما، أوضح "**هو**" الأمر لـ "**فرانسيس**"، قائلا: "إن هذا الشاب ينتهز فرصة حضوره إلى "**ماكاو**" ليزور الصينيات اللائي يشغف بصحبتهن!".

واستطرد السيد "**هو**" يهمس وراء كفه المعقوفة:

– إنه ديك كبير يحب التسلل إلى أقفاص الدجاجات الصينية!.. وهو يغيرهن دائما، ويزعم أن النساء مثل سلة الكرز لا تستطيع أن تظل باستمرار تأكل كرزة واحدة، بل يجب أن تلفظ النواة وتتناول ثمرة أخرى طازجة وهكذا!!

وأجاب "**فرانسيس**" هامسا أيضا – على سبيل المجاملة! – من وراء كفه، مذكّرا السيد "**هو**" بمهمته الأصلية التي حضر من أجلها، فقال الرجل: "إليك هي!.. يجب أن أقلك الليلة – في الساعة الثامنة – أمام ملهى "**الخيزران الخالد**".. وهو من ملاهي "**ماكاو**" المخصصة للمقامرة. وسوف تدخل إلى هناك بمفردك. وأظنك تعرف لعبة "الفانتان".. فقال "**فرانسيس**": "طبعا!".

– وابتداء من الساعة الثامنة وثلاثين دقيقة تماما، ستبدأ اللعب من الطابق الأعلى. فهناك دهليز يطل على مائدة اللعب في الطابق الأسفل. وتأكد من الوقت بالضبط: الثامنة وثلاثون دقيقة. وتذكر المبالغ التي ستلقي بها على الرقعة الخضراء: دولارا، ثم دولارين، ثم ثلاثة، ثم أربعة، ثم خمسة دولارات. ثم تعيد الكرّة.. واحدا فاثنين، ثم ثلاثة، ثم أربعة، ثم خمسة دولارات.. ولا تهتم بربحك أو خسارتك.. وعندئذ سوف يتقدم إليك خلسة رجل صيني، ويقول لك بالإنجليزية: "هل لك أن تلعب لي بهذا الدولار؟". وعليك أن تجيبه بالقبول، وإذ ذاك يدس ورقة ذات دولار واحد في يدك. فإياك أن تراهن بها، بل دسها في جيبك وأخرج دولارا من دولاراتك لتراهن له به. هل فهمت؟

– نعم.

– وعليك أن تستمر في اللعب ولا تهتم بالرجل الذي سينصرف على الفور. وبعد

قليل اخرج أنت وتمش على إفريز الميناء، لتتأكد من أن أحدا لا يتبعك، ثم تعال إلى هنا في مكتبي، وستجدني في انتظارك. أما الدولار الذي أعطاك الرجل إياه فاستبقه في جيبك، لأنك ستحمله إلى "**هونغ** "**كونغ**" لتسلمه إلى السيد "**فان لونغ**" .. وهذا كل شيء.

– مسألة سهلة!

– أليس كذلك؟ ومن الآن إلى الساعة الثامنة أنت حر، وعليك أن تقتل وقتك كيفما شئت.. زر الميناء مثلا.. اللهم إلا إذا كنت تفضل الذهاب لزيارة السيدة "**وانغ**"، ففي وسعها أن تقدم إليك إحدى هاتيك المخلوقات اللطيفات اللواتي تتكون منهن سلة الكرز الأثيرة لدى "**جامبوا**"!

فقهقه "**فرانسيس**" ضاحكا وقال: "شكرا لك يا سيد "**هو**"!.. لست أجد قابلية اليوم "لقزقزة" الكرز!" .

– إذن، في هذه الحالة، أنصحك بالتوجه إلى مشرب "**النجم الأبيض**"، فهناك تستطيع أن تستريح وتشرب الشراب الاسكتلندي الجيد المستورد من بلاده مباشرة...

وانفسحت الفرصة طوال بعد ظهر ذلك اليوم أمام "**فرانسيس**"، ليتذوق الشراب الجيد في المشرب "**النجم الأبيض**".

وكانت حيرة "**فرانسيس**" تزداد من ساعة إلى ساعة. فإن المهمة التي كلفه بها السيد "**فان لونغ**" اليوم، فتحت عينيه. ولكنه لم يجسر حتى الآن على استنباط نتائج منطقية معينة من هذه العملية الغريبة. إلا أنه صار من المقطوع به لديه أن هذا المستورد التجاري له علاقات غير عادية!

وأخذ "**فرانسيس**" يقيم موازنات عقلية مضحكة. فتخيّل بيتا تجاريا مماثلا للشركة الآسيوية، في "**باريس**" مثلا. وتخيل هذه المؤسسة الباريسية ترسل طائرتها تحمل موظفا إلى "**مونت كارلو**" كي يلعب الروليت أو البكاراه، وكي يتلقّى ورقة مالية صغيرة – من شخص مجهول يحف به الغموض – في قاعات الكازينو، على أن يحتفظ الموظف بهذه الورقة المالية في جيبه، كي يحملها بكل عناية ورعاية إلى

مخدومه!

إن هذا يتجاوز حقا حدود الخيال والجنون، اللهم إلا إذا...

وقفزت كلمة "الجاسوسية" إلى ذهن "**فرانسيس**". فإن الأمور خليقة بأن تتضح – دون شك – إذا تبين أن "**فان لونج**" يعمل لحساب المخابرات السرية لدولة ما.. فعندئذ فقط، تبدو جميع الاحتياطات التي لجأ إليها مدير الشركة مفهومة، بل ومنطقية تماما!.. وإذا كانت هذه هي الحقيقة، فلحساب من إذن يعمل "**فان لونج**"؟ أللأمريكيين؟ أم للإنجليز؟ أم للروس؟ أم للصينيين البيض؟ أم للصينيين الحمر؟

أحاجٍ وألغاز ومعميات، لابد أن يحمل المستقبل القريب حلها الشافي!

الفصل الثالث

لعبة "الفانتان"

وفي الساعة السابعة وثلاثين دقيقة مساء، جلس "**فرانسيس**" في مشرب "**النجم الأبيض**"، وطلب قطعة من السندويتش وقدحا من البيرة. وجاء جلوسه في أحد الأركان، بالقرب من رجلين يحتسيان الشراب.. وكانا من أهل البرتغال، ولعلهما من طائفة التجار، وقد بكّرا بغلق مكتبيهما. ومهما يكن من أمر، فقد وجد "**فرانسيس**" الفرصة مواتية كي يستعلم عن ملهى "**الخيزران الخالد**" فسألهما: "أتتكلمان الفرنسية أيها السيدان؟".

فأومأ الرجلان برأسيهما في بشاشة، وقال أحدهما:

– إننا نتكلم هنا عددا كبيرا من اللغات: الإنجليزية والصينية والفرنسية والإسبانية.. فهل من خدمة نؤديها لك؟

فقدّم لهما "**فرانسيس**" السجائر، واقترب من مائدتهما قائلا: "سأقضي في "**ماكاو**" أربعا وعشرين ساعة سائحا، وقد أثنوا لي كثيرا على بعض الملاهي، ومن بينها ملهى يسمونه "**الخيزران الخالد**". فهل تعرفانه؟".

فنفض أكبر البرتغاليين سنا رماد سيجاره الطويل وقال:

– "**الخيزران الخالد**"؟ طبعا نعرفه!.. وهو – بيني وبينك – ملهى سيئ السمعة. فإذا كنت تبحث عن وسط راق. فإني أنصحك بأن تذهب وتلعب لدى "**سن فو**" في ملهاه المسمى "**الحظ العظيم**"! ولكنني أنبهك إلى أن الناس يخسرون فيه – رغم اسمه الخدّاع

– كما يخسرون في سواه. ولكن الوسط أرقى!

– فهمت مرادك يا سيدي! وإذا كان الأمر يتعلق بالملاهي الراقية، ففي بلادي الكثير منها: في "**دوفيل**" و"**كان**" و"**بيارتز**".. ولكنني أنشد هنا "اللون المحلي" اذهب إلى "**الخيزران الخالد**". فهو مكتظ، ذو رائحة منتنة!

– وأين هذا الملهى بالضبط؟

متى خرجت من هذا البار، فاتجه يسارا في شارع الميناء مسافة مائتي متر، وستجد شارعا

عموديا على رصيف الميناء، فسر فيه وسترى على اليمين لافتة زرقاء عليها اسم الملهى باللغة الصينية.. ولن تستطيع قراءتها، ولكنها اللافتة الوحيدة الزرقاء في هذا الجزء من المدينة، ولهذا فلن تضل الطريق!.. وإني أنصحك - على كل حال - بأن تمر، من باب العلم بالشيء، بملهى "**الحظ العظيم**"، فإن الوسط هناك راق حقا، ويرتاده البيض من سكان "**ماكاو**"، بل وتستطيع أن تشرب فيه الشراب. وإذا خسرت أكثر من خمسين دولارا أمريكيا، قدّم لك المدير عشاء صينيا فاخرا يعدّه طاهيه الخاص.

- شكرا لك يا سيدي.. وسأفيد ما وسعني من نصائحك!

ونظر "**فرانسيس**" في ساعته، فوجدها الثامنة مساء، فخرج من المشرب إلى أن وقف أمام اللافتة الزرقاء المكتوب عليها بالصينية "**الخيزران الخالد**". فإذا هو بناء مرتفع ذو ثلاث طبقات، قذر المنظر. فدخل بهوا مطليا بالجص، خاليا من الزينة، وقد تجمع فيه عدد من الصينيين يتناقشون في حظوظهم الماضية والمستقبلة. وكانت الضجة العالية تدل على أن أدوار لعبة "**الفانتان**" قد بدأت!

*****

ودخل "**فرانسيس**" قاعة مستطيلة الشكل، جلس فيها الموكلون باللعب إلى مائدة كبيرة منخفضة مغطاة بمفرش مقسّم إلى مربعات، مرقومة من صفر إلى أربعة. وكان العامل جالسا أمام كومة من "الفيشات الصغيرة"، ومتى وضعت المراهنات وانطلق النذير بالكف عن تقديم المبالغ، فصل بجاروفه بعض "الفيشات" - من تلك الكومة الكبيرة - وراح يعدها أربعاً أربعاً، فيتبقى حتما عدد يتراوح بين صفر وأربع، يرمز إلى الرقم الرابح.. ولكل من وضع مبلغا على الرقم الرابح من المفرش، الحق في أن يتقاضى ثلاثة أضعافه ونصف ضعف.. ربحا صافيا!

وكان أمام "**فرانسيس**" ربع ساعة يقضيه في مراقبة اللعبة واللاعبين، قبل أن يحل الموعد الذي حدده له السيد "**هو**". ثم جعل يتمشى في الطابق الأرضي بين الرواد فوجدهم خليطا من الهجناء، والصينيين، والصينيات ذوات الثياب الحريرية المتعددة الألوان. وكان الجميع مشغوفين بتلك اللعبة. وفي أعقاب كل دور ترتفع منهم صيحات

الأسى أو السرور والتنهدات وألفاظ السباب!

واقترب من "**فرانسيس**" رجل صيني نحيف، بارد العظام، في ثياب صينية سوداء، بدا أنه من ملاحظي الملهى، وهمس في أذنه فلم يفهم "**فرانسيس**" كلامه. وأشار إليه الرجل في أن يتبعه، وقاده إلى دهليز، ثم أزاح الستار عن قبو خافت الضوء، فشاهد "**فرانسيس**" رجلين مضطجعين فوق أريكتين يدخنان الأفيون. وهمس المرشد بإنجليزية ركيكة: "غليون.. هل تريد؟ قبل "الفانتان؟".

فسأله "**فرانسيس**" على سبيل الاستطلاع: "بكم؟". فأجاب المرشد مشجعا: "مجانا.. بدون مقابل!". وكان جواب "**فرانسيس**": "كلا، وشكرا".

وعاد "**فرانسيس**" إلى القاعة الكبرى، وكانت الساعة الثامنة وثلاثين دقيقة تماما. فصعد إلى الطابق الأعلى حيث شرفة من الخشب تطل على مائدة اللعب في الطابق الأرضي.

واتكأ على السياج. وكانت اللعبة توشك أن تبدأ، فأرسل أول رهان – وقيمته دولار واحد – وضعها الموظف المختص في سلة دلاها إلى المائدة بخيط، وهو يعلن الرقم المطلوب. وكان من حول "**فرانسيس**" نحو ثلاثين لاعبا ولاعبة. وخسر دولاره على الرقم اثنين. وأعلن مراهنته بدولارين على الرقم ثلاثة فربح.. ثم وضع ثلاثة دولارات على خانة الصفر وخسرها. ثم راهن بأربعة دولارات على الرقم واحد فربح.

وكان وهو يلعب يرقب خلسة من حوله، فلم يجد أحدا ملقيا باله إليه. إذ كان كل واحد منهمكا في اللعب متجها بكليته إلى مدير اللعبة الجالس في الطابق الأسفل أمام كومة "الفيشات". ولعب "**فرانسيس**" بخمسة دولارات، ثم بدأ من جديد يلعب من واحد إلى خمسة، وإذا بشاب صيني يقترب منه. ويقف بجواره ويروح ينظر إلى أسفل بعدم مبالاة. وعندما أعلن "**فرانسيس**" مراهنته بثلاثة دولارات على الرقم أربعة، وقد دلّى السلة الصغيرة، إذا بالرجل يقول:

– من فضلك يا سيدي. خذ هذا الدولار أيضا على الرقم أربعة!

فتناول "**فرانسيس**" الورقة ذات الدولار، ووضعها في جيبه، ثم وضع بدلا منها دولارا من دولاراته ودلّى السلة.

وفي هذه المرة لم يربح رقم أربعة شيئا. وابتعد الشاب الصيني على مهل من غير أن ينطق ببنت شفة، واختفى.

واستمر "**فرانسيس**" يلعب بعض الوقت. ثم خرج كذلك، وقد بلغ ربحه في جملته ثلاثة وعشرين دولارا، وضعها في الجيب الأيسرمن سترته. أما الدولار الذي أعطاه إياه الشاب المجهول، فكان في جيبه الأيمن. وما إن غادر ملهى "**الخيزران الخالد**" حتى وضع الدولار في حافظته حتى لا يختلط بالدولارات الأخرى. وهكذا تمت الخطوة الأولى من العملية التي رسمها السيد "**هو**" من غير عائق!

وتذكّر "**فرانسيس**" الوصية الثانية، وهي التحقق من أن أحدا لا يتبعه. فمشى على طول رصيف الميناء الذي تضيئه مصابيح متناثرة قليلة العدد، وقد احتفظ في ذاكرته بصورة المنطقة، بحيث لا يشق عليه تحديد مكان دار السيد "**هو**". ومرّ به عدد قليل من الناس، لم يكن بينهم من يبدو عليه الاهتمام بشأنه. فاجتاز حارة متعامدة مع رصيف الميناء، وإذا به يجد نفسه محصورا بين رجلين صينيين برزا من ظلام الحارة، ووقفا عن يمينه وشماله. فثبت "**فرانسيس**" في مكانه. وقال له الذي عن يمينه بالإنجليزية.

– بوليس الأمن في "**ماكاو**"!

– وبعد؟

– إن صاحب ملهى "**الخيزران الخالد**" اتصل بنا تليفونيا، وأبلغنا بوجود دولارات مزورة بين مراهنات "**الفانتان**". وقد خرجت أنت الآن من هناك، فاتبعنا إلى مركز البوليس!

وارتبك "**فرانسيس**" بضع ثوان، ثم فكر في أن الفرار بسرعة قد يعرضه لرصاصة تصيب ظهره من الشرطيين اللذين سيبرران فعلتهما – فيما بعد – بأنه هاجمهما. فمن الخير التفاهم شخصيا مع رئيس البوليس المحلي.

ومشى نحو عشر دقائق بين حارسيه، فأدخلاه بيتا معتما خافت الضوء، في ركن شارع مواز لرصيف الميناء. وهناك اجتازا به دهليزاً وأدخلاه حجرة صغيرة ليس بها شيء من مظاهر الإدارة. وجلس أحد الرجلين إلى منضدة، أما الآخر فوقف أمام الباب. وسأله الجالس:

– ما جنسيتك؟

– فرنسي.. وهذا جواز سفري. وإني أحتج على هذا الاعتقال الذي ليس له ما يبرره.

– إنك متهم باللعب بنقود زائفة في ملهى "**الخيزران الخالد**"!

– هذا أولا اتهام سخيف، لأن معي أوراق نقد من "**هونج كونج**"، لا محل للشك في أمرها. ثم إنني أريد أن أتصل تليفونيا على الفور بقنصل فرنسا في "**ماكاو**". فأين جهاز التليفون؟

– الخط مقطوع!

– وهل مكتب بوليسكم بدون تليفون؟

– بلى!

– فأين الخط؟

– في حجرة أخرى.

– أرني الجهاز.

– إنه تحت الإصلاح!

وأدرك "**فرانسيس**" أن الرجلين محتالان وليسا من رجال البوليس، وأن هذا المنزل ليس قسم البوليس، وأنه إذا تأخر فيه طويلا مع هذين الرجلين، فإن موقفه سيزداد خطورة في كل دقيقة.. إذ لا شك في أنهما كانا يعلمان – والله وحده يعرف كيف علما – أنه تسلم رسالة سرية ينتظرها السيد "**هو**"، وكانت لهما مصلحة كبرى في الحصول عليها. وما لم يبادر "**فرانسيس**" إلى التصرف فورا، فإنهما لن يلبثا أن يقيداه ويفتشاه، وهذا ما كان ينبغي أن يتحاشاه بأي ثمن! ولما كان لا يحمل مسدسا، فقد كان لزاما عليه أن يعتمد على مهارته وسرعة حركته وعضلاته ودرايته بالملاكمة التي كان يمارسها فيما مضى..

وفي بضع ثوان قدّر الموقف.. كان هذان الصينيان خطرين، ولابد أنهما كانا يخفيان أسلحة قاتلة.. فيجب عليه أن يعتمد على المباغتة.. ولم يكن أمامه إلا بضع لحظات كي ينجح أو يفشل!

وتصنّع فجأة الترنح، كمن أصيب بدوار، وجعل يجفف جبهته بيد مرتعشة. ثم استدار فجأة نحو الرجل الذي كان يرقب الباب.. وبعنف لا يقاوم سدّد إليه لكمتين جبارتين، أصابته الأولى في بطنه، والثانية في فكه، فتكوّم الرجل على الأرض. ودار "**فرانسيس**" في الحال إلى الخلف، ورفع المنضدة ليقلبها فوق الرجل الجالس، في الوقت الذي جرد الرجل خنجرا من تحت ثوبه.. واستطاع "**فرانسيس**" أن يفلت من الباب، ويخترق الدهليز، ثم يختفي في ظلام الشارع!،، وظل يعدو بأقصى سرعته في تيه من الشوارع المتداخلة، كي يضلل من عساهم يكونون في آثاره. وبعد قليل اتجه إلى دار السيد "**هو**" وهو يلهث. ولم يلبث أن دخل عليه مكتبه بعد أن تحقق من أن أحدا لم يكن يتعقبه!

*****

وجلس "**فرانسيس**"، وقد ظهرت على السيد "**هو**" الدهشة".. فروى له مغامرته القاسية. وكان أول سؤال ألقاه عليه الصيني هو: "أواثق أنت أن أحدا لم يتبعك وأنت قادم إلى هنا؟". فقال: "كل الثقة. فقد درت في منعطفات كثيرة، وكنت حريا بأن أرى أي متعقب لخطواتي!".. وتذكر السيد "**هو**" الدولار، فسأله: "وذلك الدولار الذي تسلمته في "**الخيزران الخالد**؟".

– ها هو.. لا تقلق، فإني لم أفقده في المشاجرة!

فظهر الاطمئنان على وجه السيد "**هو**".. ووضع "**فرانسيس**" يده في جيبه الداخلي واستخرج الدولار. وكانت أول مرة يتطلع فيها إلى ذلك الدولار في الضوء، فدهش دهشة عظيمة حين تبين أن له وجهين. ومعنى ذلك أنه كان عبارة عن دولارين متلاصقين!.. وبينهما شعر "**فرانسيس**" – تحت أنامله – بوجود ورقة مدسوسة، رقيقة جدا، لا شك في أنها كانت تحتوي على رسالة ذات أهمية كبيرة! ومهما يكن من شيء فإن الوقت لم يتسع أمام "**فرانسيس**" ليطيل فحص ذلك الدولار الغريب، لأن السيد "**هو**" مدّ يده فتناوله قائلا:

– عفوا. إن الأوامر التي لدي تقضي بوضعه داخل ظرف مقفل، ستحمله أنت

بالذات إلى السيد "**فان لونج**" شخصيا.

ووضع الصيني الدولار في ظرف أصفر سميك، ثم أقفله بعناية، وختمه من الخارج. وحاول "**فرانسيس**" أن يسأله، ولكن السيد "**هو**" كان يروغ من الإجابة، ولم يزد على أن قال:

-"إنني أنصحك - يا سيد "**أرنولد**" - بأن تقص على السيد "**فان لونج**" تفاصيل الحادث الذي أوشكت أن تكون ضحيته الليلة، فإن ذلك أمر هام.. بل عظيم الأهمية!".

- لا تخف يا سيد "**هو**"، فسيعلم السيد "**فان لونج**" كل شيء! والآن، أرجو أن تسمح بذهابنا إلى مطار "**سان جوان**"!

- كم الساعة الآن؟

- التاسعة وثلاثون دقيقة. وأرجو أن يكون السيد "**جامبوا**" قد فرغ من غزواته الغرامية لفتيات الميناء.

وركبا السيارة العتيقة التي أيقظت الجيران بضجيجها قبل أن تقوم. وجلس السيد "**هو**" إلى عجلة القيادة، وجعل يستعمل البوق - بغير انقطاع - في الحارة المقفرة، إلى أن وقف أمام مطار "**سان جوان**"، فاستعمل الفرامل بعنف جعل "**فرانسيس**" يرتطم بالزجاج الأمامي. ولكن السيد "**جامبوا**" لم يكن قد وصل بعد، فأخذ الميكانيكي يعتذر عنه قائلا:

- إن لدى السيد "**جامبوا**" مهام كثيرة هذه المرة!.. ثلاث فتيات! ولا شك أن المسكين سيتداعى في النهاية. لأن المرحوم "**كازانوفا**" كان ناسكا.. إذا قيس به!

وشرع "**فرانسيس**" يعد طائرته للرحيل، فأمر الميكانيكي بإدارة المحركين.. وأخيرا ظهر "**جامبوا**"، فاستقبله السيد "**هو**" بعاصفة من المعابثات اشترك فيها الميكانيكي. وسأله "**فرانسيس**" عما إذا كان يتمتع بذهن صاح صاف يمكّنه من إرشاده إلى مطار "**هونج كونج**"، فاحتج "**جامبوا**" قائلا: "لا خطر على الإطلاق يا عزيزي، سأروي لك - أثناء الرحلة- كيف قضيت الوقت مع الآنسة "**جوانا كونج**".. إنها مخلوقة رائعة!

*****

وفي الساعة الحادية عشرة مساء، كان "**فرانسيس**" قد أودع طائرته مخزنها، وألقى تحية المساء على "**جامبوا**" – الذي كاد يسقط إعياء لفرط النعاس والتعب – ثم اتجه إلى مقر الشركة، فوجد السيد "**شو لي لانغ**" – ياور المدير – نائما في المكتب الرئيسي، في انتظار وصوله. واتجه نحو "الفيلا" القائمة في "**سيمور رود**".. وكان متلهفا على هذا اللقاء بمخدومه، فوجده منتظرا في الصالون. وكانت أول عبارة له: "لم أكن أنتظر عودتك بهذه السرعة!".

– بل كان من المحتمل ألا تراني إطلاقا!

– هل حدث للطائرة عطب؟

– كلا.. سأروي لك كل شيء. وهاك أولا المظروف الذي أعطانيه السيد "**هو**" كي أسلمه إليك.

وفض "**فان لونغ**" المظروف وأخرج الدولار ذا الوجهين، ثم نهض وقال: "اسمح لي ببضع دقائق!". فقال "**فرانسيس**": "تفضل يا سيدي".

وخرج "**فان لونغ**" مسرعا.. وكان متلهّفا – بالطبع – على مطالعة محتويات هذين الدولارين المتلاصقين.. وطال انتظار "**فرانسيس**" ثلاثة أرباع الساعة، فلم يدهشه أن يطول هذا الغياب. إذ لم يكن ثمة ريب في أن الرسالة كانت مكتوبة بالشفرة، وأن حل رموزها كان يحتاج إلى وقت!

وأخيرا، ظهر "**فان لونغ**" وقد زال التوتر عن وجهه. وتلطّف فقدّم كأسا من الشراب إلى طياره، ثم قال: "والآن يا سيد "**أرنولد**"، قل لي: ما الذي وقع لك؟".

فروى له "**فرانسيس**" مغامراته والقبض عليه بوساطة ذانك الشرطيين المزيفين. وكان لهذا كله وقع شديد جدا على "**فان لونغ**".. وأخيرا، ختم "**فرانسيس**" روايته قائلا: "أنت تدرك طبعا أن شكوى مدير "**الخيزران الخالد**" من وجود دولارات مزيفة قد أحرجني. وقد كنت مستعدا لأي تفتيش قانوني. ولكن الدولار الذي أعطانيه الشاب المجهول كان حريا بأن يقع في أيد غير التي يجب أن يصل إليها، فاستخدمت شجاعتي وقبضة يدي وساقي كي أحمي لك دولارك. وأظن أنك كنت ستستاء كثيرا لو أن هذين الشخصين استوليا عليه!".

– هذا صحيح يا سيدي "**أرنولد**". إنك في الواقع أحسنت التخلص ببراعة من هذين المحتالين.

– عظيم. وبما أن الصراحة يجب أن تكون متبادلة.. وبما أنني كنت اليوم في "**ماكاو**" لحسابك، فإني أعتقد أننا نستطيع أن نتحدث الآن وأوراقنا مكشوفة على المائدة. إنك يا سيد "**فان لونغ**" قد نشرت في الصحف إعلانا تطلب أمين مخازن، في حين أنك كنت تبحث عن طيار. وقد أدمجت هذا الطيار في شبكة جاسوسيتك. ومع أني لم أكد أفحص ذلك الدولار تماما، إلا أنه كان يحتوي أوراقا رقيقة سرية، لا شك في أنك حللت الآن رموزها!.. وأستخلص من هذا أني أنا "**فرانسيس أرنولد**" – الطيار البسيط لطائرة الشركة الآسيوية للاستيراد والتصدير– قد أصبحت شريكك في الجاسوسية بغير علمي. وأرجو أن تلاحظ أني لست مستاء، فإنك تدفع لي أجرا عن أعمالي. ولكن، إذا كنت حريصا على أن أهتم بعملي، وأن أبذل كل عنايتي في التعاون معكم، فيجب أن تثق بي، وتصارحني.

فأشعل "**فان لونغ**" سيجارة.. وللمرة الأولى، قدم سيجارة أخرى إلى "**فرانسيس**"، ثم نهض وأخذ يذرع الصالون – في صمت – في فترة من الزمن. وكان واضحا أنه متردّد في كشف النقاب عن لعبته. وأخيرا جلس وصبّ كأسا أخرى من الشراب لـ"**فرانسيس**"، وقال: "من الواضح الآن أنك قد تبينت حقيقة الشركة الآسيوية للاستيراد والتصدير، وأنها ليست سوى مؤسسة تجارية مخصصة لإخفاء منظمة سرية، لها هدف أهم كثيرا من البيع بالجملة لتجار الدبابيس و"البريمات" وما إلى ذلك. وأنت تذكر أني سألتك في أول مقابلة لنا عما إذا كانت معتقداتك السياسية تميل إلى الفاشية أو الشيوعية!".

– وقد أجبتك بأن السياسة أمر ثانوي في نظري، فهي لا تهمني في بلادي.. فما بالك في "**آسيا**"!

– لديكم في الغرب تقام شبكات للجاسوسية لا يعرف أفرادها بعضهم بعضا. أما هنا فإن منظمتنا مختلفة قليلا. هل تعرف شيئا عن الوضع الحالي في "**الصين**"؟.. إن "**بكين**" قلقة من أعمال "**فورموزا**".. وبمعنى آخر، فإن "**ماوتسي تونغ**" و"**شو آن لاي**"

و"**ليوسكاوشي**" – نائب رئيس المكتب السياسي – لا يمكن أن يسمحوا لـ"**فورموزا**" بأن تغدو – بمساعدة أمريكا – رأس جسر لجيش وطني يقفز منها، بقيادة الماريشال، كي يغزو "**الصين**" من جديد، ويقضي على الجيوش الشعبية التي يقودها الجنرال "**شوته**". إذ إن هذا الجنرال الأخير، ينوي تصفية القوات التي يسميها هو عصابات "**تشانغ كاي شيك**". ونحن هنا في "**هونغ كونغ**"، على حدود ولاية "**كوان تونغ**". وجميع هذه الولايات البحرية من "**هاينان**" إلى "**فوكين**"، إلى "**تشيكيانغ**"، تعتبر تهديدا مباشرا لجزيرة "**فورموزا**". ولهذا يقتضي الأمر تنظيم شبكة. وأنا المسئول عن قطاع "**كوان تونغ**"، ومن حظي أن أقيم في "**هونغ كونغ**" الإنجليزية، التي تعتبر بمثابة "**جنيف**" الآسيوية. وبالقرب منا "**ماكاو**" البرتغالية، وهي ميزة ينبغي أن نستفيد منها.

– فهمت!.. وأستخلص من هذا أنك استخدمتني في عمل لا يوصف بأنه مريح مأمون تمام الأمن والراحة. وقد سنحت لي تجربة خطورته هذا المساء في "**ماكاو**"!

– طبعا، ولهذا فإنك عينت تحت الاختبار لمدة شهر بمرتب خمسمائة دولار.

– إذن فالمطلوب مني أن أخاطر بحياتي – أنا الرجل الأبيض – وأن أتدخل في مشكلة أنا بمنأى عنها نأيي عن حرب بين أهل المريخ، وأن أخوض المخاطر نظير خمسمائة دولار في الشهر؟!

– أترى أن هذا العمل يساوي أكثر من ذلك؟

– نعم. فاطلب من حلفائك الأمريكيين أن يزيدوا المبلغ.!

– يمكننا أن نعثر بسهولة على طيارين صينيين يقبلون العمل ذاته بنصف هذا الأجر.

– ربما. ولكنك لن تكون مطمئنا إلى عدم خيانتهم لك. أما أنا فليس عندي أي تفضيل مذهبي لأحد المعسكرين، ولهذا فمن المضمون مائة في المائة أنني لن ألعب على الحبلين!

– حجتك وجيهة يا سيد "**أرنولد**"، ولكنك تعلم أيضا – كما أعلم أنا– أن الجواسيس كانوا يعملون – أثناء الحرب العالمية – بأجور زهيدة جدا. وحتى عندما كانوا يوعدون بجزاء مسيل للعاب، فإنهم كانوا يتقاضون نقودا زائفة. ذلك لأن المخابرات السرية ضنينة بالمال جدا، وهي تشتري حياة عملائها من أرخص الأسواق! ومع ذلك، فأنا

أعتقد أنك الرجل الذي سنحتاج إليه في مهمات معينة في القريب. ولما كنا نعلم بالتجربة أن الجواسيس الخونة هم الذين يتقاضون مرتبات ضئيلة، فإني مستعد لأن أبقيك في خدمتنا – بعد مغامرة اليوم – بمرتب قدره ألف دولار في الشهر.. أي مائة وخمسون ألف فرنك فرنسي بالسعر الرسمي! ففكر في الأمر أربعا وعشرين ساعة، ثم خبرني بما إذا كان يروق لك أم لا. ودعني أنذرك مقدما بأنك – في حالة الافتضاح – لن تستطيع أن تعتمد على مساعدة "**فورموزا**" التي تجهل وجودك رسميا.. ولا على مساعدة "**واشنطن**" التي تجهل وجودك كذلك.. ولا على وزارة الخارجية الفرنسية التي لن تحرك أصبعها لحمايتك، بل ستقول: "ما الذي ورّط هذا الأحمق في هذه المشكلات؟". فلن يكون في عونك يا سيد "**أرنولد**" إلا ذكاؤك ومهارتك في الطيران وفطنتك وقبضة يدك وعناية السماء.. إذا كانت السماء ستتنازل وتهتم بشخصك المتواضع!.. وأضيف إلى ذلك طبعا كتمانك، إذ يجب أن تقدر أنك ما لم تضع على لسانك قفلا، فيما يتعلق بعملك الحقيقي في الشركة الآسيوية للاستيراد والتصدير – حتى مع الأشخاص المقربين إليك جدا – فإنك ستكون معرضا للموت العاجل، لأن خصومنا لن يفلتوك!

– يا سيد "**فان لونج**".. إنني لست متزوجا، وليس لي أطفال. وما كانت المغامرات لتفزعني.. ولست بحاجة إلى الأربع والعشرين ساعة لكي أعطيك جوابي!

– أهو نعم أو لا؟

– إنه نعم!

*****

وفي اليوم التالي، قدّم "**فرانسيس**" إلى "**نينا**" عشاء فاخرا في مطعم "**منج**" – وهو أشهر وأفضل مطعم صيني – في "**هونج كونج**"، تخصص في أطباق فذة أهمها السمك بالصلصة مع السكر والخل!.. وأفخاذ الدجاج باليخني. وكان "**فرانسيس**" يبدو مسرورا. فسألته "**نينا**": "ما الذي حدث لك يا عزيزي؟". فأجابها: "بعد شهر سيزيد مرتبي".

– منذ الآن؟

– أجل. سيصير ألف دولار في الشهر!

– هذا رائع!

– نعم يا عزيزتي الصغيرة اللذيذة!.. ألف دولار! وطبعا في الشهر القادم سأستبدل قلادتك المصنوعة من اللؤلؤ الزائف، بقلادة حقيقية من الزبرجد الأخضر!

– "**فرانسيس**" ! "**فرانسيس**" !

وأشرق وجه "**نينا**" سرورا. وكيف كان لها أن تعلم أن سخاء مخدوم عشيقها إنما كان تعويضا متواضعا عن المجازفات الخطرة التي سيقتضيه إياها عمله!

الفصل الرابع

أحسنت يا سيد "هو"!

أمسى "**فرانسيس**" على معرفة تامة بموقع "الفيلا" التي كان "**فان لونغ**" يسكنها. ولم يكن قد شاهدها من قبل في ضوء النهار، حتى استدعوه ذلك الصباح إلى هناك على عجل في الساعة التاسعة. فتبين أن شرفتها تطل على منظر رائع ممتد من تلال "**كونلون**" إلى منحدرات حدود "**كوانتون**".. ولما كان قد حضر قبل موعده بقليل، فقد أخذ يتمشّى في الحديقة الكبيرة. فلاحظ أن البستانيين كانوا يخفون مسدسات من طراز "**براونينج**" تحت أقمصتهم القطنية الزرقاء. بل إن واحدا منهم راح يراقب "**فرانسيس**" بعداء، إلى أن تلقى من رئيسهم إشارة مطمئنة. وكان هذا الرئيس مسلحا بمدفع رشاش صغير تحت معطفه.. فكان من الجلي إذن، أن السيد "**فان لونغ**" كان تحت حراسة دقيقة.. إذ كان متحوطا ضد القتلة المحترفين الذين ما كانوا يترددون في الهجوم عليه وهو في عقر داره!

وفي الساعة التاسعة تماما، أدخل "**فرانسيس**" لدى مخدومه، الذي قال له بغير مقدمات: "يا سيد "**أرنولد**". لقد احتك بك في "**ماكاو**" شخصان، في ذلك المساء. وهذه أول مرة يتعرض فيها أحد عملائنا الموكلين بالاتصالات، إلى المطاردة في المستعمرة البرتغالية. وقد قررنا أن نضع حدا حاسما لهذا النوع من التدخل، ولهذا يجب التحقّق من شخصية هذين الشخصين. فهل ألقيت إليهما بالك جيدا أثناء التحامك بهما؟.. سأريك الآن مجموعة من الصور الفوتوغرافية، وستخبرني بما إذا كانت بينهما صورتا هذين الشخصين!".

وفتح "**فان لونغ**" خزانة للأوراق، أخرج منها مجموعات من الصور الفوتوغرافية المتباينة الأحجام، ونثرها على المنضدة. وبعد أن فحص "**فرانسيس**" عددا منها. أشار بأصبعه إلى أحد الوجوه قائلا: "هذا هو الشخص الذي كان يستجوبني.. إنني واثق بالتعرف عليه!".

فقرأ "**فان لونغ**" الكتابة التي كانت على ظهر الصورة، وبدا عليه الارتياح. ثم قال : "حسن جدا.. ليس من المهم أن تعثر على زميله في الصور الأخرى، لأننا نستطيع الاهتداء إليه، متى وضعنا أيدينا على هذا.. وسوف أتولى إبلاغ السيد "**هو**" – بلغتنا المتفق عليها – كي ينتظرك ظهر اليوم في مطار "**سان جوان**" بـ"**ماكاو**". وعندئذ تسلمه الرسالة التي سأحررها الآن، ليعرف ماذا ينبغي عليك أن تفعل!".

وجلس "**فان لونغ**" إلى مكتب صغير، وتناول ريشة رفيعة، غمسها في الحبر الصيني، وكتب على ورقة بيضاء سطورا رأسية بالحروف الصينية. ثم أغلق المظروف – بعد أن وضع فيه صورة الشخص الصيني المشتبه في أمره – وأعطاه لـ"**فرانسيس**"، وهو يقول: "أنصحك ألا تظهر في المدينة برفقة السيد "**هو**" كثيرا، ما لم يطلب هو إليك هذا بصراحة! ولا تفارق – بدون أمر منه – مخزن طائرتك، التي يجب أن تكون – باستمرار – على أهبة الرحيل بغير تأخير، فقد تعود الليلة، أو غدا، أو بعد غد.. فهذا يتوقف على السيد "**هو**". وعلى كل حال، ستكون لديه تعليماتي مفصّلة، وعليك أن تنفذها بحذافيرها.. وهذا كل شيء!".

ووقف "**فان لونغ**" وشدّ على يد "**فرانسيس**".. وفي الساعة الحادية عشرة، غادر "**فرانسيس**" مطار "**فيرفيلد**". وكان "**جامبوا**" معه، فقد كانت لعامل اللاسلكي صلات غرامية في "**ماكاو**"، تجعله حريصا على انتهاز جميع الفرص للتوجه إلى هناك. وأثناء الطيران جعل "**جامبوا**" يفضي بأسراره إلى "**فرانسيس**"، فقد شعر بميل صادق نحوه، وكان حديثه خليطا من لغات شتى، تحت تأثير حماسته، حتى غدت عباراته أشبه بـ"اليخني!".

– إنك يا سيد "**أرنولد**" جدير بأن تفعل ما أفعله أنا، فإن فتيات "**ماكاو**" من الطراز الأول بين الفتيات، حتى أنه ليتعذّر عليك أن تشعر بالملل معهن!.. إن الوقت متسع، فتعال أقدّمك إلى الآنسة "**هيلين ينج**".. أتعرف جلد "الشاموا"؟.. إنه ناعم جدا. أتعرف زغب صغار البجع؟.. إنه ناعم جدا! ومع ذلك فإن جلود هذه الكائنات خشنة إذا قورنت بجلد الآنسة "**ينج**"!.. وهل تفضل الصدور الجميلة؟ إذن أزكي لديك سينوريتا من جزيرة "**بالي**" القريبة من "**بورما**"!.. والدها العزيز – قدس الله روحه – كان مندوبا

لشركة "**هاريسون**" في "**سنغافورة**". فلا البرتقال ولا "الجريبفوروت" - الذي تنتجه "**كاليفورنيا**" - يعد شيئا مذكورا إلى جانب صدر هذه الحسناء من بنات "**بالي**"!

وراقت كلمات عامل اللاسلكي لـ"**فرانسيس**" فصاح: "إذن فأنت - يا عزيزي "**جامبوا**" - تهتم بهذه الأشياء أكثر من اهتمامك بكل ما في الحياة!.. أليس كذلك؟

- بلى. بلى! ولماذا نحن موجودون على وجه الأرض إن لم يكن لهذه المسرات المتباينة المذاق؟.. كل ما عدا هذا هباء في هباء. لماذا أكسب مالا يا صديقي؟ أليس لأشتري ملذات حلوة المذاق؟

- ولكن المخلوقات اللاتي تتردد عليهن، لسن مخلصات في عواطفهن، وإنما هن يحببن حافظة نقودك قبل كل شيء!

- وماذا في ذلك؟.. أفيعنيك كثيرا - حين تتنسم عبير زهرة شذية - أن تكون هذه الزهرة مخلصة أو غير مخلصة في إشاعة أريجها؟... وهل يعني الزهرة في شيء أن تكون رشيق الأنف، أو أفطس العرنين!

- هذه مهزلة.. ومجون!

- وإذا كان هذا المجون شهيّا لذيذا، فماذا يهمني؟ أليس البط المشوي لذيذا في الأكل؟.. ومع أن البطة تكون ميتة، وروحها تحلّق في فردوس الطيور، إلا أن هذا لا يصدني عن أكلها. كذلك الفتيات الجميلات.. إنهن كالبط الميت، ألتهمهن دون أن أسألهن عما إذا كان شكلي يروق لهن أو لا يروق!

وسكت "**جامبوا**"، ثم لبس قبعته الخاصة، بالاستماع والاتصال اللاسلكي، وطلب برج المراقبة في مطار "**سان جوان**" ليعرف ما إذا كان الهبوط ممكنا في الساحة رقم "ب".

*****

وكان السيد "**هو**" موجودا وعلى وجهه ابتسامته الواسعة، وعلى رأسه "**كاسكت**" من النوع الذي كان ركاب الدراجات يستخدمونه، في سنة ١٩٠٠. وأومأ إليه "**فرانسيس**" أن يدخل إليه في المخزن، بعيدا عن أنظار المتطفلين. وهناك أسلمه مظروف "**فان لونج**"، فطالع السيد "**هو**" الرسالة الصينية، وتطلع إلى صورة الرجل وسأله: "أهو

هذا الشخص؟" . وأجاب "**فرانسيس**" : "أجل" .

– حسنا يا سيد "**أرنولد**" . تحسن صنعا بالبقاء في "**سان جوان**" ، فلا تظهر في المدينة قبل أن أخبرك بنفسي أو بوساطة "**جامبوا**" . نم في الطائرة، أو اجلس في مقصف المطار، ولكن لا تخرج إلى المدينة!

– وهو كذلك، يا سيد "**هو**" .

وأشار "**هو**" إلى "**جامبوا**" أن يتبعه، فركب الاثنان السيارة الفورد العتيقة. التي اختفت عن الأنظار بعد زوبعتها المعتادة. وما لبث السيد "**هو**" أن أوقفها أمام مكتبه.. وبعد أن دخل "**جامبوا**" أوصد الباب، وشرح له بالصينية أوامر "**فان لونغ**" ، التي كانت محددة حاسمة: العثور بأي ثمن على ذلك الشخص فرفع "**جامبوا**" ذراعيه إلى السقف وقال: "ما أشبه هذا بمحاولة العثور على رأس دبوس في حمولة عربة من الأرز!" .

– كلا، فأنا أعرف مكانا نستطيع أن نحصل فيه على معلومات مفيدة.

– أين؟

– في ملهى ومشرب شاي اسمه "الجميزات الثلاث" .

– أعرفه، فهناك فتاة جميلة قضيت معها بضع ليال ممتعة!

– أمن فتيات "**كانتون**" هي؟

– كلا. بل هي من "**أنام**" . واسمها الآنسة "**منه باه**" .

وكانت حظية لدى ضابط مهندس إيرلندي تخلى عنها في "**ماكاو**" ، ورحل.

– سنذهب إلى هناك بعد الظهر.

– وفي أية ساعة ستكون بحاجة إليّ؟

– في الساعة الرابعة.. لماذا؟

– سأنتهز هذه الفرصة لأزور "**هيلين ينج**" ، إذ اشتريت لها جوارب من "**هونغ كونغ**" ، وستشكرني عليها شكرا عينيا!.. وبعد أن أنتهي من تقبل شكرها، سأحمل زجاجة عطر من صناعة "**باريس**" إلى "**مرسيديه**" ، وهي فتاة أندلسية ستشكرني أيضا شكرا حارا!

– لا تبدد كل قوتك في جمع هذا الشكر يا "**جامبوا**" ، حتى لا تعود منهوكا، لأنني

قد أحتاج إلى عضلاتك!

– لا تشغل بالك من أجل عضلاتي يا سيد "**هو**"!

*****

وفي الساعة الرابعة، دخل "**جامبوا**" مكتب السيد "**هو**"، بادي السرور، وكأنه قطة فرغت لتوها من التهام فأرين سمينين!.. فأركبه السيد "**هو**" سيارته العتيقة، وانطلقا بها حتى وقفا أمام ملهى "الجميزات الثلاث". وهو بناء جميل من الخشب، على الطراز الياباني، كان قد شيَّده فيما مضى مهرّب كوبي الأصل. ودخل السيد "**هو**" و"**جامبوا**"، بعد أن خلعا نعليهما حتى لا تتسخ تلك الحصر المصنوعة من الخيزران، والتي صفّت حولها موائد صغيرة من خشب "اللق" الأحمر، وأمامها وسائد وثيرة للجلوس.

ونادى "**جامبوا**" الآنسة "**منه باه**"، فأقبلت تميس بقدّها الرشيق، في غلالتها الطويلة المصنوعة من الحرير الأسود. وطلب السيد "**هو**" شايا بالياسمين – وهو أجود أنواع الشاي الصيني – بينما انصرف "**جامبوا**" إلى مغازلة الأنامية الحسناء، التي جلست تحتسي الشاي على إحدى الوسائد، بين الرجلين.. وتقبّلت بسرور سيجارة أمريكية. وبعد تمهيدات ومجاملات، طرق السيد "**هو**" موضوع الزيارة، فأخرج الصورة، وسألها ببساطة: "إنني حائر يا آنسة "**منه باه**". تصوري أنني أبحث في "**ماكاو**" عن قريب لي من أصل "**كانتوني**". إنه ابن عم زوجتي الأولى، ولم أره منذ عيد المصابيح في عام ابن آوى. ولكني علمت أنه هنا. وهو يجهل وجودي في "**ماكاو**"، ولذلك لم يستطع أن يبلغني أخبار عائلتنا التي أنتظرها بفروغ الصبر. فعسى أن تعرفيه؟.. انظري إلى صورته!".

فتأملت "**منه باه**" الصورة في شيء من التردد ثم قالت: "إنني لم أر قريبك هذا من قبل".

– لا هنا ولا في أي مكان آخر؟.. انظري جيدا.

– كلا.

– ظننت أنه كان يتردد أحيانا على ملهى "الجميزات الثلاث".

– سأنادي السيدة، فربما كانت لديها معلومات!

وانصرفت "**منه باه**"، ثم عادت ومعها امرأة عجوز بدينة من ولاية "**هاينان**"، ترتدي ثوبا أزرق بلون ريش الطاووس. وبعد التحيات المعتادة، قصّ عليها السيد "**هو**" القصة ذاتها، ثم أطلعها على الصورة فقالت: "إنك عاثر الحظ يا سيد "هو" لأنه كان هنا أمس".. وإذ أظهرت "**منه باه**" الدهشة، قالت المرأة: "كانت "**منه باه**" قد انصرفت. وقد تناول الشاي مع رجل آخر. ولما عرضت عليهما تمضية الوقت مع الآنسة "**زمردة الخريف**"، رفضا وانصرفا".

– ألا تعلمين أين يسكن في "**ماكاو**"؟

– كلا. فلم تكن لدى الرجلين رغبة في تبادل الحديث مع أحد، فتركتهما وحدهما. وهذا كل ما أستطيع أن أقوله عنهما.

– شكرا لك يا سيدة لي.

وبعد ربع ساعة خرج السيد "**هو**" و"**جامبوا**"، ووقفا في الشارع. وعندئذ قال السيد "**هو**": "إننا لم نضع وقتنا هباء، فالشابان موجودان في "**ماكاو**" حتى الآن، بناء على هذه المعلومات.. وسنذهب الآن لزيارة الملاهي الأخرى ومشارب الشاي حيثما اتفق، لعل وعسى..!".

وعلى هذا، فقد ارتادا خمسة بيوت للشاي، بدون جدوى، وفي الساعة السادسة، عاد السيد "**هو**" إلى مكتبه، وقال للملاح: "لدي فكرة يا سيد "**جامبوا**".

– إن مخك الجبار لا تدور به إلا الأفكار الجبارة.

– لا أدري، ولكنها خطة لا ضرر من تجربتها. وأحب أن أعرف رأيك. إن هذين الجاسوسين قد فشلا في عمليتهما مع السيد "**أرنولد**". ولكنهما كانا واثقين من أنهما في الاتجاه الصائب، فلماذا لا تستخدم السيد "**أرنولد**" طعما لاصطيادهما؟".

– ماذا تعني بهذا يا سيد "**هو**"؟

– بدلا من ترك صديقنا مختفيا في "**سان جوان**"، لماذا لا نذهب فنحضره، ونتنزّه معه على أرصفة الميناء، على مرأى ومسمع من الجميع؟ فإذا أسعفنا الحظ، وانتبه هذان الشخصان إلى وجوده في أحد الملاهي الليلية، فسيتعرّفان عليه.. وعندئذ تسنح لنا

فرصة العمل!

– فلنجرب يا سيد "**هو**". وماذا عسانا أن نخسر؟

واستقل الاثنان السيارة العتيقة ولحقا بـ"**فرانسيس**" في المطار، فوجداه نائما في قمرة الطائرة. ودهش كثيرا لعودتهما، فصعد السيد "**هو**" إلى الطائرة مع "**جامبوا**"، وأطلع "**فرانسيس**"، على الخطّة التي رسمها. وكان الملل قد استولى على "**فرانسيس**"، فقبل – على الفور – القيام بدور كبش الفداء، الذي يستخدم لاستدراج الوحش. وأوضح له السيد "**هو**" التدبيرات اللازمة، فوجد "**أرنولد**" أنها لا تخلو من حصافة. وركب معهما السيارة العتيقة.. وكانت الساعة بعد السابعة، وقد بقيت من ضوء النهار بقية.. الناس يروحون ويجيئون على طول أرصفة الميناء، مترددين على الحوانيت.. وأخذ "**فرانسيس**" يسير وحده، وكأنه يتسكع، والسيد "**هو**" و"**جامبوا**" على مسافة خمسين مترا خلفه. وطال تجواله على هذا النحو ساعة بغير نتيجة، إلى أن خيّم الظلام على البحر الهادئ، وكانت ثمة سفينة شحن واقفة في الميناء، والآلات الرافعة تنقل إليها البضائع، والضجيج يصل إلى السماء الصافية الأديم.

ولحق به السيد "**هو**" و"**جامبوا**" وقالا له وهما يمران بجواره قدما: "اتبعنا، فسنطوف بالملاهي الليلية، ونبدأ بملهى "الحظ العظيم".

*****

وكان هذا الملهى أفخر ملاهي المدينة، وهو الذي سمع "**فرانسيس**" عنه في بار "النجم الأبيض"، ورواده من طبقة مختارة.. ودخل السيد "**هو**" و"**جامبوا**" إلى جميع القاعات وراء "**فرانسيس**". وبعد نصف ساعة أفهماه بالإشارة أن لا فائدة من تبديد الوقت هنا، فانتقلوا إلى ملهى آخر اسمه "**الدورادو**".. ولم يكن حظهم بأحسن من سابقه!.. ووقفوا في طريقهم أمام ملهى من الخشب، يلعب فيه الناس – خلسة – لعبة الحيوانات الستة وثلاثين.. وهي لعبة تشغف بها المرأة الصينية. ويختار اللاعب الحيوان الذي يراهن عليه – كالفأر، أو الثور، أو الأرنب، أو الثعبان – اعتمادا على ما يكون قد شاهده في الأحلام في الليلة السابقة. فمن رأى في حلمه شجرة – مثلا – فعليه أن

يختار القرد، ومن رأى في حلمه رجلا في ثياب مخططة اختار النمر.. ومنظمو هذه اللعبة المحتالون يسعون إلى بيوت العملاء ليتلقوا مراهناتهم. وكان المحظوظون - وهم قلة نادرة - يتقاضون بعد عمليتي السحب اللتين تجريان يوميا، قدر قيمة مراهناتهم ثماني وعشرين مرة. والواقع أن الحيوان الذي يدر الربح. كان يختار في مكتب المدير.. وهو دائما الحيوان الذي لم يراهن عليه غير القلة.

ووقف **"فرانسيس"** يرقب زبائن ذلك الملهى، ثم لم يلبث أن انصرف، ودخل بعد ذلك ملهى "السعادة غير المنتظرة".. وكانت لعبة **"الفانتان"** على أشدها، والزحام شديدا حول المائدة الرئيسية. وفجأة ضغط السيد **"هو"** علِى ذراع **"فرانسيس"** وهمس في أذنه: "انظر إلى الطابق العلوي.. هناك، في الشرفة من جهة اليسار!".

ولم يجد **"فرانسيس"** عناء في معرفة الشخصين اللذين اعتديا عليه، فقام بالمناورة المتفق عليها.. وتسلل السيد **"هو"** و**"جامبوا"** وسط الزحام، إلى أن وقفا عند باب الخروج.

وكانت المناورة تتمثل في صعود **"فرانسيس"** إلى الطابق الأعلى، حيث أطلّ من الشّرفة ليراهن كما فعل في المرة السابقة.. بدولار، ثم اثنين. ثم ثلاثة، ثم أربعة، ثم خمسة!.. وكان يتعمد عند كل مراهنة أن ينظر بإلحاح إلى جهة السلم، كمن ينتظر وصول شخص بفارغ الصبر، وهو يعلم تماما أن الجاسوسين كانا يراقبانه، إذ إنهما اختفيا عند ظهوره وراء المراهنين الآخرين.. وبعد أن خسر بضعة دولارات دار على عقبيه، واتجه نحو السلم. ولمح في مرآة أن الشخصين تبعاه. فخرج من ملهى "السعادة غير المنتظرة"، ليرى السيد **"هو"** و**"جامبوا"** جالسين في السيارة **"الفورد"**، تحت أشجار قريبة، وآلة السيارة دائرة. فأسرع **"فرانسيس"** في اتجاه مكتب الجمرك... وتأكد من أن الجاسوسين كانا يتعقبانه!

وحسب تعليمات السيد **"هو"**، عرّج **"فرانسيس"** بغتة على شارع معتم، فأسرع الصينيان إلى الاقتراب منه. ولما لم يعد يفصلهما عنه أكثر من عشرين مترا، وصلت السيارة، ووقفت فجأة بجوارهما. وقفز السيد **"هو"** برشاقة غير متوقعة منه وكذلك فعل **"جامبوا"** الذي كان ممسكا بمسدسه في يده مثله.. وسددا ضربة عنيفة إلى مؤخرتي

رأسي الصينيين، فتهالكا على الأرض. وعاد "**فرانسيس**" لكي يكون في مؤازرة صديقيه. فأمره السيد "**هو**" أن يساعدهما في نقل الجاسوسين إلى السيارة بأقصى سرعة.

وأودع الجاسوسان أرض السيارة – بين المقعدين – ثم غطاهما السيد "**هو**" بغطاء السيارة العتيق فأخفاهما تماما. وما لبث أن أسرع يقود سيارته إلى مطار "**سان جوان**".. فلم يقف بها إلا عند مخزن الطائرة. فنقل ثلاثتهم الصينيين بسرعة إلى داخل الطائرة، وأخفوهما تحت أكياس كانت موجودة هناك. وما إن انتهوا من إخفاء الجثتين حتى ارتفع صوت من الخارج: "يا سيد "**هو**"!.

فتصبب "**فرانسيس**" عرقا باردا. وأطلّ رأس أحد موظفي جمرك "**ماكاو**" خلال الباب، فالتفت إليه السيد "**هو**" وصاح بابتسامته العريضة، اللطيفة: "مساء الخير يا سيد "**فارجاس**"!".

– هل سترحل الطائرة في هذه الساعة المتأخرة؟

– نعم، فلابد لي من السفر الآن إلى "**هونج كونج**".. هل لك في سيجار "**هافانا**" يا سيد "**فارجاس**"؟

– شكرا لك يا سيد "**هو**". ومع السلامة!

واختفى موظف الجمرك، فالتفت السيد "**هو**" نحو "**فرانسيس**" وقال في بساطة: "إنه صديق قديم!".

*****

وبعد نصف ساعة تلقّى "**فرانسيس**" الإذن بالطيران، فانطلقت الطائرة. وما إن ارتفعت في الجو، حتى التفت "**فرانسيس**" إلى "**جامبوا**" قائلا: "كأنهما خطاب ينقل بالبريد إلى مقصده!". فقال "**جامبوا**": "أتعرف لماذا قدر لهما هذا المصير؟.. لأنهما تصيّداك في ملهى.. السعادة غير المنتظرة!".

وإذ أصبحت الطائرة فوق عرض البحر – بعيدا عن الشاطئ – متّجهة إلى "**هونج كونج**"، التفت "**فرانسيس**"، فرأى السيد "**هو**" جالسا في المؤخرة. ثم أحسّ بتيار

هوائي شديد، يندفع إلى جوف الطائرة، فدهش ونظر خلفه، وإذا السيد "**هو**" قد فتح باب الإنقاذ – الذي يقفز منه الركاب عند الخطر – فسأل "**جامبوا**"، الذي كان يتأمل المنظر باسما مستمتعا: "ماذا خطر له؟".

– إنه يرى أننا مثقلون أكثر مما ينبغي!

وعندئذ، رأى "**فرانسيس**" السيد "**هو**" يرفع الأكياس عن الصينيين الفاقدي الوعي، ثم يرفع أحدهما من قدميه، فيطوّح به في الفضاء. وبعد دقيقة طوّح بزميله. ثم أغلق الباب بعناية وهدوء تام، وجلس وكأن شيئا لم يحدث!.. وشعر الطيار بما طرأ على الطائرة من خفة، إذ قفزت في الجو، ثم استأنفت طيرانها المعتاد.. وذهل "**فرانسيس**"، ونظر إلى "**جامبوا**"، الذي كان يغالب الضحك أمام جهاز اللاسلكي.. وقال له: "ما الذي يضحكك يا "**جامبوا؟**".

– إني أتصور سمك القرش وهو يستمتع بوليمته في هذه اللحظة!

*****

وكانت مقابلة "**فرانسيس**" والسيد "**هو**" لـ"**فان لونج**" في داره في "**هونج كونج**" حرية بأن تطيب كثيرا لهواة المفارقات الساخرة، فإن أولى عبارات "**فان لونج**" كانت: "أنجحتما أم فشلتما؟".. فقال السيد "**هو**" بكل ثبات وقد شبك يديه فوق بطنه: "بل نجحنا" ثم روى الوقائع كلها للسيد "**فان لونج**"، الذي راح يستمتع بتلك التفاصيل، ثم قال "كان الحظّ في جانبكما إذ عثرتما على هذين النسناسين في ملهى "السعادة غير المنتظرة".. كان هذا حظا عظيما حقا!"

– لقد قلت لك يا سيد "**فان لونج**" إننا حملنا هذين الوغدين في سيارتي إلى "**سان جوان**".

– وهل ساءلت نفسك عما تفعل بهما؟

– طبعا، فلو إنني قتلتهما بالرصاص، لكان ذلك حماقة كبيرة، إذ إن السلطات كانت خليقة بأن تدس أنفها في الموضوع ومن ثم لم يكن هذا الحل موضوع بحث.. ولكنني نقلتهما – وهما في إغمائهما – بمساعدة السيدان "**أرنولد**" و"**جامبوا**"، إلى الطائرة. ثم

أقلعنا على الفور.

– وهما معكم؟

– أجل يا سيدي. وما زالا في إغماء.. وعندئذ، ظهرت مشكلة جديدة تحدّت ذكائي المتواضع، فقلت لنفسي: إننا لن نستطيع أن نذهب بهما إلى مطار "**فيرفيلد**"، وإلا تعرضنا لأسئلة محرجة من السلطات الإنجليزية. فماذا نصنع؟.. وأشارت عليّ عقليتي المتواضعة بحلّ بارع.. وفي أثناء تحليقنا فوق البحر في الظلام الدامس، فتحت باب الطائرة، وألقيت بصاحبينا في الفضاء!

– وكانا مغشيا عليهما حتى ذلك الحين؟

– نعم يا سيد "**فان لونج**".. وقد اختفى الاثنان إلى الأبد في المياه المالحة من ارتفاع.. كم مترا يا سيد "**أرنولد**"؟

– ألفي متر يا سيد "**هو**".

– ألفي متر يا سيد "**فان لونج**". سيدهشني كثيرا أن يرد الهواء الطلق صوابهما، فيعودان إلى "**ماكاو**" سباحة!

– أحسنت يا سيد "**هو**"!

وابتسم "**فان لونج**" ابتسامة هيّنة، فرسم السيد "**هو**" على وجهه ابتسامة أخرى مهذبة. وسرت العدوى إلى "**فرانسيس**"، فابتسم أيضا حتى لا يكون أقل تهذيبا من السيدين.. وكان هذا هو التأبين الذي حظي به الجاسوسان!

وفي اليوم التالي، تناول "**فرانسيس**" العشاء مع حبيبته "**نينا**". واحتراما لفروض الصمت والكتمان، اكتفى بأن قال لها إنه قام برحلة ثانية إلى "**ماكاو**"، لحساب الشركة الآسيوية للاستيراد والتصدير.. وجلس الحبيبان السعيدان إلى المائدة، فقدّم إليهما كبير الخدم قائمة الطعام. واختارت "**نينا**" طبقا روسيا. أما "**فرانسيس**" فقد احتار في أمر طعامه، فاقترح عليه كبير الخدم أن يأكل سمكا صادوه حديثا.. وقال: "إنه طازج جدا يا سيدي!".

وتذكر "**فرانسيس**" على الفور الصينيين اللذين ألقيا في ظلام الليل إلى لجة البحر، فرفض بحرارة ذلك الاقتراح، قائلا: "كلا. شكرا لك.. إلا السمك! أعطني طبقا روسيا كالذي طلبته الآنسة!".

الفصل الخامس

جنازة حارة!

كانت المهام التي قام بها "**فرانسيس**" حتى الآن، مهام لا ضرر منها نسبيا. فقد ظل "**فان لونغ**" – طوال ثلاثة أسابيع يبعث به حاملا رسائل عاجلة إلى "**ماكاو**"، أو يكلفه بإحضار وثائق سرية من "**تايبه**" عاصمة "**فورموزا**"، التي لا تبعد عن "**هونغ كونغ** إلا بمسافة تقطعها الطائرة في الساعة وربع.

وذات مساء، انعقد في فيلا "**فان لونغ**" مؤتمر ضمّ اثنين من كبار الصينيين، مندوبين عن هيئة أركان حرب الجيش الوطني في "**فورموزا**". وظل البستانيون المسلحون ساهرين في أركان الحديقة الأربعة..

وقال أحد الصينيين – وهو الكولونيل "**هان يو**" المستشار المقرّب إلى الماريشال "**شانغ كاي تشك**" – مخاطبا "**فان لونغ**" الذي كان يصغي باهتمام: "لقد دنت ساعة العمل، ولم نعد نستطيع مزيدا من الانتظار ونحن في حالة الجمود هذه، التي تعني شلل الدولة. وقد صدق فيلسوفنا "**شينج يون فاي**" فيما قاله أخيرا من أنه "ليس للشعوب أن تصاب بالروماتيزم ولا تيبس المفاصل"! وقد تعرضنا للنقد الشديد في الخارج، ومن بين الناقدين "**ك. س. وو**"، الذي قال: "إذا كان رجال "**فورموزا**" عازمين على إعادة غزو "**الصين**" الكبرى، فيجب أن يلقى نظام الماريشال تأييدا كليا من جميع الدول الديمقراطية الأجنبية. ولكن نظام الماريشال جدير بأن يفقد احترام تلك الدول وتقديرها، ما دام هناك قوميسيرون سياسيون – على المنوال الشيوعي – يقوِّضون روح فرق الجيش المعنوية، وما دام بوليس الماريشال السياسي السري يستخدم التهديد والتعذيب!".. إنني أسرد عليك حملات "وو" للتذكرة، إذ يجب أن نفتح عيوننا جيدا ونستيقظ. إننا الآن نستعد للانتقام بمعونة الولايات المتحدة، ولذا يجب أن نمهد الأرض أمامنا للعمل. وأنت يا "**فان لونغ**" مكلّف بقطاع "**كوان تونغ**"، والماريشال يثق بك، والقيادة العليا تنتظر منك شيئين: معلومات محددة عن تشكيلات الجيش الجنوبي، وأعمال تخريب منظمة ومجددة النشاط كي تنهار روح جنود الجبهة المعنوية. وقد أحيط الماريشال علما بعمليات إنزال العملاء

بالمظلات، التي قمت بها في الخريف الماضي.. وهذه العمليات يجب أن تتجدد وتتكرر، ولابد من أن تضرب ضربة قوية مدوية، لا سيما في قطاع "**كانتون**"..!".

وانحنى "**فان لونج**" وقال: "أمر الماريشال مطاع، وتعليماته ستنفذ!".. وما لبث الرجال الثلاثة أن عكفوا على خريطة دقيقة لقطاع "**كوان تونج**"، وأخذ "**فان لونج**" يدوّن الملاحظات. وفي هذه الليلة عينها، أعادت طائرة حربية الكبيرين الصينيين إلى قاعدة "**تايبه**". ومنذ الصباح الباكر ساد النشاط مكاتب الشركة الآسيوية للاستيراد والتصدير، فتلقّى الموظفون في مكاتبهم أوامر متفرّقة لاجتياز الحدود – أصدرها إليهم "**فان لونج**" – لكي يحلوا محل الجواسيس الذين قبض عليهم الحمر أو أعدموهم في "**كوان تونج**". فالأحياء دائما يحلون محل الموتى!

وذات مساء، استدعى "**فان لونج**" "**فرانسيس**"، وقال له: "إنك حلّقت حتى الآن فوق أراض صديقة أو محايدة. أما الآن، فإني سأعهد إليك بمهمة أصعب من ذلك.. ولابد أن خدماتك العسكرية أثناء الحرب جعلتك تألف هذا النوع من الطيران الليلي، ولذلك فلست إخالك تجهل شيئا من "تكتيك الهبوط بالمظلات في أرض معادية؟".

– إني أعرف هذا القبيل من العمليات.

– حسن جدا.. تعال معي ندرس هذه الخريطة، التي تمثل منطقة "**كانتون**". بمقياس واحد من عشرين ألفا من المسافة الحقيقية!

وبسط "**فان لونج**" خريطة كبيرة، ثم أشار إلى نقطة على مسافة ثمانين كيلو مترا إلى الشمال الشرقي من عاصمة "**كوان تونج**". وقال: "انظر إلى هذا الصليب الأحمر! إنه نقطة الوسط في سهل، تطوّقه التلال وتنتشر فيه حقول الأرز. وهو الموضع المحدد الذي يجب أن تلقي فيه بالباراشوت ستة طرود خفيفة، مغلّفة جيدا، يزن كل منها نحو ثلاثين كيلو جراما".

– من الديناميت؟

– كلا. بل هي مفجرات ذات توقيت، مجهّزة بساعات.

– أهي مخصصة لتفجير القنابل؟

– بالضبط.. وقد أعد هذه القنابل ثوارنا، ولا ينقصهم إلا هذه المفجرات. وسيكون

من نصيبك أن تحملها إليهم في ليلة ١٤ – ١٥، في الساعة ٢٣ وثلاثين دقيقة بالضبط!

– وما هي العلامات المتفق عليها؟

– أربع نيران على شكل معين، ستوقد هناك في الساعة ٢٣ و٢٥ دقيقة بالضبط. ويجب أن يكون سقوط الطرود الستة مضبوطا بحيث تستقر على الأرض في وسط الشكل المعين!. ثم إليك هذه التوجيهات التي ستتيح لك الحد الأقصى من الأمان: فإن المدفعية المضادة للطائرات نشطة جدا حول "**كانتون**". وأنصحك عند القيام من "**فيرفيلد**" أن توجه الطائرة نحو "**ماكاو**"، كأنك ذاهب في رحلة من رحلاتك المعتادة.. حتى إذا صرت فوق "**ماكاو**"، فحلّق على ارتفاع ستة آلاف متر، واتجه إلى الشمال الغربي. وبعد أن تقطع في هذا الاتجاه مائة كيلو متر حوِّل الدفة نحو الشمال الشرقي، ثم اقذف بالمظلات هذه الطرود، على ارتفاع مائة متر. ومتى تم إلقاؤها، اتجه على الفور نحو "**ماكاو**"، عن طريق نهر اللؤلؤ، الذي يجب أن تطير فوقه بأقصى سرعتك، تحاشيا للمدفعية المضادة التي ستحاول أن تتصيَّدك في الطريق. وأمامك فرصة توازي تسعين في المائة للنجاة.

– حسنا.

– ومتى صرت فوق "**ماكاو**"، اتجه نحو البحر، في اتجاه جنوبي غربي، وعليك أن تطير على ثلاثين مترا من سطح الأمواج، إذا ما وجدت طائرات "**الميج الصينية**" في دوراتها فوق المياه الإقليمية لمقاطعة "**كوان تونغ**".. ثم اهبط – أخيرا – في "**فيرفيلد**"!

– مفهوم يا سيد "**فان لونغ**".

– وسيتلقّى "**جامبوا**" تعليمات محددة، كي يقوم بمساعدتك على خير وجه، فهو يعرف المنطقة جيدا. ويمكنك أن تعتمد عليه.

*****

وفي تلك الليلة، كانت النجوم تتلألأ في سماء صافية الأديم. وكان "**فرانسيس**" جالسا بجوار "**جامبوا**"، أمام مخزن طائرته "**الالباتروس**". وكان قد حسب بدقة الوقت اللازم لإتمام العملية، فإذا به لا يزيد على خمس عشرة دقيقة.. ومن ثمّ فقد كان أمامهما نصف ساعة قبل التحليق، فجلسا على العشب يدخنان. وقال "**فرانسيس**"

لـ"**جامبوا**" : "هاك رحلة تغاير ما تعوّدته من غزواتك الغرامية في "**ماكاوا**" .. فاطلق "**جامبوا**" زفرة طويلة، ثم قال: "يا للخسارة!.. مما يرثى له ألا نستطيع الهبوط بالبراشوت فوق سفن الزهور الراسية في شاطئ "**شامين**"!".

وسأله "**فرانسيس**" : "أتعرفها؟" . فزفر "**جامبوا**" مرة أخرى، وقال: "أعرفها؟!.. لقد بدأت تاريخي الغرامي الحافل هناك، وكان عمري وقتذاك أربعة عشر عاما ونصف عام!" . فقهقه "**فرانسيس**" ضاحكا وقال: "يا عزيزي "**جامبوا**"، إنك تحدد معالم الكرة الأرضية بمغامراتك.. فلو أن أحدا حدثك عن الأكروبول، لقلت له: إن هذا يذكرني بيونانية حسناء لها عينان كثمار اللوز"!.. وإذا سألك أحد عن رأيك في حمامات الإمبراطور "كركلا الساخنة"، لقلت: "آه. إنه المكان الذي قرصت فيه ردف امرأة رومانية سمراء، فاحمة الشعر كالليل، غيورا كالنمرة!".. هكذا أنت حقا!".

– أليس هذا طبيعيا رغم كل شيء؟.. لقد كان أبي من أجمل رجال البرتغال في زمنه، وقد أورثني إعجابه بالجنس الضعيف، ونظرته إلى الكرة الأرضية من خلال جمال المرأة.. لأن الله خلق النساء للترفيه عن الملاحين.. وهذه هي نظرة الرجل الحكيم!

– إنها حكمة ستقودك إلى المقعد ذي العجلات، حين تبلغ الخمسين من عمرك!

– ربما!.. ولكنني أكون قد أفدت من الحياة حتى تلك السن.. فالأحمق هو الذي يتطرف في العفّة، ولست أحب لنفسي أن يكون تابوتي فيما بعد خزانة للفرص الجميلة الضائعة!

وكانت عينا "**جامبوا**" تلمعان لذكرى مغامراته الغراميّة. واستخرج لنفسه سيجارة – من العلبة التي قدّمها إليه "**فرانسيس**" – واستطرد قائلا: "فلنعد إلى الحديث عن سفن الزهور.. إنني أتذكر قوادة عجوزا من الصينيات، كانت تقدم – لمن يدفع الثمن الأعلى – صبية جميلة – من حسان "**كانتون**" – في الخامسة عشرة من عمرها.. وهي سن "**جوليت**"! أما جسدها فكأنه تمثال من العاج.. ولها عجز متماسك مثل كرات الجولف. وكانت فضلا عن هذا لعوبا، جريئة تلعب بالرجال كأنهم كرات من الصوف

تلهو بها قطة!.. وكان مجموع عمري وعمرها لا يكاد يبلغ الثلاثين. وظنت العجوز التي كانت تقدّمها إنني لست بادئا، حديث عهد بالمغامرات، بل ظنتني خبيرا بفنون الهوى. فلم يخطر ببالها أن هذه القطّة الكانتونية هي التي كان مقدرا أن تريني الدنيا!".

ووضع "**جامبوا**" أصابع يده اليمنى مجتمعة أمام شفتيه، كمن يرسل قبلة، وصاح: "آه يا "**فرانسيس**"! متعة جديرة بالآلهة! ومائدة جديرة بالملوك! وفي الساعة الثالثة صباحا، أغمي عليّ من الإرهاق، فقامت العجوز بردّي إلى الصواب بضربات قاسية من خرقة مبللة بالماء القذر الذي يجري بين ضفتي نهر اللؤلؤ!.. فلما عدت إلى اليابسة كانت قد سلبتني دولاراتي العشرة!".

– ألم ترها بعد ذلك مطلقا.. هذه القطة الفاتنة؟

– كلا للأسف!.. بل علمت بعد ذلك بثلاث سنوات أن كولونيلا صينيا خنقها!

– يا للمسكينة! ولماذا؟

– كان هذا الكولونيل لا يحب أن يشاركه أحد إياها!

وبدرت عن "**جامبوا**" إشارة غامضة، ونفخ دخان سيجارته نحو النجوم، وهو يقول: "إنها الآن في جنة الهريرات الصغيرة.. ضحايا قسوة الصفر الجبابرة، الأنانيين!".. ونظر "**فرانسيس**" إلى ساعته. فإذا الوقت قد آن كي ينسيا حديث المغامرات. فقال آمرا: "يا "**جامبوا**". إلى الطيران!".

وأقلعت الطائرة.. وبعد قليل وصلت فوق ذلك المكان المعيّن الذي حدده السيد "**لونج**". وكانت الساعة قد بلغت الثالثة والعشرين وأربعا وعشرين دقيقة. فأشار "**جامبوا**" يرشد جاره إلى أربع نيران مشتعلة على الأرض.. وشرع "**فرانسيس**" يحوم في الجو، ثم هبط إلى ارتفاع مائتي متر. وقام "**جامبوا**" بإلقاء الطرود الستة.. ووفقا لتعليمات "**فان لونج**"، انقض "**فرانسيس**" مقتربا من الأرض، ثم طار بأقصى سرعة فوق مياه نهر اللؤلؤ، التي بدت كشريط من الفضة.. وتمت العودة دونما ضرر أو عقبة. وقبل منتصف الليل بعشر دقائق، كانت الطائرة تحلق فوق البحر – على ارتفاع عشرين مترا من

سطح الأمواج – ثم هبطت في مطار "**فيرفيلد**" . وقدّم "**فرانسيس**" تقريرا عن مهمته إلى "**فان لونج**" ، الذي سرّ للنتيجة وقال له: "لسوف تعرف – بعد قليل – نتائج طيرانك الليلي!" .

*****

وكان من عادة "**فرانسيس**" و"**نينا**" أن يناما إلى الضحى، في أيام الأحد. وفي ذلك اليوم كانا متعانقين فوق وسادة واحدة، وأنف "**فرانسيس**" بين غدائر شعر "**نينا**" البني اللون.. وكان يحب أن يحس فوق جسده بذلك الجسد الجميل الممشوق الحار، الذي كان يعلم أنه له وحده. ولم يكن "**فرانسيس**" متيّما يوما – كما كان في ذلك الوقت – بتلك الحسناء الروسية المنشورية، التي جمعت في توقّد عواطفها بين عزيمة أبيها ورشاقة أمها وسحرها!

ونهضت "**نينا**" بخفة، فالتقطت – من فوق البساط – صحيفة "**هونج كونج جازيت**" ، وراحت تتصفّحها. وفجأة استلفت نظرها مقال عنوانه: "جنازة حارة!" .

وأخذت تطالع المقال. ثم عجزت عن أن تقاوم الرغبة في تنبيه صاحبها، فقالت له: "أرأيت هذه القصة يا حبيبي؟.. إنها غريبة للغاية!" . فتساءل: "وما هي؟" . فقالت: "جنازة حارة للسيد "**تشن**"" .. وقال "**فرانسيس**" : "لا، لم أرها. لماذا؟" . فقالت: "إذن اسمع هذا!" .

وشرعت "**نينا**" تقرأ بصوت مرتفع: "روى صيني من أهالي "**كوان تونج**" ، جاء إلى "**ماكاو**" – منذ أيام – لاجئا، مأساة غريبة من مآسي الحرب الخفيّة التي تدور بين دولتي "**الصين**" .

ولم تشر إلى هذه المأساة الصّحف التي تصدر باللغة الصينية في "**بي بنج**" ، لأن رقابة حكومة الجمهورية الشعبية لم تسمح بكشف النقاب عنها. وإليكم الوقائع في ليلة ١٤ – ١٥ من أكتوبر، كمن في مزارع الأرز أربعة فلاحين من "**تشاوتشونو**" ، وأوقدوا أربع شعلات من النيران عند أركان الحقل الأربعة.

وكانت هذه هي الإشارة المتفق عليها كي يتلقى عندها هؤلاء الأربعة من رجال

"**تشانغ كاي تشيك**"، المواد اللازمة لصنع القنابل المتفجرة، بوساطة المظلات التي تسقطها عليهما طائرة قادمة من "**فورموزا**".. وبعد أن التقط هؤلاء الفلاحون ما سقط عليهم من السماء، ليستكملوا بها صنع قنابلهم، وضعوها في معبد مهجور مكرس لـ"**بوذا**"، رب الرجاء.

"وإلى هنا والعملية عادية تشبه كثيرا غيرها، إذ إن أعمال التخريب كانت منذ الأزل عنصرا من عناصر الحرب الباردة بين الأشقاء المتحاربين. بيد أن عملية هذه المرة، كان مكتوبا لها أن تتخذ اتجاها غير منتظر. فإن فلاحا كهلا يدعى "**تشن**"، مات بعد عيد منتصف الخريف في "**كوانغ لين**". وكانت أسرة هذا الفلاح من ضحايا النظام الجديد، إذ إن ابنها البكر أعدم بسبب آرائه المعادية. فكانت الأسرة على استعداد لانتهاز أول فرصة للانتقام. وقد ذهب مندوب المقاومة السرية – في ذلك القطاع من "**كوان تونغ**" – إلى أرملة الفلاح الكهل وأبناء أخيه، وعرض عليهم الخطة الماكرة التي دبرها الثوار..

"فمن المعروف أن الجنازة الصينية لا تشيّع إلا بعد أن يحدد ساحر القرية اليوم والساعة المناسبين، كما يعين الموقع الذي يجب أن يستريح فيه الفقيد في الأرض، كي تتقبله الأرواح – في العالم الآخر – قبولا حسنا!.. وكان من المقرر أن يسلك موكب جنازة السيد "**تشن**" طريقاً محاذيا لسكة حديد "**كانتون**" الذاهبة إلى "**شيوشاو**". فرؤي ألا توضع جثة الفقيد في تابوته الفخم – كما تقضي التقاليد – وإنما في تابوت متواضع من الخشب، يخبأ في مكان ما من بيت الفلاح. فإذا كان يوم الجنازة الرسمية، حمل التابوت الضخم الثقيل على أعناق عشرة من المتطوعين – وهو خال – إلى جبل الياسمين..

"وطريق "**شيوشاو**" يمر – في بقعة معينة منه – قريبا من مخزن للبنزين، يخفيه جيش الثورة الشعبية. وهذا المخزن هو الذي يمد أسراب الطيران – في جيش الجنوب – بالوقود، ويتسع لنحو أربعمائة طن من البنزين.. وكانت تسبق موكب الجنازة – الذي سار وراء التابوت الضخم الخالي من جثة الفقيد – جوقة من الموسيقيين والنائحات، وفقا للتقاليد، ومعهم حملة القرابين والصدقات، ومن وراء هؤلاء أفراد الأسرة.. وعندما صدرت إشارة معينة من مندوب المقاومة السرية، وقف حملة التابوت فجأة، وأظهروا

الفزع، فأعلن حملة التابوت أنهم سمعوا من داخله طرقات صماء.. فلعل السيد "**تشن**" لم يمت حقيقة، وأنه أفاق من غشية وقتية، فكان يحاول الاستغاثة. وفزع الجميع وبادروا إلى الفرار- بناء على إشارة متفق عليها من مندوب المقاومة - وهم يصرخون رعبا، لأن الأرواح الشريرة توشك أن تنقض عليهم عقابا لهم على إقدامهم على دفن هذا الميت قبل أوانه..

"وما إن وضع التابوت على أرض الطريق، وتوارى جميع المشيعين وراء ربوة هناك، حتى ملأ الجو انفجار مروع، تلاه آخر، ثم ثالث، ثم رابع.. وشيئا فشيئا، وصلت النار إلى الأربعمائة ألف لتر من البنزين، فاشتعلت وملأت السماء بسحب من الدخان الأسود!.. ولقد كان نجاح هذه الخطة - التي رسمها المتمردون - تاما، بفضل القنابل التي كانت مخبأة في تابوت السيد "**تشن**". فأصبحت وفاته وسيلة جبارة للانتقام لابنه الذي أعدمه الجلاد لعدائه للنظام الشيوعي.

"وقد أضاف اللاجئ - الذي حمل إلينا القصة من "**كوان تونج**" - أن أسرة السيد "**تشن**" انضمت إلى المقاومة السرية، كي تنجو من الاضطهاد الذي كان ينتظرها!".

*****

وبعد أن فرغت "**نينا**" من القراءة، وضعت الجريدة فوق ركبتيها. وكان "**فرانسيس**" قد أصغى لذلك المقال باهتمام بالغ إلا أنه تصنّع عدم المبالاة، كأي رجل خبر مآسي الحرب العالمية الثانية، واكتفى بأن قال معقّبا ببساطة: "ليس للسيد "**تشن**" هذا أن يشكو من أن جنازته لم تكن حارة!".

وركعت "**نينا**" فوق الفراش، وحملقت في وجه "**فرانسيس**": "أتصدقني يا "**فرانسيس**" لو أنني اعترفت لك بأني كنت أوثر أن أكون بين أعضاء أسرة السيد "**تشن**"، كي أشهد جنازته التي انتهت تلك النهاية النارية؟".

- ما كنت أظنك - يا يمامتي الصغيرة - حقوداً إلى هذا الحد.

- إنك لم تعرفني بعد..

- بل أعرفك تماما!.. من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب!

– كلا أيها الحبيب.. وأرجوك أن تدع التعرف إلى معالم قشرتي، وتكف عند تلمس نصفي الجنوبي!.. إنما كنت جادة في حديثي، ولا تنس أن والدتي العزيزة – رحمها الله – كانت روسية ومن بنات المهاجرين. لقد ضحينا بأسرتنا كلها على مذبح الثورة الروسية، فقتل جميع أفرادها رميا بالرصاص أو شنقا.. فهل من عجب أن أسرّ حين أرى رجال المقاومة من أتباع "**فورموزا**" يوجهون هذه الضربات السرية إلى حلفاء السوفييت من الصينيين؟.. إن هذا أمر طبيعي بعد كل شيء.. ولو أن والديّ قضيا بين الديمقراطية الغربية مثلا، لوجدتني أول راغبة في إيذاء الغرب سرا.. أتحب أن أبوح لك بسر؟ اعلم إذن أنه لو واتتني الفرصة، ما ترددت في عرض خدماتي على رجال المقاومة من أعوان "**شانغ كاي شيك**"!

– على رسلك!.. دعي المتخاصمين يسوُّون خلافاتهم فيما بينهم، واكتفي أنت بسرد محاسن المخمل والحرير واللينو لعميلات محلات الإخلاص!

وبحركة حادة من رأسها، ألقت "**نينا**" غدائر شعرها الأسود إلى الخلف، وكانت قد تهدّلت فوق جبينها. وضربت بقبضتيها الصغيرتين صدر حبيبها، وصاحت بين الضحك والممازحة: "إنني لم أخلق لحبك الصوف، ولاطهو الأرز، وإنما خلقت للقتال!".

فانفجر "**فرانسيس**" ضاحكا، وقبض على ذراعي عشيقته فشلّ حركتها، ثم جذبها إليه برفق وهو يغمغم: "أحبك يا "**نينا**".. وكم أحبك حينما يستولي عليك الغضب هكذا، كأنك تهمين بتحطيم كل شيء!".

*****

كانت سفن الزهور فوق نهر اللؤلؤ بـ"**كانتون**"، من أهم الطرائف التي يزورها السائحون الغربيون، يوم كان مسموحا لهم بدخول الجمهورية الصينية. ولا تزال هذه المؤسسات الجميلة – التي لا توجد إلا في "**الصين**" الجنوبية – إحدى عجائب المنطقة. وهي عبارة عن قوارب راسية بين ضفتي النهر، لتكون مواخير عائمة للحب الجنسي، يؤمها الماجنون والعسكريون في ساعات الانطلاق.. وفي الليل – في ضوء القمر–

يطوف الرواد مستعرضين سفن الزهور، في زوارق صغيرة. فيجدون هذه العوّامات مضاءة بمصابيح "**الإسيتيلين**"، وقد احتشدت فيها نماذج من الجمال الصيني.. وتسمع بين الحين والحين تعليقات مرحة، وعبارات غزل، وأصوات تتغنى بالأناشيد الشعبية التي كانت رائجة منذ ثلاثين عاما.

وكانت السيدة "**ينج نينج**" تقطن في الحي الفرنسي القديم بمدينة "**شامين**"، في بيت من الخشب، يقع في مواجهة رصيف الميناء، بحيث تستطيع هذه السيدة من نافذتها أن ترقب – من بعيد – أسطول السفن.. وكان لها في ذلك مأرب، لأنها كانت من أهم مورّدات بنات الهوى والحب المأجور.. فعندما تفقد "سفينة التأوهات" أو "سفينة الجمال الغالي" إحدى غانياتها، لأن أحد الهواة استأثر لنفسه بمستخدمة حسناء، تقوم السيدة "**ينج نينج**" بتوريد بديلة لها على الفور، أو بديلتين يختار صاحب السفينة منهما من تروقه!.. فما كانت هذه السائمة البشرية المعطرة تنقص تلك السيدة، لأنها كانت تملك من المال ما يمكنها من شراء بنات الفلاحين الفقراء بأرخص الأسعار. وبعد أن تدربهن أحسن تدريب بخبرتها الواسعة تدفع بهن إلى المستقبل العريض، على تلك السفن، فوق نهر "اللؤلؤ".. حيث تشهد النجوم الساطعة في الليالي الصافية غزواتهن الغرامية المشبوبة!

وكانت السيدة "**ينج نينج**" في الخامسة والخمسين من العمر قصيرة القامة، ذات وجه مغضن كثمرة القراصية الناضجة.. وحول شعرها الأشيب شريط من المخمل الأسود، مزركش بأزهار حمراء وصفراء. وكان لباسها – في الغالب ثوبا جميلا سماوي اللون، يكاد يعصر جسمها الذي ظلّ على نحافته الأولى.. وكانت أرملة، قضت معظم وقتها في حجرة نومها، حيث تسير بخطى غير مسموعة، في نعلين سميكين فوق بساط يمتد بين نافذتين تظللهما ستائر من الكشمير.. وبالقرب من فراشها – المصنوع من خشب اللق الأحمر – قفص صغير من الخيزران الذهبي مستدير الشكل، بداخله عصفورها الحبيب إليها، يحلم بحريته الضائعة!. وكانت السيدة "**ينج نينج**" تحصل على إيراد ضخم من تجارتها البشرية.. ومن جراء حبها الشديد للمال، استطاعت مضاعفة ثروتها وإيرادها الشهري، إذ أصبحت عينا من عيون "**فان لونج**" في "**شامين**"!

وفي تلك الليلة، كان الجو حارا. واجتاز صيني متشح بالسواد - كأنه شبح - تلك القنطرة الصغيرة التي تربط "**شامين**" بـ"**كانتون**"، وطرق الباب بحذر ثلاث مرات، ثم مرتين، ثم مرة واحدة، ففتحت له الأم العجوز وأدخلته. وبعد التحيات المألوفة وتناول الشاي، جفّف السيد "**شياو**" وجهه بمنشفة منداة بالماء الحار، وجلس أمام مضيفته.. وكان السيد "**شياو**" لا يزال شابا.. كان من أبناء "**كانتون**" قصير القامة، متوقد العينين، يبدو عليه الحزم.. وكان - من الجهة الرسمية - صانعا فنيا، ينحت التماثيل من الحجارة الصلدة، في حانوته بشارع "**الياقوت**". أما من حيث الواقع، فقد كان من أعضاء الجهاز الثوري، الذي يقوم بنقل الأسرار بين "**كانتون**" و"**هونج كونج**".. وكان يجتاز الحدود أسبوعيا - تحت ستار تسليم سلعه في "**كون لون**" - مخترقا دروبا يعرفها وحده دون سواه، ليسلم إلى يد "**فان لونج**" الرسائل التي ينتظرها رئيسه على مضض!

وبعد أن أسدلت السيدة "**ينج نينج**" جميع الستائر، قالت بصوت منخفض: "لقد سطرت على هذه الأوراق تقريرا دقيقا جدا إلى السيد "**فان لونج**". وأنا واثقة من أنه سيهتم بما فيه. فسألها "**شياو**": "وهل هناك جديد؟". فكان جوابها: "أجل.. فالأمر يختص بإحدى سفن الأزهار".

- أهي تلك السفينة التي في نهاية الصف من جهة الشاطئ الشمالي للنهر؟

- بالضبط، وهي ترسو على بعد نحو خمسين مترا من السفن الأخرى.

- تذكرتها، فهي سفينة منعزلة، لا يرى الجيران من يترددون عليها.. وقد ذهبت مرة إلى هناك منذ سنة، فقضيت وقتا لطيفا مع الآنسة "**زهرة الربيع**". انتظري.. إنها تسمى "**سفينة الملذات**"!

- هذا هو اسمها فعلا.

- وأنت التي تزودينها بالفتيات الراقصات المغنيات؟

فأجابت: "نعم!". وسألها: "وماذا حدث؟"، فقالت:

- لم يحدث شيء بعد، ولكن ينبغي أن يعلم السيد "**فان لونج**" أن شيئا سيحدث قريبا. واعذرني يا سيد "**شياو**" إذا لم أقل لك أكثر من هذا!

- بل أنا الذي يسألك الصفح عن فضولي!

– إني أطلب من السيد "**فـان لونج**" في هذه الرسالة التي أسلمها إليك أن يبلغني تعليماته بخصوص فرصة غير عادية، يحسن بنا ألا ندعها تفوتنا!

– ستكون رسالتك في يد السيد "**فان لونج**" في مدى ثمان وأربعين ساعة. وأعتقد أني سأحضر إليك رده بنفسي!

– فلتحرسك الأرواح الطيبة طول طريق رحلتك يا سيد "**شياو**"!

– وأنا أتمنى لك يا سيدة "**ينج نينج**" عشرة آلاف سنة سعيدة!

ونهض السيد "**شياو**"، وسلم، واختفى في صمت. ولشدة حذره دار حول "**شامين**" قبل أن يعبر القنطرة الصغيرة – مرة أخرى – ويختفي في جوف الليل.

الفصل السادس

السيدة رقم ٢ للجنرال "كيانج تاو"

وعندما حمل السيد "**شياو**" الأنباء السرية إلى السيد "**فان لونج**"، لم يرتكب أي تسرع.. فلم يذهب إلى مكتب الشركة الآسيوية، ولا إلى "فيلا" مديرها.. فقد كان هناك موعد أسبوعي محدد مقدما – في مكان معين، مع مندوب الشركة "**شو لي لانج**".. إذ كان الرجلان يتقابلان في أمكنة مختلفة متغيرة فيرتطم أحدهما بالآخر في الطريق، وكأن ذلك حدث عفوا، ثم يتبادلان الاعتذار والمجاملة وينتهز السيد "**شياو**" هذه الفرصة فيدس في يد المندوب الرسالة المعهودة، ثم يستأنف طريقه!

وبعد ثمان وأربعين ساعة من اللقاء الذي تم بين "**شياو**" والسيدة "**ينج نينج**"، كان قد سلم المظروف، فحمله المندوب في المساء إلى المدير الذي اطلع عليه. وكانت فحواه كما يلي: "إن سفن الأزهار – كما سبق أن أخبرت سعادتكم – مصدر للمعلومات لم نستغله بعد استغلالا كافيا. فبعض هذه السفن يتردد عليها ضباط حامية "**كانتون**"، وبينهم ضباط الفرقة الثالثة والعشرين.. وإن عقد ألسنتهم لتنحل بتأثير الشراب، وقد تأكدت أنه من المفيد لنا ألا نضيّع على أنفسنا بعض المعلومات النافعة التي يمكن تصيّدها هناك.

"ولقد سنحت فرصة فذة ستكون على تمام الأهبة قبل الشهر القمري السابع. وهذه الفرصة ستقدرون سيادتكم قيمتها. وهي كما يلي: فبين السفن الراسية عند الضفة اليسرى للنهر، سفينة تسمى "**سفينة الملذات**"، يمتلكها السيد "**تشانج فاي**"، الذي يعتبر من أخلص عملائي، إذ إنني أمده – منذ أكثر من عشرين سنة – بالآنسات اللواتي قامت على جمالهن شهرة سفينته!.. وبناء على المعلومات غير المباشرة التي وصلت إليّ، تأكدت من أن كبار الضباط في المدينة يترددون على سفينته كثيرا. وسعادتكم تدركون بلا شك مغزى ذلك. وقد سنحت فرصة نادرة لنا بانتواء السيد "**تشانج فاي**" بيع سفينته، إذ أنه [illegible] نون كاهل الشيخ الجليل فرغب في التقاعد في مسقط رأسه

"**نانـنج**"، بمقاطعة "**كوانج سي**". ولقد ساومت السيد "**تشانج فاي**" طويلا، وانتهى الأمر باستعداده للنزول عن "**سفينة الملذات**" لي شخصيا، مقابل ثمانية آلاف دولار نقدا.

"فإذا توفر لديكم المبلغ اللازم لهذه الصفقة، استطعت أن أنجز العملية، وأعهد بإدارة السفينة إلى شخصية موثوق بها، تقومون باختيارها. وسأعين في السفينة حسناوين أو ثلاثا، من بينهن الحسناء "**شـوشـاو**" التي ستجتذب السادة أركان حرب القيادة إلى السفينة. فتصبح مركزا للمعلومات الثمينة لنا!.. وأنا في انتظار أوامر سعادتكم، وأرجو أن يتمكن السيد "**شياو**" من تسليمي المبلغ – في رحلته القادمة– كي أتمكن من إنهاء الصفقة مع السيد "**تشانج فاي**".

ووضع "**فـان لونج**" الرسالة فوق المكتب، وراح يفكر طويلا في اقتراح السيدة "**ينـج نينـج**"، إذ بدا لعينيه برّاقا بالآمال. وفي صباح اليوم التالي، استدعى "**فرانسيس**" إلى مكتبه، وسلمه رسالة مكتوبة بالشفرة، وموجهة إلى رئيس المخابرات السرية في الجيش الوطني بـ"**تايبه**" عاصمة: "**فورموزا**". فأقلع "**فرانسيس**" على الفور إلى "**فورموزا**"، وعاد في الليلة ذاتها بالرد.. وكان هذا الرد يتضمن تفويضا للسيد "**فـان لونج**" لإجراء اللازم بغير تأخير. فقد اتفقت كلمة أركان الحرب هناك على وجوب انتهاز هذه الفرصة النادرة!

*****

وبعد عشرين يوما، وصل الكولونيل "**هان يو**" إلى "**هونج كونج**" واجتمع بـ"**فـان لـونج**" طويلا – في "الفيلا" القائمة في شارع "**سيمور**" – وأبلغه وجهة نظر رئيس المخابرات السرية. فكانت أولى عباراته: "ما هي آخر خطواتك مع قوادة "**شامين**"".

– سيتم توقيع عقد التنازل عن السفينة بعد بضعة أيام. وفي وسعنا أن نقرر ابتداء إدارة "**سفينة الملذات**" – تحت إشرافنا التام – قبل العاشر من الشهر القادم.

– ولكي نحصل على كل فائدة نطمع فيها من وراء امتلاك هذه السفينة، قررنا – بعد تفكير طويل – وجوب العناية الشديدة باختيار النساء المخصصات لاجتذاب الزوار إليها.

– في وسعنا يا كولونيل أن نثق بالسيدة "**ينج نينج**"، التي تنوي تعيين حسناء من أقليم "**سوتشاو**"، يضرب بسحرها المثل، وستكون فتنتها بعيدة الأثر في "**كانتون**".

– ولكننا نرغب فيما هو أكثر من هذا. فنحن لا نعلم إن كانت هذه الفتاة الحسناء سترغب في العمل لحسابنا أم لا. وفي حالة رغبتها، فنحن لا نعلم هل لديها الذكاء الكافي لاستخراج الأسرار النافعة لقضيتنا.. ولهذا قرر رئيس مخابراتنا السرية انتهاج خطة أعتقد أنها عبقرية.. نعم إنها خطة عبقرية يا سيد "**فان لونج**". فهل تذكر الجنرال "**كيانج تاو**"، من قواد الجيش الجمهوري؟

– نعم أذكره. فقد كان يقود الكتيبة السابعة عشرة المصفّحة.

– بالضبط. وقد قتل أثناء الحرب الكورية.

– أذكر هذا أيضا، فقد وصلت إلينا أنباء منذ سنتين على الأقل!

– لقد خطرت لرئيس مخابراتنا السرية فكرة الاستعلام بدقة عن الحياة الخاصة للجنرال "**كيانج تاو**"، فاتضح أنه فضلا عن زوجته الشرعية – التي دخلت الدير بعد وفاته – كان يقتني ثلاث محظيات.. المحظية الأولى منشورية والثانية من "**زشوان**" و الثالثة من "**هانج تشاو**". فكانت السيدة المنشورية تعتبر المرأة رقم "٢" في حياته، وقد اعتكفت في "**منشوكو**" على أثر وفاة سيدها ومولاها. أما المرأة رقم "٣"، فماتت بالكوليرا في "**شنج تو**".. والمرأة رقم "٤" تزوجت موظفا صغيرا في "**تسنج تاو**"، بمقاطعة "**شانتونج**". والآن استمع يا سيد "**فان لونج**" لما سأقوله جيدا!. لقد فكرنا في أننا لو استطعنا أن نضع في "**سفينة الملذات**" هذه امرأة يظن الجميع أنها المرأة رقم "٢" سابقا في حياة المرحوم الجنرال "**كيانج تاو**"، لاستطاعت هذه النسخة الزائفة من المحظية الأصلية، أن تستدر الأسرار من ضباط "**كانتون**"، بما لها من ماض ومكانة يجعلانها شخصية عظيمة جديرة باكتساب مودتهم وثقتهم.. فتكون لنا جاسوسة من نوع ممتاز!

– الفكرة في الواقع بارعة. ولكن...

– انتظر!.. لقد أحضرنا صورة فوتوغرافية للسيدة رقم "٢" هذه، وكانت تسمى الآنسة "**عطر السماء**". وقد حملتها إليك.. ها هي!

ووضع الكولونيل "**هان يو**" على المكتب صورة في حجم بطاقة البريد. وشرع

الرجلان يدرسان معا ملامح المحظية. وكانت سمراء، جميلة، رشيقة جدا.، وأنيقة جدا في ثوبها الحريري ذي الياقة العالية، المفتوح جانبه الأيمن حتى الركبة، والمطرز بعناية وفن.. وكان في أذنيها قرطان طويلان من الذهب، يمثلان معبدا صينيا مرصّعا بالجواهر الكريمة.. وحول معصمها الأيسر ساعة مستطيلة الشكل من الذهب، ذات سوار على شكل حلقات بيضاوية.. وهز "**فان لونج**" رأسه – أخيرا – وقال: "لقد كانت مخلوقة جميلة حقا يا كولونيل!".

– وواجبك الآن أن تبحث – بغير تلكؤ – عن امرأة تشبه الآنسة "**عطر السماء**" إلى أقصى حد ممكن. وتذكر أن المرحوم الجنرال "**كوانج تاو**" لم يعتد أن يظهر زملاءه في الجيش على محظياته اللاتي كان يقتنيهن في بيته. فقد بلغنا أنه كان مولعا بالنساء، عارم الشهوة.. وكان يفضل – حين يلهو – مع أصحابه – صحبة القيان المحترفات.. على أنه يحسن – من باب الاحتياط – أن تكون المرأة التي ستقوم بدور الآنسة "**عطر السماء**" شبيهة بها!

– سأشرع في البحث عن هذه الشبيهة يا سيدي الكولونيل.

– ومتى عثرت عليها وتحققت من إمكان الاعتماد عليها في المهمّة الدقيقة التي ستناط بها، فأرسلها إلى "**تايبه**"، وهناك سنعهد بها إلى خبراء قلم المخابرات، الذين سيعلمونها ألف باء المهنة، وخصوصا دقائق حياة الفقيد الخاصة، إذ يجب أن تعرفها جيدا، لأنه لا يجوز أن تفاجأ الآنسة "**عطر السماء**" المزعومة بمقابلة قائد يسألها عن علاقتها بزميله، ثم يكتشف وقوعها في أخطاء فاضحة.. وإني أطمئنك إلى أن هذه المرأة ستدرب أحسن تدريب، ولن تجهل كبيرة أو صغيرة من حياة الرجل الذي كان مفروضا أنها ملأت فراغ حياته بالمتعة والسحر!

وما إن انصرف الكولونيل "**هان يو**" حتى شرع "**فان لونج**" في البحث عن هذا الطائر النادر. وكان أول ما فعله في هذا الصدد، أنه استدعى ياوره وسلمه الصور الفوتوغرافية التي تمثل الآنسة "**عطر السماء**". فوعده "**تشو لي لانج**" بأن يجتهد في البحث.. وقضى بضعة أيام يجوب أنحاء "**هونج كونج**" و"**كون لون**" أملا في العثور على شبيهة معقولة، إن أعجزه العثور على شبيهة مطابقة لها مطابقة التوأم.. وتصادف أن كان –

ذات يوم – في – حانوت للعطارة الصينية، بين عقاقير الثعابين المجففة، ودهن الثور الذي يشفي الروماتيزم، والأقراص المقوية للباه.. وإذا به يلتقي بشابة في العشرين من عمرها فاتصل بينه وبينها الحديث، لأنه أنس فيها ذكاء. وكانت تشبه إلى حد كبير الآنسة "**عطر السماء**".. وعلم منها أنها كانت طالبة، وأن والدها كان جنديا في جيش الجنرال المسيحي "**فونج يوسيان**". وكانت الديانة المسيحية التي اعتنقها والدها نذير شؤم عليه، لأنه خنق بعد عامين بأيدي جنود "**شانج كاي شيك**". وأرهف الياور أذنيه جيدا لهذه التفاصيل، إذ أدرك منها على الفور أن هذه الطالبة لا يمكن أن تقبل العمل سرا لنصرة الرجل الذي قتل جنوده والدها.. وتخلى مكرها عن هذه المرشحة!

وبعد أسبوع من البحث العقيم، بدأ السيد "**شو لي لانج**" يشعر ببوادر اليأس، وكان العثور على شبيهة للآنسة "**عطر السماء**" من قبيل البحث عن كائن خرافي.. إلى أن قادته المصادفة – في مساء يوم السبت – إلى دار "**اللوتس الأسود**" وكان بالمكان خلق كثيرون، فوقف "**تشو لي لانج**" يثرثر مع كاتب الحسابات الصيني الذي انتحى به ركنا. وإذا به يلمح "**فرانسيس**" – في أقصى القاعة – يحتسي الشراب مع "**نينا**". وحملق الياور مشدوها.. حقا إنها ضربة من ضربات التوفيق لم يكن يحلم بها، فقد كانت صاحبة الطيار تشبه الآنسة "**عطر السماء**" شبها مذهلا، حتى أن "**شو لي لانج**" تسمّر في مكانه مشدوها، إذ كان قد نقّب في كل ركن وتحت كل جحر في الإقليم، مع أن ضالته المنشودة كانت صاحبة السيد "**أرنولد**"!

واقترب من المائدة، وحيا "**فرانسيس**"، الذي قدّمه بكل ترحيب إلى الآنسة "**نينا**". ثم استأذن في الانصراف. وركب "ركشه" إلى "فيلا" "**فان لونج**" وطلب مقابلته على الفور. وأفضى إليه باكتشافه الثمين في بار "**اللوتس الأسود**" فقال هذا: "لقد كنت أعرف بالطبع أن للسيد **أرنولد**" علاقة بشابة من "**منشوريا**"، ولكني لم أكن قد رأيتها من قبل. ولم يخطر ببالي أنها من طراز المرأة التي نبحث عنها!".

– يا سيدي. إنني أسمح لنفسي بأن أقترح على سيادتكم التحدث إليها لتحكموا شخصيا..

– قيل لي أن الآنسة "**نينا**" موظفة بمحلات الإخلاص، في قسم ملابس السيدات.

– نعم يا سيدي. فبماذا تأمرون؟

– استخدم اسم أحسن عميلات ذلك المحل. واتصل يوم الاثنين بمديرته، وقل لها إن السيدة ترجوها أن ترسل الآنسة "**نينا وونج**" في الساعة الخامسة بعد الظهر، لتتباحث معها في اختيار الثياب التي تنوي شراءها.. ثم ترقب وصول الآنسة "**نينا**" إلى مكاتبنا، واذكر لها أن العميلة المشار إليها تنتظرها في شارع "**سيمور**"، ثم ائتني بها لأتولى أنا باقي المسألة!

– حسنا يا سيدي.. تستطيع أن تعتمد عليّ في ذلك!

وفي الساعة الخامسة والنصف، كانت "**نينا**" تنتظر في صالون "الفيلا" وصول العميلة الثرية التي استدعتها. وكم كانت دهشتها عندما رأت "**فان لونج**" داخلا. فحياها، وقدّم إليها مقعدا. فقالت له: "سيدي، إن مديرتنا أرسلتني لمقابلة السيدة "**سن**". فافتر فم "**فان لونج**" عن ابتسامة ساخرة وقال: "كان لابد من استخدام الحيلة. كي نحصل من مديرتك على تصريح لك بالخروج. وإني أقدم لك نفسي: أنا "**فان لونح**"، مدير الشركة الآسيوية للاستيراد والتصدير".

ولم تستطع "**نينا**" إخفاء ذهولها.. "**فان لونج**"؟!.. الرجل الذي يستخدم "**فرانسيس**" لقيادة طائرته؟ ما معنى هذا التصرف؟ وما الذي يثير اهتمام مدير هذه الشركة – التي لا علاقة لها بتجارة الثياب والأزياء– حتى يستدعي لمقابلته "**نينا**" البائعة المتواضعة في محلات الإخلاص؟

وطلب "**فان لونج**" الشاي كي يدخل شيئا من الطمأنينة على زائرته، وبدأ يحدثها بعد ذلك بلطف وكياسة:

"إنك – ما لم تخنّي الذاكرة – صديقة للسيد "**فرانسيس أرنولد**"؟.

فقالت: "أجل يا سيدي"".

– إنه طيار بارع، أقدّر له خدماته تقديرا عظيما.

– أعتقد يا سيدي إنه سعيد جدا بالعمل في مؤسستكم.

– إذن يا آنسة فسأتيح لنفسي – ما دمنا لم نعد غريبين تماما – بتوجيه بضعه أسئلة تمهيدية، أرجو أن تصفحي عما فيها من فضول، وسوف تدركين فيما بعد الباعث

عليها.. من أنت بالضبط؟

فحدثته "**نينا**" عن أجدادها وعن أسرتها. وكان "**فان لونج**" يُصغي لما تقوله، لاسيما حين توسّم في ماضيها بوادر الخير لموضوعه.. ولما أشبعت فضوله، نفذ إلى الموضوع مباشرة: "والآن يا آنسة "**وونج**"، وقد عرفت إلى أي المعسكرين المتقاتلين يميل قلبك، اسمحي لي بأن أسألك سؤالا: ترى لو أتيحت لك الفرصة لإيذاء من يحق لك أن تعتبريهم أعداء، فهل تقدمين على انتهازها؟".

– بلا تردد يا سيدي!

– ولو كانت في ذلك مجازفة؟

– ما كان هذا ليفزعني!

– سأزيد اقتراحي تحديدا: هل أنت مستعدة للتخلّي عن وظيفتك المتواضعة، التي تشغلينها في الوقت الحاضر، كي تنتظمي في شبكة جاسوسيتنا، لصالح قوات "**فورموزا**" الوطنية؟.. مما لا شك فيه أن مرتبك سيتضاعف خمس مرات. سندفع لك أربعمائة دولار شهريا، إذا اتضح لنا اقتدارك على القيام بالدور الذي سنكله إليك!

– سأجتهد يا سيدي في أن أكون جديرة بذلك.

– حسنا يا آنسة "**وونج**".. وما قولك في عمل سيتيح لك الحصول بصورة طبيعية جدا – بل وبصورة حتمية – على أسرار هامة جدا من أفواه ضباط جيوش الأعداء؟

– وكيف؟

– بأن تتقمصي، بفضل الصدفة المواتية، شخصية الصديقة السابقة لواحد من جنرالات الجيش الصيني، قتل منذ ثلاث سنوات.

– زدني إيضاحا من فضلك!

فقدّم "**فان لونج**" إلى "**نينا**" صورة الآنسة "**عطر السماء**" وسألها: "مارأيك في هذه المرأة؟". وأجابت وهي في دهشة: "إنها تشبهني بصورة مذهلة". فقال: "إنها الآنسة "**عطر السماء**"، التي حدّثتك عنها.. وقد اختفت هذه المنشورية الشابة منذ وفاة مولاها، وفي نيّتنا أن نحييها في شخصك الموقّر!". فتساءلت: "أين؟".

– في "**كانتون**". فوق متن "**سفينة الملذات**"، حيث ستقومين بمهمة "المضيفة"،

وستكون تحت أمرك امرأتان سنتولى نحن اختيارهما للقيام بالترفيه عن هؤلاء السادة الضباط. أما مهمتك فتقتصر على استقبالهم وتقديم الشاي والخمر إليهم، ومنادمتهم منادمة ربة الدار الباشة الهاشة.. سيسكرون، وستغرينهم بالشراب، وتستقطبين الأسرار التي تنتشر من أفواههم في تلك اللحظات. ثم تبعثين إلينا بتلك الأسرار في تقارير منتظمة كي نتمم بها ما لدينا من المعلومات. ولكننا سنتولى – قبل قيامك بتلك المهمة – تدريبك في "**فورموزا**" تدريبا خاصا، على يد إدارتنا السرية. هل فهمت؟

– سيدي! سوف يسعدني أن أستطيع مدّ يد العون لكم في المعركة التي أناصركم فيها بقلبي!

– عظيم.. ولكن الوقت ضيق، ولهذا أرجوك أن تستعدّي للسفر في صباح الغد إلى "**فورموزا**".. في الساعة التاسعة تماما.

– بالباخرة؟

– بالطائرة. وسيتولّى السيد "**أرنولد**" نقلك إلى "**تايبه**".

– أهو على علم بالمشروع؟

– ليس بعد. وسأبلغه تعليماتي في هذا المساء.

وبلغ تأثر "**نينا**" عندئذ غايته، فعصرت منديلها الصغير بين يديها الجميلتين، وسألته: "وإذا رفض السيد "**أرنولد**"؟.

فتصنع "**فان لونج**" الدهشة وقال: "يرفض؟ ولماذا؟.. إن السيد "**أرنولد**" مجرد صديق من أصدقائك، فليس له أن يقرر مصيرك بدلا عنك؟".

فكان ردّها: "أراني مضطرة إلى أن أصارحك بأن السيد "**أرنولد**" أكثر من صديق بالنسبة لي".

فتساءل: "لعله عشيقك"".. فغضّت "**نينا**" بصرها، وهزت رأسها إيجابا. وإذ ذاك وضع "**فان لونج**" صورة الآنسة "**عطر السماء**" في درج مكتبه.. وساد الصمت لحظات، ثم قال لها:

– وإذا توسل إليك السيد "**أرنولد**" أن ترفضي مشروعي؟ فماذا يكون قرارك؟

فرفعت "**نينا**" رأسها، وثبّتت نظرها في نظر "**فان لونج**"، وقالت: ببساطة "سأقبل

مشروعك على أية حال!".

- وفي هذه الحالة، إذا رفض السيد "**أرنولد**" حملك إلى "**فورموزا**"، فستحملك هناك إحدى طائرات شركة "**ماتسوبا**"...

*****

وظل قلب "**نينا**" يخفق من شدة الانفعال، حتى بعد أن غادرت "الفيلا"، لأن مشروع "**فان لونج**" غير المنتظر باغتها وأذهلها.. كان مشروعا من شأنه أن يثير الخوف أو يلهب الحماسة، وقد أمدّها دمها المنشوري بالشجاعة والإقدام، وحفّزها دمها الروسي على قبول الدعوة للنزال سرا ضد الصفر المتحالفين مع أولئك الذين ساموا والدي أمها سوء العذاب!

وكانت الساعة السابعة مساء. ولابد لها من موافاة "**فرانسيس**" في فندق "**الملك إدوارد**".. وكانت متلهفة على التحدث إليه، فدخلت حجرته التي لزمها منذ ثلاثة أيام - لفراغه من كل عمل - منصرفا إلى القراءة لقطع الوقت. ووجدته ممددا فوق فراشه، يطالع روايات "**إدجار ولاس**" البوليسية العتيقة، فأفسح لها مكانا إلى جواره، وتطلع إليها بفضول قائلا: "لست عرّافا ولا منجما حاذقا، ولكني أحس أنك لست في حالتك الطبيعية. فهل كدّرك شيء في المتجر؟

- هل فصلوك؟".

فأجابته: "أوه! كلا!".

- وإن فعلوا فلا داعي للكدر يا ملاكي الصغير! إني الآن من الثراء بحيث أستطيع كفالتك كفالة تامة!

فابتسمت "**نينا**" ابتسامة مصطنعة، لأن حالتها لم تكن تسمح لها بالمزاح. وتناولت رأس "**فرانسيس**" بين يديها، وقرّبتها من صدرها، وراحت تداعب وجنتيه، وهي تغمغم:

"إنك لم تبعد عن الصواب كثيرا.. فمع أنهم لم يطردوني من متجر الإخلاص، إلا أنني تركتهم!"..

فهتف "**فرانسيس**":

– "هذا مستحيل!.. أترينك تركتهم لتعملي عند إحدى الحائكات المشهورات؟".

ولكنها أجابت: "إطلاقا!.. بل سأعمل لدى السيد "**فان لونج**"!

وقفز **فرانسيس**" مذهولا.. فقد كان يتوقع كل شيء إلا هذا!.. وهتف مشدوها: "ماذا تقولين!". فأجابته:

– أجل يا عزيزي.. سيكون مخدومنا واحدا نحن الاثنين!". فارتسمت معالم القلق على وجه "**فرانسيس**"، وغمغم: "لا يسرني أن تكوني في خدمة **فان لونج**".. فليس العمل عنده مريحا". ولكنها قالت: "اسمع!.. دعني أشرح لك كل شيء، وعندئذ ستفهم الموضوع!".

وأطلعته "**نينا**" على التفاصيل، فما إن وضّحت له مهمتها الحقيقية، حتى قطب حاجبيه، وأخيرا لم يتمالك نفسه أن يصيح:

– "إنه لجنون! إنه يطلب شططا! ألا تدركين ما الذي ستفعلين؟.. أتكونين مضيفة في إحدى سفن الزهور في "**كانتون**"؟.. لماذا لا يكرهك – إذن – على تصيّد الرجال في شارع "**فيكتوريا**"؟ إن هذا لفظيع!".

– ولكن هذا العمل يا عزيزي "**فرانسيس**" جزء من الحرب الباردة بين دولتي الصين!

وسألها: "وبماذا أجبت "**فان لونج**"؟.

فأجابت "بالقبول!". وهنا صاح: "إنك لأشد منه جنونا!" وإذ ذاك هتفت في رجاء: "**فرانسيس**"، لا تغضب!".

وحاول أن يملك عواطفه، وأن يتحايل على إقناعها، فقال برقة: "يا عزيزتي "**نينا**"! أتوسل إليك!.. تصوري الموقف، فأنت تعلمين ماذا يحدث في هذه المواخير التي تسمى سفن الأزهار. ولا أظنك تحسبين روادها يكتفون بقضاء الليل في لعب الورق! ولست بحاجة أن أضع لك النقط فوق الحروف!".

– إنك تنسى شيئا هاما يا عزيزي: إن المضيفة – في تلك السفن – ليست من طبقة الفتيات القائمات بالترفيه نظير أجر معلوم. بل هي موضع الاحترام!

وغمغم: "أواه!". فاستطردت: "أجل! أجل! هذا هو القانون غير المكتوب في تلك

السفن. إنها تقاليد صينية عريقة محترمة. وفي تلك الوظيفة، سأقوم بمهمتي في استقاء الأخبار وأنا آمنة، وأخدم من يقاتلون ضد أعدائي. لقد كنت أحلم منذ زمن طويل بأن أقوم بعمل نافع في هذه الحرب الباردة التي تعرف - كما أعرف - مبلغ خطورتها. فإن كنت تحبني حقا.. ". وهنا قاطعها قائلا: "أنت تعلمين جيدا كم أحبك!".

- إذن فلن تمنعني عن الانضمام إلى الجيش السري الذي يقوده "**فان لونج**".. فأنت ضمن هذا الجيش فعلا، مع أن مستقبل الصين لا يؤرقك كما يؤرقني!

فقال: "ولكني رجل.."

بيد أنها قطعت عليه الحديث قائلة: "على النساء أيضا أن يحملن نصيبهن من العبء في هذا العصر!". فصاح: "يا لك من عنيدة!.. إنني ما قبلت هذا العمل لدى "**فان لونج**"، إلا لأن الفاقة كانت لي بالمرصاد. وحينما تعوز الإنسان اللقمة، فإنه يقبل أي عمل: كناسا، أو بائع صحف، أو جاسوسا!.. أمّا أنت، فلا ضرورة تدفعك إلى ذلك.. لأني هنا!".

- ولكن ما دمنا انسانين متكاملين منسجمين، فيجب أن يربطنا هدف واحد وخطر واحد: أنت لتضمن حياتك المادية، وأنا لأنتقم لموتاي!

وشرع يقول: "اسمعي يا "**نينا**"!"

فقاطعته قائلة: "لا فائدة من محاولة إقناعي بالبقاء في "**هونج كونج**" لأبيع الثياب والمشدّات!.. لقد عزمت عزما أكيدا، وقبلت العمل وطلب مني "**فان لونج**" أن أرحل غدا - في التاسعة صباحا - إلى "**فورموزا**"، ليدربوني على مهمتي!"..

فأشار "**فرانسيس**" إشارة عجز وتسليم وسكت طويلا، ثم قال: "هل سترحلين غدا حقا إلى "**فورموزا؟**".

فأجابته: "نعم. وأنت الذي ستحملني إلى هناك في الطائرة". وهنا تساءل في دهشة "كيف؟".

- هذه أوامر "**فان لونج**".

- تخطّفت جثته الزبانية! هذا القذر! إني أرفض هذا..

- إذن سأكون مضطرة لركوب طائرة تجارية يا "**فرانسيس**"، يا حبيبي! إنك لست

لطيفا! إنك لست لطيفا!.. لئن كتب علينا أن نفترق فترة من الزمن، فلننتهز لحظات اجتماعنا الأخيرة لنقضي حق الهوى!.. قل لي إنك لن ترفض نقلي إلى هناك؟.. سنسافر معا، وسنبقى معا إلى آخر لحظة. وإني أشعر أن ذلك سيكون فألا حسنا لي!

وارتمت "**نينا**" على صدر عشيقها، فضمها إليه وهو يعجب في سريرته بشجاعتها. وشعر بأنه يحبها أكثر من ذي قبل، فلعن القدر الذي انتزع منه فجأة، تلك الصاحبة الرائعة المدلّهة، التي لم يعرف نظيرة لها في الفتنة والإغراء والإثارة!

الفصل السابع

تشجعي يا زهرتي الصغيرة!

كان الكولونيل "**فينج**" هو مدير مدرسة الجاسوسية في "**تايبه**" .. وهي مدرسة ملحقة بوزارة الحرب في "**فورموزا**"، حيث يتم إعداد وتدريب المبعوثين السريين إلى "**الصين الشعبية**" كي يمدوا القوات الوطنية بالمعلومات العسكرية. وبعد تمام التدريب يرسلون بالطائرات ليهبطوا بالمظلات إلى داخل "**الصين**" – في مقاطعات "**هنان**" و"**شيكانج**" وغيرهما – أو بطريق الزوارق التي تتسلل عبر مضيق "**فورموزا**" ليلا.. وقد استقبل الكولونيل "**فينج**" المتطوعة الشابة "**نينا ونج**" بكل رعاية واحترام، على أثر قبولها القيام بذلك الدور الهام في "**كانتون**". وكان "**فرانسيس**" قد نقلها على متن طائرة الشركة الآسيوية للاستيراد والتصدير.. وشهدت أرض المطار وداع العاشقين بالقرب من "**تايبه**"، ثم قام ضابط شاب بمرافقة "**نينا**" إلى مكتب الكولونيل.

وكان لابد من أن يمتد هذا التدريب أسبوعا، تولى خلاله الكولونيل "**فينج**" – شخصيا – تلقينها كل ما يجدر بها معرفته فأطلعها – أولا– على صورة للجنرال "**كيانج تاو**"، فإذا هو رجل في نحو الخمسين من عمره، على شيء من البدانة. حليق الذقن، أشدق، منحرف العينين صغيرهما، وله يدان ضخمتان وشعر قصير ينحدر على جبينه.. وتمّ – في اليوم الأول – تزويد "**نينا**" بجميع التفاصيل الخاصة بماضيه العسكري، فعرفت أنه ولد في "**بكين**"، وتلقى العلوم العسكرية في مدرسة "**وامبواه**" الحربية، ثم عين ضابطا في أركان حرب الجنرال "**ليتسنج**" – في سنة ١٩٣٢ – وقاد جيش "**كوانج سي**" وتزوج امرأة من إقليم "**هوبه**" ورقي إلى مرتبة "**كولونيل**"، ثم انشق على جيشه وقائده، وانضوى تحت لواء الجنرال "**شوته**"، الذي كان – إذ ذاك – معاونا لـ"**كوانج سي**" في تكوين جيش ثوري شيوعي كفيل بانتزاع الصين من قبضة "**تشانج كاي تشيك**". وكان يؤمن بالماريشال وبطانته – من الانتهازيين الرأسماليين – هم سبب بلاء البلاد، ولذا أخلص – قالبا وقلبا – لتحرير الصين من سلطانه!

وعرفت "**نينا**" كذلك، دقائق أخرى نافعة عن حياة الفقيد الخاصة.. منها أن زوجته لم تنجب غلاما ذكرا، فاشترى ثلاث محظيات على التوالي، طمعا في الحصول على وريث ذكر يكرم رفاته بعد وفاته، ويقدّم القرابين الدينية التي تكفل حياة رضية في العالم الآخر.. على أن سوء الحظ قضى بأن تظل المرأة رقم "٢" – وهي محظيته الأولى "**عطر السماء**" عقيما. أما السيدتان رقم "٣" ورقم "٤"، فلم تلدا إلا إناثا. وكانت هؤلاء السيدات يعشن معا في بيت الجنرال في أطراف مدينة "التتر" بـ"**بكين**"، بالقرب من باب "**أتامن**" وكانت "**عطر السماء**" شديدة الغيرة من ضرائرها، متكبرة قاسية مع النساء اللواتي يعشن معها تحت سقف واحد، كما كانت شديدة التطيّر، وتستطلع مجرة التبانة (١) عن طالعها، وتستخبر النجوم وتتوسل إليها عسى أن ترزقها بغلام للجنرال!

أما السيدة رقم "٣"، فكانت تدعى "**الياقوتة الوحيدة**". وكانت على نقيض "**عطر السماء**".. وديعة، كسولا، تقضي حياتها فوق مقعد طويل، وتتجنب كل تعب، وتفزع من كل مجهود.. حتى في الليالي التي كانت تقضيها مع مولاها الجنرال!.. فكانت تحتاج إلى ثمان وأربعين ساعة من النوم، لتستجم بعد تلك المعارك الغرامية الليلية!.. بينما كانت السيدة رقم "٤" – واسمها "**نينو فار الصيف**" – أشد نشاطا من "**الياقوتة**"؛ وكانت تحاول باستمرار احتلال المكانة الأولى في قلب الجنرال، ولكن "**عطر السماء**" كانت تصدها وتكيل لها الصفعات، كما لو كانت تلميذة متمردة!.. والواقع أن مباريات شد الشعر لم تكن شيئا نادرا بين هاتين السيدتين المتنافستين!

وبعد أن تم تلقين "**نينا**" هذه المعلومات، انتقل الكولونيل "**فينج**" إلى التدريبات العملية. فأعدّ مسرحا مشابها لـ"**سفينة الملذات**"، كي تستقبل "**نينا**" فيه ضابطا ذا رتبة عالية. وقام الكولونيل "**فينج**" بذلك الدور لتمرين تلميذته. فأجلسها إلى مائدة الشاي، وجلس أمامها، وشرع يتكلم: "لقد علمت يا سيدة "**عطر السماء**" أنك حظيت بالشرف العظيم، بالحياة مع المرحوم الجنرال "**كيانج تاو**". فأجابته: "لقد كان لي بالفعل هذا الشرف العظيم، وهذا الحظ العظيم، يا سيدي الكولونيل. فهل كنت تعرف سعادته؟".

---

(١) مجرة التبانة مجموعة من الكواكب الكبرى التي تتبعها كواكب صغرى كالنظام الشمسي.

– نعم.. عندما كان قائدا للفرقة الحادية والعشرين المدرّعة. متى مات سعادته؟

– في اليوم الثالث من الشهر القمري الرابع في عام ١٩٥١ .

– أتعرفين أين بالضبط؟

– نعم في "**نينج وا**" بـ"**كوريا**" . على أثر غارة مدمّرة قام بها المجرمون المتحالفون، ولم يتسنّ العثور على جثته، إذ مزقتها القنابل.

وسألها: "وهل كنت تسكنين "**بيبنج**" عندما كان الجنرال في الجبهة؟" . فأجابت: "نعم يا كولونيل" . فعاد يسألها: "أين؟" . فأجابت كان بيتنا في ضاحية أشجار اللوز المزهرة، على مسيرة ربع ساعة – على الأقدام – من حيّ السفارات القديم" .

– يا للجنرال العزيز!.. لقد كان محبّا للحياة والطعام، وكثيرا ما تعشينا معا في "**هانكاو**" .. كان يحب – بوجه خاص طبقا معينا اعتاد أن يطلبه دائما. وكان هذا الطبق.. كان...

– الخنزير الرضيع المحشو بالتوابل، والكوارع المحمّرة في زيت النخيل!

– بالضبط!.. إنني لم أتعرف بزوجته الشرعية، فهل تتذكرينها؟

– أتذكرها جيدا.. كانت امرأة سكوتا، شرسة، تضرب خادماتها وتحرمهن من الطعام. وكنا نتجنب الالتقاء بها بقدر الإمكان، فقد كانت تعتبر نفسها ذات نسب رفيع، لأن جدها كان من كبار الأشراف في عصر الإمبراطورة "**تشوهي**" . وكانت تروي لكل من يعيرها سمعه، أن موكب المرحوم جدها – كلما خرج من البيت – كان يتألف من حملة الصنج، وحملة الرايات والبيارق التي تحمل ألقابه المختلفة، ومن فرسان ومن حملة المظلات والمراوح والمباخر إلخ.. لقد كانت حقا متغطرسة لا تطاق!

– وأين هي في الوقت الحاضر؟

– إنها أصبحت راهبة في دير جبل "الأحزان" .

وقطع الكولونيل "**فينج**" ذلك الحوار، كي يهنئ "**نينا**" قائلا: "عظيم. إنك لم ترتكبي أي سهو أو نسيان ولا شك في أنك تقدرين أهمية جميع هذه التفاصيل، إذا اتفق أن وجدت نفسك فجأة أمام قريب أو صديق للمرحوم!" . فقالت: "ولكن كيف أتسلم عملي الجديد؟.. إذ يبدو أن سفن الزهور خاضعة لرقابة سرية من بوليس

"**كـانتـون**"... فقال الكولونيل: "بالضبط.. ولكن عملية التنكر ستساعدك على مهمتك. ولا تشغلي بالك بتسلم العمل على ظهر السفينة، لأن السيدة "**ينج نينج**" هي التي ستدير ذلك. وهي سيدة تتمتع بثقتنا، وقد وضعت خطة فازت برضانا!".

وفي الأيام التالية، عهد الكولونيل بـ"**نينا**" إلى ضابط من المكتب الثالث للعمليات الحربية، أحاطها علما بأنظمة جيش "**كوانج تونج**".. وهي معلومات فنية لا غنى لها عنها لكي تفهم أية إشارة عرضية ترد في حديث الضباط، فيما بينهم، عن تلك القوات!.. وما إن حان اليوم الثامن، حتى كانت متأهبة للعمل، فحملتها طائرة الشركة الآسيوية للاستيراد والتصدير. وكان سرور "**فرانسيس**" عظيما بنقلها إلى "**هونج كونج**". وكانت أول زيارة قامت بها "**نينا**" لـ"**فان لونج**"، الذي قال لها: "لقد هنأني الكولونيل "**فينج**" على اختياري إياك. وهم يعدونك معاونة عظيمة القيمة، وينتظرون من وطنيتك الكثير. فانتهزي عطلة الأسبوع للراحة في "**هونج كونج**"، وسوف نخبرك باليوم والساعة اللذين سيرافقك فيهما السيد "**شياو**" عبر الحدود".

*****

وكان سرور **فرانسيس**" و"**نينا**" عظيما بتلك المهلة التي سبقت المغامرة الكبرى، فأمضيا الوقت يلعبان الورق، أو يتنزهان. وفي الساعة السادسة من يوم الاثنين، حضر ياور "**فان لونج**" فقطع عليهما خلوتهما، وأبلغ **نينا**" بأن عليها أن تكون متأهبة للرحيل مع السيد "**شياو**" في مدى ساعة من الزمن.. وكان مكان اللقاء أمام القطار الذي يربط "**هونج كونج**" بـ"**كانتون**"، ونصح الياور "**فرانسيس**" بألا يصحب "**نينا**" إلى المحطة.

واستغرق عناق الحبيبين الأخير ساعة من الزمن. وكان عناقا حارا يخيم عليه الأسى واللوعة. وماذا يستطيع "**فرانسيس**" أن يقول، مادامت "**نينا**" قد أقدمت بشجاعة على الانخراط في الجيش السري؟.. وكانت أول مرة في حياته، يكلفه الفراق فيها ذرف الدموع. ولما خرجت "**نينا**" من الحجرة شعر بوطأة الوحدة على نفسه.. ترى هل سيراها بعد ذلك؟

وجاء الرسول في موعده تماما، فعمدت "**نينا**" - بناء على أمر "**فان لونج**" - إلى

إخفـاء وجـهـها بخـمـار أزرق لفّـتـه حـول فكـها، وكـأنهـا تشكـو من أسنانهـا.. على أن تكشف عن ملامحـها متى نجحت في اجتياز الحـدود.. وهكذا ركـب السيـد "**شـيـاو**" و"**نـيـنـا**" القطار الإنجليزي وبعد ثلاثة أرباع الساعة، نزلا في محطة الحـدود في "**شـون شـون**"، ثم اختـفيـا بسرعة بين الجمهـور. ولم تكـن "**نـيـنـا**" تحـمل متـاعـا، لأنهـا أرسلت ثيابها بالقطار إلى عنوان السيدة "**ينج نينج**".

وكـان "**شـيـاو**" يعرف دقائق الإقليم، ومسالك دوريات الجنود الصينيين، ومواقع نقط الحراسة الثانية على الحـدود، وعلى طول السكة الحـديدية. فلما سجى الليل، اخترق مع "**نـيـنـا**" الحقـول – سيرا على الأقـدام – خلال مزارع الأرز وخمـائل البوص والخيزران التي تنبت على سفـوح التلال. وجعل يدور بهـا كـمن يتخبط في الطريق، في جوف الظلام الحالك، إذ إن الليلة لم تكـن مقمـرة.. على أن "**شـيـاو**" كان يتمتع بحاسة مرهفة لمعرفة الاتجاهات في الظلام، وكأنه الحمام الزاجل.

وبعد مسيرة ساعتين، شعرت "**نـيـنـا**" بالتعب، وطلبت إليه أن تستريح، ولكنه أبى. وقال: "بعد قليل.. بعد عشر دقائق على الأكثر، سنكون في أمان!".. وفعلا، لم يلبث "**شـيـاو**" أن وقف أمام بيت صغير – من بيوت الفلاحين – لم يكن ينبعث منه ضوء، فطرق البـاب بطريقـة خاصة.. وسرعان ما برز شبح يحـمل مصباحا.. ولم يقل الفلاح شيئا، ولم يسأل عن شيء، بل أرشد "**نـيـنـا**" إلى حصير فوق مدفأة أفقية، ودعاها بالإشارة إلى الجلوس. فألقت "**نينا**" بنفسها فوق الحصير، ونامت على الفور!

وعند الفجر، أيقظهـا "**شـيـاو**"، وقال لهـا: "في وسعنا الآن أن نرحل.. وسنتجه صوب نهـر "اللؤلؤ"، حيث ينتظرنا زورق من زوارق الصيادين. ومـا لم يكـن التيّار عنيـفـا جـدا، فسنصل إلى "**شـامين**" هذا المساء!".. وكـان الغسق يستـولي على االكون، حينما وقف الزورق أمام رصيف الميناء. وقاد "**شياو**" – لفوره – "**نينا**" إلى بيت السيـدة "**ينج نينج**"، التي استقبلتها بكل ترحاب، وقدّمت لها العشاء. ثم اختلت السيدتان في ضوء شمعتين حمراوين. وأتاحت معرفة "**نـيـنـا**" بلغـة أهل "**كانتون**" فرصة الحديث مع مضيفتها بطلاقة، فعرفت منها آخر تطورات الموقف.. ثم قالت ربة البيت: "الآن وقد عبرت الحدود بغير مشقة – بفضل معونة السيد

"**شياو**" الثمينة – أشعر بالطمأنينة. أما من جانبي فقد نفّذت تعليمات السيد "**فان لونج**"، وأتممت الصفقة بغير تأخير مع السيد "**تشانج فاي**".. وأصبحت "**سفينة الملذات**" ملكي في الوقت الحاضر. وقد قدمت عقد التنازل عن السفينة إلى بوليس "**كانتون**" لإقراره، والعلاقات بيني وبين بوليس "**كانتون**" على أحسن ما يرام.. ولست بحاجة إلى أن أقول لك إن مساعد حكمدار بوليس الأمن السيد "**هو وين يو**" على صلة طيبة بي، لأنني أمدّه – كلما سنحت الفرصة – بمعلومات لا قيمة لها عندنا، أشتري بها رضاه، حتى أن الرجل يعتبرني من مصادر الأخبار المأمونة المضمونة.. ولهذا يمكنني إن أعتمد على حمايته.. وإليك الآن الخطة التي أعددتها لك: "لقد اتفقت مع فتاتين جميلتين، هما الآنسة "**لؤلؤة التنين**" – من "**تشوشاو**" – والآنسة "**صباح الخير**"، وهي فتاة مراهقة من "**كوانج سي**"، دمثة تستطيعين أن تأمريها بما تشائين، إذ إنها تحبني كما لو كنت أمها، وستطيع توجيهاتك طاعة عمياء.. هاتان الفتاتان ستكونان تحت أمرك. أما أنت فقد فكرت في شيء يجعلنا أقرب حظوة من أي يوم مضى لدى السيد "**هو وين يو**" مساعد حكمدار بوليس الأمن. فاسمعي جيدا ما سأقوله لك: "إنك بعد وفاة مولاك قد أنفقت جميع مدخراتك. ولما كانت زوجته القاسية قد طردتك كما طردت جميع المحظيات من بيت الجنرال، فإنك توجهت إلى "**شانغهاي**"، التماسا للزرق. ولكن الأقدار حاربتك – للأسف – فجئت إلى "**كانتون**" عسى أن تكوني فيها أسعد حظا. وقد أحضرك صديق لي وأوصاني بك، فكان ماضيك مع الجنرال هو الذي أوحى لي باستخدامك على ظهر "**سفينة الملذات**"!.. ولقد فاتحت السيد "**هو وين يو**" في ذلك فوافق مبدئياً، لأن السيدة رقم "٢" سابقا للجنرال "**كيانج تاو**"، جديرة بأن تكون مضيفة لسفينة أزهار يؤمها كبار الضباط. فالطريق ممهّد لك كما ترين، وقد حرصت على أن أذكر لمساعد الحكمدار أن تعيينك رهن بموافقته. ومن ثم فهو سيحضر إلى هنا مساء غد في الساعة العاشرة – لأقدمك إليه".

– وأين أقيم إلى أن أتسلم عملي؟

– في بيتي طبعا، فعندي حجرة مخصّصة لك، وجاريتي تحت تصرفك. وهي

ستساعدك غدا على ارتداء ثيابك وتصفيف شعرك، كي تتركي أحسن الأثر لدى السيد "**هو وين يو**".

ونهضت السيدة "**ينج نينج**"، وتناولت يد ضيفتها فقادتها إلى حجرة صغيرة تشبه مخزن التحف القديمة.. وتمنت لها نوما هادئا.

*****

وفي العاشرة من مساء اليوم التالي، كانت الرياح الجنوبية الغربية تهب على "**كانتون**" فتعبث بصفحة نهر "اللؤلؤ" وتثير سحبا من التراب في شوارع المدينة.. وفجأة، وقفت سيارة البوليس السوداء أمام باب بيت السيدة "**ينج نينج**"، ونزل السيد "**هو وين يو**" برشاقة، ففتحت له الأمة العجوز الباب، وقد انحنت نصفين لفرط الرهبة والخشوع!

وكان مساعد حكمدار البوليس من أبناء "**كانتون**"، قصير القامة، لم يجاوز الشباب، رشيقا، يقظا - كأنه ثعلب - وفوق عينيه نظارة. وكان شعره الأسود مرجلا بعناية فوق جبينه. وخلع الرجل قبعته الرمادية، وسلم على "**ينج نينج**" في ترفع الرجل العظيم الذي يحتقر - في نفسه - مهنتها القذرة ولكنه يقدر خدماتها.. فكثيرا ما قدمت له الليلة الأولى مع فتاة صغيرة حسناء، حصلت عليها لاستغلالها. في مواخيرها الفاخرة!.. وبعد المجاملات المألوفة سألها: "هل وفقت يا سيدة "**ينج نينج**"؟"

- أجل يا صاحب السعادة. لقد حصلنا على السيدة "**عطر السماء**". أترغب في أن نقدمها إلى سعادتك؟

- إنما جئت لهذا الغرض يا سيدة "**ينج نينج**"!

وصفّقت بيديها.. وكانت "**نينا**" في انتظار هذه الإشارة، في الحجرة المجاورة. وشعرت - رغم شجاعتها - بخوف من هذه الخطوة الأولى التي ستضعها أمام ممثل البوليس. فقد كان مستقبل مهمتها كله رهنا بهذه الخطوة. ودخلت ضامة يديها أمام صدرها، وحيّت السيد "**هو وين يو**" كما ينبغي. فاستقبلها الموظف الشاب بالتلطف

والمجاملة اللذين يليقان بالمحظية الأولى لبطل من أبطال الجيش الشعبي سقط في ميدان الشرف!

وكانت "**نينا**" ترتدي ثوبا جميلا من الحرير الوردي المزركش بالفضة والمطرز بالحرير الأحمر، وقد زينت شعرها بزهرة "**الكاميليا البيضاء**" فوق أذنها اليسرى. وحدثتها غريزة المرأة – لأول وهلة – بأنها لقيت في نفس الرجل حظوة عظيمة.. وما لبثت الأمة (الجارية) أن أحضرت الشاي واليوسفي. وبدأ السيد "**هو وين يو**" بتهنئة السيدة "**ينج نينج**" على نجاحها في الحصول على السيدة "**عطر السماء**". وقامت السيدة "**ينج نينج**" بدورها بإطراء "**نينا**" التي قبلت القيام بمهام المضيفة في سفينة يؤمّها الصفوة المختارة. وأظهرت "**نينا**" الخجل والسرور العظيم لهذا الشرف الذي أتيح لها، كي تقدّم خدماتها في هذه الظروف. وبعد انتهاء هذه التحيات، خاطبها السيد "**هو وين يو**" مباشرة بقوله: "سيدتي، نحن حريصون على أن يجد زوارك كل راحة وسرور في سفينتك، وسوف يهز نفوسهم أن يعلموا ماضيك إلى جانب بطل من أبطال الصين الشعبية، وسوف يحدث ذلك أثره في اطمئنانهم إلى الاستجمام في جو من الطمأنينة والثقة!".

– ثق يا صاحب السعادة بأنني سأبذل غاية جهدي للمحافظة على السمعة الغالية التي اكتسبتها "**سفينة الملذات**"!

وأخذ السيد "**هو وين يو**" يسألها – بعد ذلك – عن الفقيد العظيم، فراحت تجيبه بلا تلعثم، مشيدة بالسعادة البالغة التي نعمت بها في صحبة سيدها ومولاها، عندما كانت تعيش في كنفه في "**بيبنج**". وكان الرجل يصغي وهو يهز رأسه مؤمنا، فشعرت "**نينا**" بمخاوفها تتبدد شيئا فشيئا. حتى إذا كانت الساعة الحادية عشرة، نهض السيد "**هو وين يو**"، فانسحبت "**نينا**" إلى حجرتها، وهمست السيدة "**ينج نينج**" إلى ضيفها وهو خارج: "وبعد يا صاحب السعادة.. ما رأيك؟".

فأجاب: "إنني راض جدا. لقد حالفك التوفيق!".

وما إن أغلقت الأمة العجوز الأبواب بالمزلاج، حتى طرقت السيدة "**ينج نينج**" باب

"**نينا**" - التي كانت تنتظرها بفارغ الصبر - وبادرتها قائلة: "لقد نجحنا يا زهرتي الصغيرة كلّ النجاح. وبعد ساعات قلائل ستكونين فوق متن السفينة، فتشرعين في العمل العظيم!".

*****

ما إن باع السيد "**تشانغ فاي**" سفينته إلى السيدة "**ينج نينج**"، حتى طرد الفتاتين اللتين ظلتا تبيعان جسديهما وابتساماتهما هناك مدى ثلاث سنوات..

وكانت "**سفينة الملذات**" قذرة، سيئة الترتيب، بسبب إهمال أمرها منذ فترة من الزمن. فلولا جمال الفتاتين ما اقترب من السفينة أحد الرواد.. وظلت السيدة "**ينج نينج**" ترسل ثلة من الخدم ثلاثة أيام متوالية، لتنسيقها. وتمكنت - بفضل المال الذي أمدّها به "**فان لونغ**" - من تزويد السفينة بصناديق الشراب الفرنسي الذي يقدره الصينيون تمام التقدير. وأخيرا، أقيمت حفلة الافتتاح، فحضر الكاهن الشيخ "**مايو**" لطرد الأوراح الشريرة. وكانت لهذا الكاهن شهرة مستفيضة - في "**كانتون**" - لمقدرته على طرد الأشباح المؤذية التي تكمن في الأركان المظلمة ليلا، وحول أسرة النوم، فتجلب الكوارث والنحس. وقد صعد هذا الكاهن إلى سطح السفينة ومعه اثنان من المساعدين مسلحان بالصنوج والدفوف. وظلت الضجة تصمّ الآذان مدى ساعتين، لتخويف الأشباح وترويعها. ثم شهر "**مايو**" سيفا ضخما، راح يطوّح به في الهواء عند مقدمة السفينة ودفتها. وأحضر مساعدا الكاهن مقدارا من دماء الكلاب في جرة، اعتقادا بأن لون تلك الدماء يتغير إذا كانت هناك روح شريرة غير منظورة، فإذا لم يتغير، كان هذا دليلا على فرار جميع الأرواح الشريرة من السفينة!

وفي ظهر اليوم التالي، صعدت السيدة "**ينج نينج**" إلى ظهر السفينة مع "**نينا**" و"**لؤلؤ التنين**" و"**صباح الخير**"، وراقبت بنفسها الترتيبات الأخيرة لاستقرار السيدات الثلاث. وكانت الشائعات قد سرت بسرعة بين سفن الزهور المجاورة بأن "**سفينة الملذات**" قد تغيّرت ملكيتها وتبدلت مستخدماتها، فتجمعت السيدات في السفن المجاورة ينظرن بفضول. وكانت السيدة "**ينج نينج**" ترد على تحيتهن، وهي تبتسم

ابتسامة من تقول لهن: "الآن سترين العجائب!". ثم قادت "**نينا**" إلى حجرتها، وكانت خير حجرات السفينة، بها سرير من خشب اللق الأحمر، ومصباح كحولي يمكن استخدامه لتسخين الماء. أما "**لؤلؤة التنين**" و"**صباح الخير**" فكان فراشاهما في حجرة واحدة – في مقدمة السفينة – وكان يفصل بين السريرين ستار ثقيل، يسمح لهما بالاجتماع بالرجال دون أن تزعج إحداهما الأخرى!

وأصدرت السيدة "**ينج نينج**" تعليمات أخيرة إلى "**نينا**"، التي تقرّر أن تكون السيدة الأولى فوق هذه السفينة.. ففي كل يوم سيمر زورق التموين – قرب الظهر – بالمواد الغذائية والماء العذب للشرب.. وفي كل أسبوع ستهبط "**نينا**" إلى البر لتزور السيدة "**ينج نينج**" وتقدم إليها الحساب والمال المتحصّل.. فإذا ما فرغت، قدمت إليها كذلك التقارير التي سترسلها السيدة "**ينج نينج**" إلى السيد "**فان لونج**"، عن طريق السيد "**شياو**". فإذا قدّر لـ"**نينا**" أن تحصل على معلومات عاجلة، تتطلب سرعة في الإبلاغ، كان عليها أن توقد ثلاثة مصابيح عند صاري السفينة. حتى إذا لمحت السيدة "**ينج نينج**" النور من الطابق الثاني في بيتها، أوفدت جاريتها في زورق إلى السفينة!

الفصل الثامن

ليلة عاصفة.. على نهر اللؤلؤ!

لم تكن الآنسة "**لؤلؤة التنين**" صغيرة السن للغاية، فقد بلغت العشرين. وقد اشتهرت – منذ بلغت الرابعة عشرة – بجمال عينيها اللوزيتين. وكان والداها فلاحين فقيرين في إقليم "**شوشاو**"، ولهما ثلاثة أبناء. فلما ولدت "**لؤلؤة التنين**"، كانت لقمتها مشكلة لوالديها، فلم يترددا في بيعها مؤمنين بأن جسدها الجميل ووجهها الساحر كفيلان بأن يشقّا طريقا في الحياة.. فما إن صارت في السادسة عشرة، حتى كانت محظية لتاجر حبوب ثري.. ولكن مولاها مات – وهي في السابعة عشرة– متخوما بالطعام، فطردتها أسرته من البيت.. ورحلت "**لؤلؤة التنين**" إلى "**شانغهاي**" – مع زميلة لها – حيث عملت في مرقص صيني، في الحي الدولي.. وما لبثت – وهي في سن التاسعة عشرة – أن التقت بقوادة تتعامل مع السيدة "**ينج نينج**" في "**كانتون**" وتمدّها بالفتيات وتتبادل معها بضاعتهما من اللحم البشري المعطر، كما يقول تجار المواشي سواء بسواء، فتتساومان في الثمن، بعد فحص البضاعة الموردة ورفض المعطوب منها. وكانت السيدة "**ينج نينج**" في حاجة إلى فتاة بارعة الجمال من "**شوشاو**"، أوصى بطلبها أحد الهواة الذين لم يكونوا يستطيبون إلا بنات ذلك الإقليم، فأرسلت قوادة "**شانغهاي**" إلى السيدة "**ينج نينج**" – في "**كانتون**" – تخبرها بأنها عثرت لها على ضالتها المنشودة.. وتم الاتفاق على توريد السلعة في مقابل مائتي دولار.

وأرسلت "**لؤلؤة التنين**" إلى "**كانتون**"، حيث عاشت عاما مع ذلك الهاوي الثري. ولكنه – لسوء طالعها – ما لبث أن راح ضحية الإرهاب الشيوعي. فقد كان من المستغلين وتجار السوق السوداء، وتم إعدامه – مع خمسين آخرين من كبار الأغنياء – رميا بالرصاص، أمام خندق حفر حديثا لتلقي جثثهم.. وإزاء هذا التعطّل المفاجئ، اضطرت "**لؤلؤة التنين**" للعمل لحسابها الخاص في بعض المراقص، إلى أن وقع عليها اختيار السيدة "**ينج نينج**" للعمل في "**سفينة الملذات**"، لما عهدته فيها من خبرة بفنون الإثارة الجنسية – التي تستعبد طلاب الشهوات من الرجال – ولأن الفتاة لم تكن تشعر

بأي عطف على من قتلوا مولاها وشرّد ي الطرقات، فلا شك أن "**نينا**" ستجد فيها معاونة نافعة.

أما الآنسة "**صباح الخير**" فكانت رى الحسان الثلاث، إذ لم تكن سنها تبلغ الخامسة عشرة. وكان والدها الفاضل إسكافيا من مدينة "**كوان تونغ**"، عرضها في المزاد لمن يدفع الثمن الأكبر. وهي رحمة كبيرة بالقياس إلى ما كان يحدث في الجيل الماضي من إلقاء الفتيات المولودات حديثا للكلاب. واشترتها السيدة "**ينج نينج**" لتستغل جمالها ونضرتها، لا سيما أن صوت هذه الصغيرة كان أشبه بشدو العصافير. ثم إنها - على صغر سنها - كانت خبيرة بفنون الخلاعة، مشهودا لها بالحذق في كل ما يتصل بالمجون وصلات الرجال والنساء.

وأوصت السيدة "**ينج نينج**" الفتاتين بالخضوع خضوعا تاما للسيدة "**نينا**"، التي سمّيت "**عطر السماء**"، فلا تتردّدان في إطاعة أوامرها، وعليهما أن تحرصا على إغراء الرجال الذين تعينهم لهما بصفة خاصة، فهما كجنديين خاضعين لقائدهما خضوعا أعمى. وقد تقبلتا تعليمات السيدة "**ينج نينج**" بكل احترام واستعداد طيب. لأنهما وجدتا في العمل على متن "**سفينة الملذات**" في عهدها الجديد شرفا كبيرا أمام الزميلات اللائي كن يعملن في السفن الأخرى الحقيرة الفقيرة..

*****

ومرّ يومان، ساد فيهما الهدوء، واستسلمت الغواني الثلاث للكسل والراحة. فقد ظنّ الناس أن رحيل "**تشانج فاي**" عن المدينة، معناه إغلاق السفينة، ومن ثم لابد من مرور بعض الوقت إلى أن تعمل الدعاية الشفهية عملها، ويعلم القاصي والداني أن "**سفينة الملذات**" بدأت عهدا جديدا في تيسير المتعة المترفة لطلابها.. فلما كان اليوم الثالث، هبّت عاصفة شديدة على "**كانتون**"، واشتدت الريح ووميض البرق خلال السحب المنخفضة. ثم أخذ المطر ينهمر فوق نهر "اللؤلؤ"، فاستولى الخوف على "**لؤلؤة التنين**" و"**صباح الخير**"، وأخذت "**عطر السماء**" تسرّي عنهما بالأحاديث والأساطير.. واستزادتاها من تلك الحكايات المسلية، فلما همت بأن تروي لهما قصة

أخـــرى، إذا بـ"**لؤلؤة التـنين**" تنهض عن مقـعدها، وتشير إلى زورق بخاري قادم من "**كانتون**"، متجها مباشرة إلى "**سفينة الملذات**".

ونهضت "**نينا**" بدورها، ونظرت بدهشة إلى مصباح الزورق الكشّاف، الذي يجتاح السفن الراسية في عرض النهر. ثم توقفت آلات الزورق بجوار السفينة، واستطاعت "**نيـنا**" أن تتبين مساعد حكمدار بوليس الأمن - السيد "**هو وين يو**" - الذي صعد برشاقة إلى السفينة، وساعد على الصعود مرافقه.. وهو ضابط في ثيابه الرسمية. فقامت الفتيات الثلاث بتحية الرجلين كما ينبغي. ثم اقترب "**هو وين يو**" من "**نيـنا**"، وقال لها: "لتسمح لي السيدة "**عطر السماء**" بتقديم السيد الكولونيل "**لي تسونغ ين**" الذي سمع بجمالك وبشهرة سفينتك، فأظهر الرغبة في تمضية بضع ساعات ممتعة فيها!".

وحيًّا الكولونيل "**نيـنا**"، وأظهر لها - بوجه خاص - احتراما عظيما. فشكرته، كما شكرت السيد "**هو وين يو**" لتشريفهما سفينتها الحقيرة. وسألتهما أن يتفضلا بتناول كأس من الشراب الفرنسي. فما إن سمع الكولونيل تلك الكلمة حتى صاح: "شراب؟ شراب؟!.. هذا شيء عظيم يدفئ المعدة!".

وأحضرت "**لؤلؤة التنين**" الزجاجة والكؤوس، وأحاطت الحسان الثلاث بالرجلين. وبينما انصرف الكولونيل إلى المزاح والمعابثة مع "**لؤلؤة التنين**" و"**صباح الخير**"، انصرف السيد "**هو وين يو**" إلى الحديث بصوت خافت مع "**نيـنا**". فقال: "لقد وصل الكولونيل حديثا إلى "**كانتون**".. وصل أول أمس. وقد كان ضابطا في جيش مقاطعة "**شاهار**"، ثم نقل إلى هنا رئيسا لأركان حرب الفرقة الجديدة القادمة إلينا في الطريق. وهو من عشاق المجون والليالي الملاح، فأوصيك به، إذ إنه ترمل حديثا، ويهمنا أن يجد إقامته بيننا مسلية منعشة!". فردت "**نيـنا**" قائلة: "لك أن تعتمد علينا - يا صاحب السعادة - في هذه المهمة. فسيجد السيد الكولونيل لدينا كل ترحيب وخدمة ممتازة، مع الرعاية الكاملة لرتبه الرفيعة".

- يبدو لي أن "**لؤلؤة التنين**" تعجبه أكثر من "**صباح الخير**"!

- لسوف يشرفها كل الشرف أن تبرهن له على أن اهتمامها به لا يقل عن اهتمامه بها.

وخطر لـ"**نينا**" أن تنتهز الفرصة كي تكسب مودة السيد "**هو وين يو**"، فهمست في أذنه قائلة: "وبهذه المناسبة، ما رأيك يا صاحب السعادة في "**صباح الخير**" الحسناء؟.. فرماها مساعد الحكمدار بنظرة جانبية، وظهر على وجهه السرور وقال: "لقد حدثتني السيدة "**ينج نينج**" عن هذه العصفورة الصغيرة!". ثم رمق "**صباح الخير**" بنظرة أخرى، وتساءل: "كم عمرها؟". فأجابته: "خمسة عشر عاما يا صاحب السعادة".

- خبيرة؟
- جدا.
- لعوب؟
- جدا؟
- ساخنة؟
- كأنها مدفأة.
- مشغولة القلب؟
- كلا.
- أتنصحينني بأن أقضي معها بعض الوقت الليلة؟
- إنك ضيفنا يا صاحب السعادة، والسفينة تحت أمرك، كذلك الآنسة "**صباح الخير**"!

وبينما كانت "**نينا**" ومساعد الحكمدار يتساران بهذا الحديث، كانت "**لؤلؤة التنين**" قد استغلت الفرصة لتستهوي الكولونيل، وصحبته إلى مخدعها لتناول أقداح أخرى من الشراب الذي كان يحبه كثيرا.. وبقيت "**صباح الخير**" ساكنة منكمشة في مقعدها كالقطة. فلما نادتها "**نينا**"، نهضت في الحال، واقتربت منها. فوضعت "**نينا**" يدها على خصرها وجذبتها إليها وهي تغمزها خلسة. وسألتها: "مارأيك - أيتها الأخت الصغيرة - في صاحب السعادة، الذي تنازل بالحضور لقضاء بعض الوقت معنا؟". فغضّت "**صباح الخير**" بصرها. وقالت بصوتها الناعم الخافت، الذي كانت تحاول دائما أن تجعله كصوت الأطفال: "إن صاحب السعادة يولينا شرفا عظيما بإضاعة وقته الثمين في صحبتنا!". فاعترض مساعد الحكمدار، وقد سحره صوتها. ونهض

قائلا: "تعالي نتحدث معا، على حدة!".

– أوه، يا صاحب السعادة!

– أجل، أجل!.. ستطمئنين إلي، وسأشجعك. وسترين أنني لطيف جدا.. رقيق جدا.. فأنا أعرف أية لباقة يجب أن أروّض بها غزالا نافرا ساحرا مثلك!

وأخذت "**نينا**" ترقب الرجل وهو يقترب من "**صباح الخير**" في نهم، فبدأت ترتاب في مدى رقته المزعومة مع هذه الصغيرة. ثم نهضت فصحبت الاثنين إلى حجرتها، وأغلقت الباب.. وعادت فجلست في مقعدها. وكان المطر قد انقطع، وضوء القمر يشيع بريقا فضيا في السماء التي انقشعت عنها السحب. وسمعت "**نينا**" – من بعيد – ضحكات ماجنة، تنبعث من السفن المجاورة. وأشعلت سيجارة، واسترخت في مقعدها الوثير، راضية عن ليلتها التي لم تضع هباء.. فغدا – عندما تحضر الأمة العجوز – ستعطيها تقريرها الأول، الذي سيسرّ له السيد "**فان لونج**" ورؤساؤه. فإن فرقة جديدة كانت في الطريق لتحلّ محل الفرقة الثالثة والعشرين. وهي معلومات تهتم بها القيادة العليا في "**فورموزا**".

وفجأة، سمعت "**نينا**" أنّة طويلة صادرة من "**صباح الخير**"، فأدركت أن السيد "**هو وين يو**" قد أفرط في رقته مع الغزالة الصغيرة الفاخرة!.. وعندما انطلق الزورق البخاري بالزائرين – بعد ساعة – حضرت "**صباح الخير**" وألقت بنفسها بين ذراعي "**نينا**" باكية متأوهة، فسألتها "**نينا**" عما حدث لها. وقالت "**صباح الخير**"، وهي تنتحب وتشهق: "ما أفظع هذا يا أختي الكبرى!.. إنّ هذا القرد الملعون كان يغرس الدبابيس في جسمي. إنه قاس جدا، ولا أريد أن أجتمع به بعد الآن!".

فأخذت "**نينا**" تسرّي عنها قائلة: "لا تبكي يا عزيزتي الصغيرة، وتذكري تعليمات السيدة "**ينج نينج**". أن السيد "**هو وين يو**" شخص عظيم النفوذ في المدينة، ويستطيع أن ينكل بك وبنا. واعلمي أنك – حين تتنزهين في الغابة – تجدين أشجارا متباينة الأنواع. فهناك الصفصاف ذو الورق الناعم، كما أن هناك الشربين ذا الغصون الشائكة. وهكذا الرجال أصناف وأشكال!".

*****

وكانت الحياة على "**سفينة الملذات**" حريّة بأن تغدو متشابهة راكدة في نظر "**نينا**"، لو لم يتضاعف عدد الزوار بسرعة. فبفضل وسائل السيدة "**ينج نينج**"، انتشر في المدينة الخبر العظيم، فعلم الكافة أن المحظية السابقة لأحد أبطال الحرب الكورية، هي التي تشرف على الملذات الليلية هناك. فتوافد الموظفون المدنيون وكبار الضباط – كل ليلة – على "**سفينة الملذات**". وكانت "**نينا**" تصغي بانتباه لكل ما يتفوّه به هؤلاء السّادة، بين أقداح الشراب الوطنية. حتى إذا خلت بنفسها في مخدعها، دوّنت كل شيء كانت ترى أن له قيمة في نظر سلطات "**فورموزا**". وصار "**فان لونج**" يتلقى أسبوعيا تقريرا مفصلا منها، مما جعل "**نينا**" من أعظم العملاء السريين وأثمنهم في مقاطعة "**كوان تونج**".

وكان "**فان لونج**" يقول لـ"**فرانسيس**" كلما سأله عن أخبار "**نينا**": "إن الآنسة "**وونج**" تقوم بعمل رائع، فلا تقلق عليها، إذ إنها تحت رعاية السيدة "**ينج نينج**" الساهرة. وهي تبدي مهارة مذهلة في عملها!". وكان "**فرانسيس**" يشعر بشيء من الطمأنينة، وإن صار مستاء حزينا لاستحالة اتصاله بـ"**نينا**" – مع أنها لم تكن بعيدة عن "**هونج كونج**" – فكأن ستارا حديديا كان يفصل بينهما.. وكانت "**نينا**" تذهب يوم الاثنين من كلّ أسبوع – في زورق الأمة العجوز – إلى "**شامين**"، لتقوم بزيارة السيدة "**ينج نينج**"، التي كانت تطلعها على ما يجري في العالم الخارجي، وعلى الأحاديث الجارية على الألسن في المدينة.. وقد تصحبها إلى "**كانتون**" لشراء بعض اللوازم أو للنزهة!

والحق أنّ السيدة "**ينج نينج**" كانت تشعر بالاغتباط لنجاح مشروع "**سفينة الملذات**" نجاحا مفيدا لها من جميع الجهات. لأن السيد "**فان لونج**" كان يجزل لها العطاء جزاء المعلومات الثّمينة.. كما أن أرباح "**سفينة الملذات**" كانت وفيرة جدا. فكأن العجوز كانت تأكل على جميع الموائد، وتجني ثروة كبيرة تكتنزها.

وذات غروب، ذهبت **نينا**" إلى السفينة – بعد أن تناولت الشاي مع القوادة العجوز في دارها – وقد أوشك الظلام أن يطبق. وإذا بها تلتقي – في طريقها – بزورق البوليس البحاري، الذي استوقف زورقها.. وسئلت: "إلى أين؟". فأجابت: "إلى **سفينة**

الملذات". وشعرت بقلبها ينقبض.. واستولى عليها خوف شديد، عندما رأت زورقا بخاريا آخر مشدودا إلى مؤخرة "**سفينة الملذات**"، وبه ثلاثة رجال بدا أنهم كانوا ينتظرونها. وعرفت من بينهم السيد "**هو وين يو**". فصعدت إلى السفينة وهي تبذل مجهودا لإخفاء جزعها، وقالت لوكيل الحكمدار: "أسألك الصفح يا صاحب السعادة، لأني لم أكن موجودة لأتشرف باستقبالك كما ينبغي!". فأجابها بلهجة جافة: "لقد جئنا لتفتيش سفن الزهور".

– للتفتيش؟.. لماذا؟

– إن جاسوسا تمكّن من الاختباء هنا. ورجالنا يقومون بتفتيش كل سفينة.

ولم تجسر "**نينا**" على أن تتساءل عن جنس الجاسوس، بل راحت تردد: "جاسوس؟ لحساب من؟".

– لحساب عصابات "**فورموزا**"!.. سنعثر عليه حتما!

وتنفست "**نينا**" الصعداء إذ قال: "سنعثر عليه". فمعنى ذلك أن الجاسوس رجل!.. وأظهرت استعدادها لمساعدة من يفتشون السفينة. فانحنى "**هو وين يو**"، قائلا: "لقد فرغنا من التفتيش فعلا. لا لأننا نشك في الآنسة "**لؤلؤة التنين**" أو الآنسة "**صباح الخير**"، وإنما خوفا من أن يكون هذا الكلب التعس قد تمكن – أثناء غيابك – من الاختفاء في قاع السفينة!".

– أرجو أن تكونوا قد فتشتم جيدا.. ألم تجدوا أحدا؟

– كلا. لا أحد.. ولكننا سنقبض عليه. فقد أرسلت عشرة رجال ليطاردوه، كما أن أربعة زوارق بخارية مسلّحة تكمن له فوق النهر.. فلن يستطيع الإفلات ولو سباحة!

ومرّت ساعة والسيد "**هو وين يو**" ورفاقه ينتظرون نتيجة التفتيش، جالسين على ظهر "**سفينة الملذات**". و"**نينا**" تدعو – في سرها – أن يفلت هذا الجاسوس المجهول من شباك البوليس.. وفجأة، نهض الرجال وتطلعوا إلى زورق قادم من الضّفة اليمنى. ثم صعد من هذا الزورق شرطيان يدفعان بينهما صينيا شدّت يداه خلف ظهره. فعضّت "**نينا**" شفتها، حتى لا تصرخ، إذ كان هذا المجهول هو.. السيد "**شياو**"، رسول "**فان لونج**" الذي ساعدها – ببراعة فائقة – في التسلل عبر الحدود، عندما حضرت من "**هونج كونج**".

الفصل التاسع

"سنجبره على الكلام!"

كان السيد "**شياو**" في خدمة "**فان لونج**" منذ عامين، صار خلالهما أشدّ عيونه ولاء. فكانت له فيه ثقة لا حد لها، بعد أن وفق إلى تهريب عدد لا يحصى من الرجال، وحمل من الرسائل المهمة الخطيرة ما لا حصر له، عبر الحدود. وكان "**شياو**" – عشية القبض عليه – يتجول في أنحاء "**كانتون**" كأي مواطن وادع. إذ كان – حفظا للمظاهر – يحترف صناعة، ويتخذ لممارستها مركزا في شارع الخراف البيضاء، ويعتقد أن هذا كفيل بأن يصد عنه الشبهات. وكان قد عاد – في هذه المرة – إلى "**هونج كونج**" ليفضي إلى "**نينا**" برسالة شفوية حفظها عن ظهر قلب، لأنه لم يكن يأمن جانب الرسائل المكتوبة. وفحوى الرسالة أن على "**نينا**" الحصول على معلومات مفصّلة بصدد مسألة معينة كانت تهم سلطات "**فورموزا**"، وهي: هل تلقّى مركز التجنيد – في جنوب الصين – أمرا بدعوة جميع الذكور الذين تتراوح أعمارهم بين التاسعة عشرة والرابعة والعشرين إلى حمل السلاح، كما كانت الشائعات تقول؟.. وكانت "**نينا**" تستقبل – في كثير من الأحيان – ضابطا من مكتب التجنيد، وبوسعها أن تستقي منه المعلومات المطلوبة، وأن تجد ما يبرر هذا الاستفسار.. فإن تجنيد الألوف من الشباب، وإرسالهم إلى مواقع بعيدة، معناه ضياع كثير من زبائن "**سفينة الملذات**"!.. ومن ثم فإن فضول "**نينا**" أمر طبيعي!

وكان السيد "**شياو**" قد قرّر التزام جانب الحذر المطلق، ففضل أن يتحاشى زيارة السيدة "**ينج نينج**" حتى لا يقحمها في هذا الموضوع. فلماذا لا يتوجه هو شخصيا إلى "**سفينة الملذات**"، كأي رائد عادي يلتمس الترفيه واللهو؟.. إن هذا من حقه على كل حال، كأي مواطن "**كانتوني**" محترم!.. ولكن نكد حظه كان قد قضى عليه بالافتضاح منذ غرة الشهر الثالث. فقد استطاع مفتشان من قوة بوليس الأمن أن يتعقباه بالتناوب – على الرغم من حيله البارعة – وأن يجمعا حوله الشبهات. فأمر مدير إدارة مكافحة الجاسوسية أربعة مفتشين آخرين باقتفاء أثره. وتكونت بذلك شبكة كاملة من

المراقبين والمطاردين، توفرت لهم وسائل التعقب، والرقابة وعندما قرر السيد "**شياو**" أن يتوجه لزيارة "**نينا**"، مستقلا زورقا اختاره من آلاف الزوارق الراسية على طول ضفة النهر – في حوالي الساعة السادسة من مساء الاثنين – لم يخطر بباله أن صيادين وادعين ساذجين يتسكّعان على شاطئ النهر، كانا في الواقع يترصدان حركاته، كما كان ثمة صيادان آخران يحومان حول سفن الأزهار، وصيادان ثالثان يتشاغلان بقياس عمق مجري النهر، حول الصف الرئيسي لتلك السفن. ومن ثم مضى في زورقه الصغير نحو "**سفينة الملذات**".. وفي منتصف الطريق، لاحظ أن أحد الصيادين يهتم بحركاته أكثر مما كان مهتما بصيده. ووجد إحدى سفن عبور النهر "معدية" تعترض طريقه، وفيها نوتيان بدت عليهما أمارات الجهل بمهنتهما، فلم يحسنا إدارة الدفة.. واشتم رائحة الخطر، فجنح على الفور نحو سفن الأزهار الأخرى. إذ كان من الواجب – إن صح أنه كان تحت المراقبة – أن يتجنّب زيارة "**سفينة الملذات**"، مهما يكن الثمن. ولهذا جاس بين السفن، ثم ارتقى خلسة سفينة التنهدات"!

وكان السيد "**هو وين يو**" قد ارتقى – في تلك الأثناء – "**سفينة الملذات**" بصحبة نائب مدير مكافحة الجاسوسية، للإشراف على عمليات المطاردة، وهو موقن من أن الشخص المنشود كان مختبئا في مكان ما من سفن اللهو. ولذا أمر بإجراء تفتيش دقيق، تولاه المفتشون العشرة الذين كانوا تحت إمرته.

*****

وارتبكت "**نينا**" عند وصول المشتبه في أمره، فما إن رأته يصعد إلى السفينة، حتى خيل إليها أنها توشك أن تقع مغشيا عليها. وكان السيد "**هو وين يو**" في شغل بقنيصته عن الانتباه إلى الشحوب الذي اعترى وجه "**نينا**"، لحسن حظها.. فقد راح يستجوب رجاله المسلحين الذين كانوا يحفون بالأسير. وقد غرسوا مدافعهم الرشاشة في ظهره:

– أين وجدتموه؟

– في سفينة التنهدات.

– بمفرده؟

– بل مع فتاة، يحتسيان الشراب!

فالتفت السيد "**هو وين يو**" نحو نائب مدير مكافحة الجاسوسية، وكأنه يدع الأمر له. فاستأنف ذلك الموظف – الكالح الوجه – الاستجواب، وسأل الأسير: "ماذا كنت تصنع في سفينة التنهدات؟".

– ذهبت لألهو ساعة من الزمن.

– وهل تعرف مديرة السفينة؟

– كلا، ولكنهم أثنوا لي على سفينتها.

– لحساب من تعمل؟

– لحسابي.. في حانوت بشارع الخراف البيضاء.

– ليس هذا العمل إلا ستارا للتمويه.

– أؤكد أن هذا غير صحيح. فأنا أكتسب قوتي منه!

– إنك في خدمة لصوص "**فورموزا**".. أعداء الصين"!

– أبدا!.. فأنا خادم مخلص للصين ولم أخن أحدا.

– أنت كذاب، فقد جمعنا الأدلة التي تدينك. وسنعرف كيف نرغمك على الاعتراف بجرائمك.

وكانت "**نينا**" واقفة في المؤخرة، تصغي إلى هذا الحوار. أما "**لؤلؤة التنين**" و"**صباح الخير**"، فكانتا متواريتين وراء باب موارب، تصغيان هما الأخريان، وقد ارتعدت فرائص ثلاثتهن، إذ تصورن ألوان العذاب التي ستصب لا محالة على السيد "**شياو**".. وازداد خوف "**نينا**" عندما سمعت نائب مدير مكافحة الجاسوسية يستطرد قائلا: "إنك تعرف – ولا شك – ما ندخره للجواسيس من طرازك، ما لم تعترف. إن "**كوانتنج**" موبوءة بجواسيس سادتك المناكيد.. والمجرمون الذين ساعدونا في إلقاء القبض على تلك العصبة الحقيرة، قد حمدوا مغبة تلك المساعدة، إذ نجا كثيرون منهم من سيف الجلاد، وخففت عقوبة السجن لبعضهم.. فالأمر الآن إليك كي تختار مصيرك!".

وقال "**شياو**": "لست جاسوسا". فأطلق مساعد مدير مكافحة الجاسوسية زمجرة

تدل على الحنق، والتف إلى السيد "**هو وين يو**"، وقال له: "خذ أسيرك، فسوف يتاح له أن يعيد التفكير، خلال ست وسبعين ساعة يجب أن يقضيها بدون شرب. وسوف نستأنف تحقيق قضيته في اليوم الرابع.. ولابد أن ينتهي به الأمر إلى إدراك أن الاعتراف أفضل له من العطش!.. وهناك أيضا ما هو أسوأ وأدهى!.

وأمر السيد "**هو وين يو**" رجاله، فانزلوا السيد "**شياو**" إلى زورقهم. ثم التفت إلى "**نينا**"، وقال لها بابتسامة عذبة: "إننا مدينون لك بألف اعتذار. ولكننا لم نضيع يومنا هباء، إذ إن هذا الشخص جاسوس خطر، كانت شكوكنا تحوم حوله منذ مدة. وقد بلغنا – أخيرا – من بعض مصادرنا أنه موجود في "**هونج كونج**". ولما لم نعثر على طريقة عادية مشروعة يتخذها "**شياو**" هذا. لاجتياز الحدود. فقد رجح لدينا أنه يتسلل خلسة عبرها!" فتظاهرت "**نينا**" بعدم الاكتراث وسألته: "هب أنه رفض الاعتراف؟".

فضحك ضحكة قصيرة جافة. وقال لها: "رويدك! إننا نعرف كيف نحمل على الكلام أولئك الذين يرفضون أن يطلقوا لألسنتهم العنان. وعلى كل حال، لا تشغلي خاطرك بأمره، فهو رجل مقضيّ عليه بالهلاك. وإنه ليدرك هذه الحقيقة. لأنه ليس من ذوي البلاهة، بل إنه يعلم جيدا أن بوسعه أن يصل معنا إلى الاتفاق، على شريطة.."، وسكت فسألته: "على شريطة أن يغيّر المعسكر الذي يخدمه؟". فقال: "بل أكثر من هذا.. على شريطة أن يساعدنا على اقتناص جواسيس أشد خطرا!".

ووقع اعتقال السيد "**شياو**" وقع القنابل وسط الأسطول الصغير من سفن الأزهار، فانطلقت التعليقات طول الليل، وأخذت النسائم تحمل تلك التعليقات من سفينة إلى سفينة. وعلم الزوار بما حدث، فتركوا صاحباتهم وانصرفوا للإصغاء إلى تفاصيل التفتيش.. واستقبلت "**نينا**" – على ظهر "**سفينة الملذات**" – كثيرين ممن دفعهم حب الاستطلاع، بعد أن سمعوا بالمأساة التي جسّمتها الأراجيف والمبالغات، فجعلت منها قصة جديرة بالشاشة الفضية!.. وتركت **نينا**" فتاتيها – "**لؤلؤة التنين**" و"**صباح الخير**" – ترويان للوافدين ما حلا لهما من الروايات. أما هي، فكانت تعيش في جو من الفزع، لأن القبض على السيد "**شياو**" كان أسوأ ما يمكن أن يقع لها، وأصبحت سلامة شخصها – بل حياتها – متوقفة على الاعترافات التي قد ينتزعها البوليس من هذا

المسكين الواقع تحت رحمة جلاديه!

*****

وفي اليوم التالي، استيقظت "**نينا**" مذعورة – إثر كابوس مزعج – على يد "**لؤلؤة التنين**" وهي توقظها، في الساعة الحادية عشرة صباحا، وتقول لها: "إن السيدة مديرة سفينة التنهدات ترجو مقابلتك!". ونهضت "**نينا**" من فراشها.. وكانت دائما متباعدة عن جاراتها، لأن مديرات السفن الأخرى كن يعتبرنها دخيلة عليهن، متكبرة، مغترة بصلاتها بكبار رجال البوليس. ولم يكن بين جاراتها من شعرت بميل إليها سوى الآنسة "**سو شوان**"، التي كانت تدير "**سفينة التنهدات**"، لأن "**نينا**" كانت قد أعطتها يوما تعويذة مباركة!

ودعت "**نينا**" الزائرة إلى مخدعها، وهذه تعتذر بحرارة عما سببته لـ"**نينا**" من إزعاج بهذه الزيارة. ثم طرقت موضوع زيارتها مباشرة، فقالت: "ما أعجب قصة الأمس!.. إنني لأبهت كلما فكرت في هذا المنكود ابن السلحفاة، الذي حضر إلى سفينتي ليحتسي الشراب مع فتياتي، فإذا به – في حقيقة الأمر – جاسوس!.. إنني لأتمنى أن يقطّعه السادة العسكريون إربا ويلقوا بها للصقور والنسور على تلال الأزهار الصفراء.. ولكني يا سيدتي "**عطر السماء**" حضرت لزيارتك لغرض آخر في الواقع. إذ يكربني أن سفينتي تحت رقابة البوليس منذ الصباح!". فسألتها "**نينا**". وما الذي جعلك تعتقدين ذلك؟".

– ليست مسألة اعتقاد، بل إنني أعلم عن يقين. فهناك زورق بخاري ألقى مراسيه على بعد عشرين مترا من السفينة. ثم تلقيت الأمر بالسماح لأحد مفتشي البوليس بالاختباء في قاع السفينة. وأنذرني قبل الاختباء بأنه سيلقي بي في السجن إذا أخبرت الزوار بوجوده في السفينة. وكان هذا المفتش في البداية فظا جدا، حتى إنه أفزعنا كلنا.. وفي الساعة الرابعة صباحا، خطرت لي فكرة، فسألته إن كان به جوع أو ظمأ. فقال إنه يعاني الاثنين معا!.. وقدمت إليه أرزا بالجمبري والفلفل الأسود، وقدحا كبيرا من الشراب، فأكل وشرب بشراهة، ثم فارقته فظاظته. وإذ ذاك بت معه ليلتي أو ما بقي

منها. فأسرّ إلي بأمر مروع!".

وخفضت "**سو شوان**" صوتها واستطردت: "قال لي إن السلطات مقتنعة بأن حضور هذا الجاسوس إلى سفينتنا يدل على أنه كان على موعد هناك مع شريك له، وأن أسطولنا أوشك أن يصبح مكانا لالتقاء جواسيس الماريشال الذين اختاروا سفينتي بصفة خاصة لهذا الغرض!.. إنني وفتياتي في غاية القلق.. ومن يدري؟ ربما اتهمونا بالتآمر مع هؤلاء الجواسيس واعتقلونا، وألقوا بنا في السجن. فماذا كنت تصنعين لو كنت في مكاني؟

– هل ضميرك مستريح؟

– طبعا. ولكن هؤلاء الشرطة.. ما أكثر شكوكهم!!

– إن وجود المفتش المختبئ عندك كفيل – على كل حال – بأن يطمئنك. وسيشاهد بنفسه أنكن بريئات!

– ربما ولكن مصالحنا ستتأثر بهذه المراقبة تأثرا جسيما، لأن الرواد إذا شعروا بوجود مفتش بوليس الأمن مختفيا في سفينتنا، هجروا السفينة وفضلوا عليها سفينة أخرى، لا يتعرضون فيها لمن يتنسّم أحوالهم وكأنهم كلاب بها جرب!

وواست "**نينا**" الآنسة "**سو شوان**" ما وسعتها المواساة، فعادت هذه إلى سفينتها وهي تحمد للسيدة "**عطر السماء**" ظرفها وعطفها وكلماتها المشجعة.

*****

وانقضت ثلاثة أيام لم تكد "**نينا**" تتذوق خلالها للنوم طعما. وكانت– إذا أغفت – تستيقظ وقد تصبب جبينها عرقا، واستولى عليها القلق. وما كان في وسعها أن تنشد من فتاتيها ما يقوي عزيمتها، فقد نسيتا السيد "**شياو**" ولم تعودا تفكران في حادث اعتقاله. ولذا ظلت "**نينا**" على أحر من الجمر، تنتفض ذعرا لصوت كل زورق بخاري يمر في النهر، إذ تخال أن الشرطة قد حضروا لإلقاء القبض عليها.

وفي مساء اليوم الرابع، استقبلت ضابطين قضيا الوقت مع "**لؤلؤة التنين**" – إلى منتصف الليل – ثم رجعا إلى المدينة. ولم تجد في نفسها أدنى ميل للتحدث إليهما أو سؤالهما عن شيء، فقد بلغ من يأسها وانهيارها أنها تخلت عن كل شيء، حتى

رسالتها.. وانقضى على انصراف الضابطين ربع ساعة، كانت "**لؤلؤة التنين**" قد دسّت – خلاله – الدولارات التي نالتها منهما، بين ثيابها الداخلية. أما "**صباح الخير**"، فكانت تتقلب على فراشها، وهي تمضغ "اللادن"، بينما جلست "**نينا**" كالمحمومة، وقد شخصت ببصرها إلى مياه النهر السوداء، التي كانت تنساب في صمت. وعلى حين غرة، وقفت "**لؤلؤة التنين**" عند السياج وصاحت: "انظري!.. زورق البوليس بأنواره الحمراء، إنه قادم إلى هنا!". فهبت "**نينا**" من مكانها، وراحت تتطلع إلى الكشافات الحمراء، وقد توجست شرا. واقترب الزورق فقفز منه السيد "**هو وين يو**" بخفته المعهودة. ودهشت "**نينا**" حين رأته وحده، لم يصطحب أحدا من رجاله. فهل جاء ليحيط معصميها بالأصفاد؟!

وهتف السيد "**هو وين يو**" يحييها باحترامه المعتاد: "طاب مساؤك يا سيدتي "**عطر السماء**"!". فردّت قائلة: "طاب مساؤك يا صاحب السعادة!".. ولكنها لم تطمئن إلى لهجة مساعد الحكمدار، فقد كان ممن يستطيبون التعذيب، ويشتد مرحهم حين يعلنون إلى الناس أدهى الكوارث..

وجلس مساعد الحكمدار في مقعد وثير وقال: "لقد قضيت يوما متعبا يا صديقتي اللطيفة. ولهذا جئت أرفّه عن نفسي لديك!".. فقالت: "إنك دائما على الرحب والسعة يا صاحب السعادة. أتراني بحاجة إلى أن أقول لك إن زيارتك تسبب لي السرور والرضا؟ ما الذي أستطيع عمله لمرضاتك يا سيدي؟". فسألها: "هل "**صباح الخير**" مشغولة؟". وكان جوابها: "كلا.. بل هي نائمة".

– أيقظيها إذن، فسوف يسرّني أن أجالسها!

فأرسلت "**نينا**" "**لؤلؤة التنين**" لدعوة زميلتها. ولما خلا وجهها إلى السيد "**هو وين يو**"، خطر لـ"**نينا**" أن تسأله عن السيد "**شياو**"، فما كان ثمة عجب في أن تسأله عن هذه المسألة، على ألا تظهر اهتماما شديدا. فقالت وهي تتصنع الملل العميق: "أما من جديد في المدينة يا صاحب السعادة؟". فأجاب الرجل: "كلا، فإن حياة رجال الشرطة رتيبة مملة!".

وحاولت "**نينا**" أن تتجه بالحديث إلى الموضوع الذي يهمّها قبل كلّ شيء، فقالت:

"وما اسم السيد مدير مكافحة الجاسوسية، الذي كان في صحبتك تلك الليلة؟" . فقال: "آه، السيد "**فونج تشي**" .. رجل ظريف، أليس كذلك؟" . فكان جوابها: "إنه يبدو ماكرا جدا!" . وعقّب هو قائلا:

رجل حصيف للغاية. وبهذه المناسبة، أتذكرين ذلك الشخص الذي قبضنا عليه أثناء التفتيش، في تلك الليلة؟" . فتصنّعت "**نينا**" نبش ذاكرتها، ثم قالت: "ذلك الشخص الذي وجدتموه في سفينة التنهدات؟" .

– نعم. تصوري إننا لم نظفر منه حتى الآن بطائل!

– كان يجب أن يبقى في زنزانته ستا وسبعين ساعة بغير شرب.

– لقد ظل يقاوم الظمأ، مع إننا أطعمناه سمكا مملحا.. لابد لنا من إكراهه على الكلام بأية وسيلة!

– أتعتقد أنكم تستطيعون؟

– لا تقلقي.. سنستطيع، وسيفرغ ما في جعبته، وسينتهي إلى الإدلاء بأسماء شركائه!

وأشرق وجه السيد "**هو وين يو**" بابتسامة غبطة وانشراح، إذ أقبلت "**صباح الخير**" ، فأشار إليها بأن تجلس بجواره، ثم قدّم إليها كأسا.. واشتركت "**لؤلؤة التنين**" في الحديث.. ولم تطمئن "**نينا**" إلى ما سمعته من السيد "**هو وين يو**" ، فتحاشت أن يلتقي بصرها ببصر الرجل الذي جعل يغازل "**صباح الخير**" ، والذي قد يأتي غدا ليسوقها إلى الجلاد!.. وما لبث "**هو وين يو**" أن أبدى رغبته في الذهاب إلى مخدع تلك التي كان يسميها غزاله النافر. فأشارت "**نينا**" إلى "**لؤلؤة التنين**" ، فتبعت الاثنين إلى حجرة النوم المشتركة. وظلت "**نينا**" وحدها فوق سطح السفينة، وأفكارها تضج داخل دماغها، وقد أنهكها التفكير في مصير السيد "**شياو**" ، الذي باتت حياة شركائه بين يديه.. بل رهن لسانه!.. ترى إلى أي مدى يستطيع مقاومة التعذيب؟ إن من المحتمل جدا أن يعترف بأسماء شركائه إنقاذا لحياته ، أو تخلصا من التعذيب الأليم، أو الخنق البطيء!

*****

وأحسّت "**نينا**" بأنها باتت كطائر سقط في شرك أخذت حلقاته تطبق عليه شيئا فشيئا بغير رحمة.. وتذكرت "**فرانسيس**" وكيف أنه قد يكون – في هذه اللحظة – في شوارع "**هونج كونج**".. لقد كانت محرومة حتى من تسرية مراسلته، واستمراء آلاف الأشياء الرقيقة التي طال شوقها إلى سماعها منه. وتذكرت أيضا حجرتهما في فندق الملك "**إدوارد**" بجوها الهادئ، وعناقهما المحموم!.. وكبحت نفسها حتى لا تنهمر دموعها.

وفجأة، سمعت صرخة ثاقبة، انبعثت من مقدم السفينة، فأرهفت أذنيها، وقد هبّت واقفة. وما لبثت أن سمعت خطوات مسرعة، وأقبلت "**صباح الخير**" مشعثة الشعر، مشقوقة الثوب من فوق الصدر، وقد ضمت يديها على ثدييها.. وارتمت بين أحضان "**نينا**" باكية متوجعة، وهي تصيح: "اللعين! لقد أحرقني!". فهتفت "**نينا**" مشفقة: "أين؟".

– هناك.. فوق صدري.. بسيجارته. كم أتألم يا أختاه!

وأقبل السيد "**هو وين يو**" بخطواته البطيئة التي لا يسمع لها صوت، وقد ارتسمت على وجهه أمارات السعادة. وصاح: "ماذا بها؟ إن هذه الصغيرة قليلة الاحتمال!". فقالت "**نينا**" متلطفة: "لقد أحرقتها يا صاحب السعادة!". فابتسم في استهانة وأجاب: "إن غزالتنا الصغيرة مفرطة الحساسية حقا!.. وهل هذا يقتضي أن تبكي كأنها طفلة في الخامسة، انسكب منها طعامها؟!".

وظلت "**صباح الخير**" تتأوه قائلة: "لقد أطفأ سيجارته فوق صدري..". فانفجر السيد "**هو وين يو**" ضاحكا، وقال: "لقد كنت أمزح. إذ تباهت أمامي هذه الحمقاء برقة بشرتها، فأردت أن أتثبت من ذلك. إنها حمقاء جدا فعلا!..".

وكان واضحا أن السيد "**هو وين يو**" لم يكن راضيا كل الرضا، فأسرعت "**نينا**" قائلة: "طبعا يا صاحب السعادة.. طبعا!".

وانحنى السيد "**هو وين يو**" محييا، ثم عاد إلى زورقه باسما. ولما اختفى ضجيج محرك الزورق في سكون الليل، تأوّهت "**صباح الخير**" من جديد، فأشفقت "**نينا**" عليها وقالت: "يا لأختي الصغيرة المسكينة! إنه وحش!".

– لكم أكره هذا الرجل!

– عندي بلسم ستضعه "**لؤلؤة التنين**" على حروقك، وستجدينه مخفّفا سحريا للآلام!

واقتادت "**لؤلؤة التنين**" زميلتها إلى حجرتهما، وبقيت "**نينا**" وحدها فوق سطح السفينة، وقد ازدادت مخاوفها واضطرابها. فارتمت على وسائد المقعد، وأخذتها نوبة نحيب، لم تجد مجيبا عنها، إلا صدى صافرة سفينة بضائع كانت ترفع مراسيها من وسط النهر، لتقلع إلى مكان مجهول!

الفصل العاشر

بين الذعر والطمأنينة

كان اليوم السادس من أيام اعتقال السيد "**شياو**" يمثّل في نظر "**نينا**" ذروة المأساة التي قلبت حياتها رأسا على عقب. وكان السيد "**هو وين يو**" واضحا حاسما في هذا الصدد، فلو أنّ الجاسوس صمد للظمأ، فلابد من استخدام الوسائل الكبرى. وقد ظلت "**نينا**" – طوال النهار – على اعتقاد أن حريتها قد أوشكت على ختامها، فتخلت عنها شجاعتها، وأحست بأنها تنتظر الموت باستسلام كالفريسة المحصورة. حتى إذا كانت الساعة السادسة مساء، استقر عزمها على قرار. ومن غير أن تطلع "**لؤلؤة التنين**" و"**صباح الخير**" على ما اعتزمت، استقلت الزورق الذي جاء بمواد التموين، وذهبت إلى الشاطئ، فاتجهت فورا صوب بيت السيدة "**ينج نينج**". ودهشت الأمة العجوز لمرآها حين فتحت لها الباب، وأدخلتها على مولاتها التي أدهشتها – هي الأخرى – هذه الزيارة غير المرتقبة.. وتبادر إلى ذهن القوّادة أن إحدى فتاتي السفينة قد أصيبت بمرض خبيث، بيد أنها ذهلت عندما قالت لها "**نينا**":

– لم أعد أستطيع البقاء أطول من هذه المدّة التي قضيتها على متن السفينة. فإنّ هذا فوق طاقتي!. هذا الانتظار يكاد يذهب بصوابي!

وقطّبت السيدة "**ينج نينج**" حاجبيها وقالت: "وما الذي يفزعك على هذه الصورة؟". فردّت "**نينا**" بسؤال آخر: "هل نمى إليك نبأ القبض على السيد "**شياو**"؟. وكان الجواب: "طبعا!".

– سوف يعذبونه ويرغمونه على الإدلاء بأسماء شركائه.

– مستحيل أن يخوننا السيد "**شياو**"!

– هذا ما يخيّل إليك، ولكنك تعرفين وسائلهم كما أعرفها أنا. وسينتهي بهم الأمر إلى انتزاع الاعترافات التي يبتغونها منه.. وهي اعترافات تعني بالنسبة لي الموت الزؤام، وليس في نيتي أن أدعهم يجهزون عليّ كشاة تساق إلى المذبح!.. لن أبقى هناك، حيث أنا..

– إذن ماذا تريدين أن تفعلي؟

وأجابت "**نينا**": أريد أن أختفي!". فهتفت السيدة "**ينج نينج**": "هذا مستحيل!". ولكن "**نينا**" راحت تهيب بها: "أتوسل إليك يا سيدتي "**ينج نينج**". ساعديني!.. أريد أن أهرب من قبل فوات الآوان! سأغادر "**كانتون**" مرتدية أسمالا بالية كالمتسوّلين، وأضع على رأسي ضمادة. وسأجتهد أن أنجو بنفسي من قبضة هذا السيد "**هو وين يو**" الذي تفزعني ساديّته!.. ألا تعلمين أن هذا الشرطي يطفئ سجائره في صدر تلك الصغيرة المسكينة "**صباح الخير؟!**". فقالت السيدة "**ينج نينج**": "لو أنك هربت، فسوف يضعون يدهم عليك، قبل أن تصلي إلى قرية "**نام يانج!**".

– إن "**الصين**" بلد مترامي الأطراف، ومتى أفلحت في العبور إلى مقاطعة "**هونان**"، فسأكون في أمان.. سألجأ إلى دير أختفي فيه. رحماك يا سيدتي "**ينج نينج**".. لا أريد أن أموت!

وتحرّكت عواطف الرحمة في صدر القوّادة العجوز، أمام توسلات "**نينا**"، فحاولت أن تهدئ روعها قائلة: "فيم هذا الفزع؟.. إنني أعرف السيد "**شياو**" جيدا، فهو رجل شجاع كلّ الشجاعة.. إنه رواقي الطبع، يصمد للآلام!". ولكن "**نينا**" صاحت بها: "كلا، كلا.. إنك واهمة. فهناك ألوان من التعذيب لا قبل لأحد بمقاومتها. وإني متأكدة من أنه سوف يذعن لهم الليلة، أو غدا، أو في مدى يومين.. أو بعد ذلك. هذا لا يهم فعاجلا أو آجلا سيكون لهم ما يريدون، وعندئذ سيأتي صاحبك "**هو وين يو**"، بابتساماته الماكرة.. كأني أراه الساعة أمامي، وكلمات كالشهد المصفى تقطر من شفتيه!.. وسيتلذذ بتعذيبي على نار هادئة بطيئة..

وأكاد أسمعه يقول لي: "يا سيدتي الحسناء "**عطر السماء**".. إني آسف جدا لما حدث، ولكن لابد من اقتيادك إلى رئاسة بوليس الأمن. المسألة تافهة جدا.. مجرد شكليات.. لا تقلقي وهيا معي إلى "**كانتون**"، فإن مدير مكافحة الجاسوسية يتحرّق شوقا إلى التعرف إليك معرفة وثيقة!".. ثم يدفعني إلى ركوب قاربه البخاري، وهو يفحّ من بين أسنانه قائلا: "يا لك من أفعى!.. اتبعيني يا قوّادة جهنم! سنجعلك تكفرين عن خياناتك الدنيئة!".. أجل!".

– لقد طاش صوابك يا بنيتي!.. إن خيالك يغرّر بك!

– كلا!.. لم أعد أريد البقاء في السفينة منذ الليلة! استبقيني معك هنا هذه الليلة على الأقل!.. خبئيني عندك يا سيدتي "**ينج نينج**"، وأقسم لك إنني سأكون غدا قد اختفيت، ولن تسمعي شيئا بعد ذلك عني!.. لن أحرجك أو أورطك في شيء بعد الليلة!

وحاولت السيدة "**ينج نينج**" أن تهدّئ من روع "**نينا**"، ولكن انفعالها كان أشد من أن تجدي معه أية تسرية. وقدمت إليها السيدة "**ينج نينج**" كأسا من الشراب، عسى أن تنام تحت تأثيرها فتجرّعت "**نينا**" الشراب دفعة واحدة.. وبعد دقائق معدودة كانت قد ارتمت على الأريكة التي كانت جالسة فوقها.. واستغرقت في نوم عميق!.. وجعلت السيدة "**ينج نينج**" تنظر إليها برهة طويلة، وهي نهب للحيرة. فإن حالة "**نينا**" الهستيرية انتقلت إليها بالعدوى، فإذا القوّادة العجوز – التي كانت لها كل الثقة في رواقية "**شياو**" – تسائل نفسها: ترى هل ينجح رجال الشرطة في انتزاع أسماء شركائه من فمه في النهاية؟.. إنه يعرف أسماء كثيرة، ويخشى دائما من انهيار مقاومته في أي لحظة! وإذ ذاك، لن يشي بـ"**نينا**" فقط، بل بتلك التي جهّزت "**سفينة الملذات**" كذلك.. فيجهزون على "**ينج نينج**" وكأنها بومة عجوز، ويلقون بجثتها للصّقور والنسور على قمم الجبال الشمالية الشرقية.

وارتعدت فرائص السيدة "**ينج نينج**"، فقد أفلحت هذه المخبولة "**نينا**" في إذكاء جذوة القلق في فؤادها، مع أنها كثيرا ما ناقشت السيد "**شياو**" احتمال إلقاء القبض عليه، فكان يطمئنها إلى أن ألوان العذاب لا يمكن أن تحل عقدة لسانه!.. قال لها هذا بنفسه، ولكن لعل كلامه هذا لم يكن إلا من قبيل التفاخر الأحمق.. وفي الساعة الفاصلة قد تخونه شجاعته!

*****

وظلت السيدة "**ينج نينج**" تحملق في "**نينا**" النائمة فوق الأريكة.. وبدأت ترى أن القرار الذي اقترحته الشّابة لم يكن يخلو من وجاهة.. ولا ضرر هناك من فرار مؤقت، إذا

افترض أن السيد "**شياو**" لم يعترف بشيء. ففي وسعها – بعد ذلك – أن تعود إلى "**شامين**"، وهي آمنة مطمئنة. أما إذا انهار جلده، فسيكون الفرار هو المخرج الوحيد.. وقد تكون فرصة الفرار ضئيلة، ولكنها – على أية حال – مبعث أمل! لذلك لم تلبث أن نهضت فجأة، ووضعت يدها المعروقة المتغضنة على كتف "**نينا**"، فاستيقظت هذه فزعة، وهي تنتفض، وهتفت وفي عينيها ذعر شديد: "ما هذا؟.. ماذا جرى؟". فمالت السيدة "**ينج نينج**" فوقها، وقالت لها: "لقد فكرت في الأمر يا بنيتي، وبدت لي فكرتك وجيهة.. فليس لنا أن نجازف بالتعرّض للهلاك. سنرحل الليلة بالذات!".

– أجل يا سيدتي "**ينج نينج**".. يجب، فإن حياتك – أنت الأخرى – في خطر!

ورسمت المرأتان خطتهما للهرب: في الساعة التاسعة ستذهبان إلى المدينة، وقد ارتديتا ثياب الفقراء، وتركبان عربتي ركشه إلى الأطراف الخارجية لمدينة "**كانتون**"، ثم تستقلان من هناك، سيارة أو حافلة عامة من الحافلات التي تطوف قرى الريف. وتروحان تتنقلان من قرية إلى قرية، مبتعدتين عن المدينة الكبيرة. وتظلان تتسوّلان عيشهما متنقلتين بين المزارع. وبهذا قد تكتب لهما السلامة عن المصير الذي يتهددهما!

وقامت السيدة "**ينج نينج**" لتخبر أمتها العجوز بأنها كانت مضطرة للخروج كي تزور إحدى قريباتها. وعندئذ سمعت على الباب طرقات خافتة. فأطلقت "**نينا**" صيحة فزع.. لقد فات الأوان إذن، وسقطتا في الشرك!

واجتازت السيدة "**ينج نينج**" الدهليز في غير ضجة. وكان الضوء فيه خافتا، فنظرت خلال شق خفي في الباب، فإذا شبح رجل ينتظر أن يفتح له الباب، فأمعنت السيدة "**ينج نينج**" النظر، ثم زفرت في ارتياح، إذ عرفت في الطارق السيد "**يانج تشو**"، كبير كتاب محكمة العدل في المنطقة رقم واحد. وكانت في غمرة ارتباكها قد نسيت تمام النسيان أن اليوم يوم الثلاثاء، وهو اليوم الذي اعتاد الموظف الكهل أن يحضر فيه لتناول الشاي معها ومجاذبتها أطراف الحديث.. وكان السيد "**يانج تشو**" مسنّا، يبلغ نحو الخامسة والخمسين من عمره. وقد عرفته منذ زمن طويل جدا. وكان يعنى بزيارتها، لشعوره بالامتنان لها، إذ قدمت إليه في الأيام الخالية فتاة يتيمة من مقاطعة "**كانتون**"، اقتناها حظية له في بيته القائم على ضفة النهر في "**شامين**".

وفتحت السيدة "**ينج نينج**" الباب للسيد "**يانج تشو**"، وهي تتنفس الصعداء. ورحّبت به، ثم أسرعت فطمأنت "**نينا**"، وقدمته إليها. وجلس الرجل شاكرا هذه الحفاوة.. وبينما كان يحتسي الشاي قال: "يا لها من حكاية!.. إن السادة ضباط بوليس الأمن في منتهى الهياج!".. ولم يكن يعرف – بطبيعة الحال – شيئا مما كان يشغل سريرة صديقته. على أنه لم يكد ينطق بكلمة "البوليس"، حتى أرهفت "**نينا**" أذنيها، وقالت بلهفة: "عن أية مسألة تتحدث يا سيد "**يانج تشو**"؟".

– معك حق، فأنتما لستما على علم بما حدث طبعا! سأخبركما بالمسألة في إيجاز، على أن يظل الأمر سرا بيننا.. إنني لا أدري ما إذا كنتما قد سمعتما بما تم منذ نحو ستة أيام، من تفتيش سفن الأزهار!

– سمعنا بذلك، ولكن.. ماذا كان السبب؟ سرقة طبعا؟

– أواه، كلا!.. لقد قبضوا – على متن "**سفينة التنهدات**" – على شخص اسمه "**شياو**"، اشتبه في أنه يتجسس لحساب عملاء **فورموزا**". وقد حبسه بوليس الأمن في زنزانة مدة أربعة أيام بدون ماء.. وفي اليوم الخامس، كان الظمأ قد استبد بالرجل استبدادا فظيعا، فاقتادوه أمام القوميسيير السياسي، الذي أومأ إلى قدح من الشاي المنعش، وطلب منه أن يعترف، واعدا إياه – إذا اعترف بكل ما يطلب منه – بأن يسمح له بشرب الشاي. ورفض "**شياو**" أن يعترف. فجلدوه خمسا وعشرين جلدة، ثم ردوه إلى زنزانته. وكنت جالسا على أهبة تدوين الاعترافات، ولكنني لم أكتب شيئا، لأن السّجين ظل صامتا صمت القبور!.. وبعد ظهر ذلك اليوم حضر نائب مدير مكافحة الجاسوسية، وقابل القوميسيير، وأبلغه أوامر السلطات العليا، التي تقضي بوجوب حل عقدة لسان السجين بأية طريقة، وبأي ثمن. وتناقش الضباط مع القوميسيير في هذه المسألة طويلا، ثم انتهوا إلى الاتفاق على خطة واحدة، وهي توقيع طريقة الفيران الثلاثة – في التعذيب – عليه!

وانتفضت "**نينا**"، وصاحت السيدة "**ينج نينج**" جزعة: "الفيران الثلاثة؟!". فرشف السيد "**تانج تشو**" رشفة من الشاي، وقال: "سأوضح لكما ما حدث: لقد جيء بالسجين إلى (بدروم) السجن، وذهبت في صحبة القوميسيير وحارسين، فإذا بهم

يجلسون السجين على مقعد ويحيطون رقبته بحلقة من الحديد ثبّتت رأسه فوق قرص خشبي. ثم أحضر السجانان كيسا وقفصا مستديرا فجعلا الثاني فوق رأسه، بحيث صار رأسه داخل ذلك القفص. وشرع القوميسيير في استجوابه لمدة عشر دقائق. وأصرّ "**شياو**" على الصمت. وعندئذ أشار القوميسيير إلى الحراس، ففتحوا الكيس وأخرجوا ثلاثة فيران كبيرة، رمادية اللون، حبسوها داخل القفص الذي كان به رأس "**شياو**"! وكانت هناك مسافة تسمح للفيران الثلاثة بالحركة في حرية حول رأسه. وظلت الفيران الثلاثة تجري مدى بضع دقائق، ثم أخذت تتسلق رأسه، صعودا وهبوطا، في سباق غريب. وكانت هذه الفيران جائعة، لم يقدم لها طعام منذ سبعة أيام. وفجأة، انقض أحد الفيران على أذن "**شياو**" فقضم منها قطعة جعل يتلمظ متلذذا بها. وهجم فأر آخر على الفأر الأول وزاحمه لينال لنفسه قضمة من لحم السجين المسكين. وما هي إلا هنيهة، حتى كانت الفيران الثلاثة قد أتت على أذنه كلها!.. ويظهر أن رائحة الدم أثارت وحشية أحد الفيران، فهجم على أنف "**شياو**" يقرضه، وحذا الآخران حذوه حتى التهمت نصف الأنف. وعندئذ أمر القوميسيير بوقف العملية، فقتل الحراس الفيران بسكاكين طويلة أدخلوها من بين قضبان القفص، ثم نزعوا الحلقة من حول عنق **شياو**"!.. وكان وجهه ملطخا بالدم. واقترب منه القوميسيير وسأله قائلا: "أيها الكلب العقور! ألا تريد أن تتكلم؟"، فأجابه قائلا: "بلى! سأتكلم!".. أجل، كان هذا جوابه!".

❃❃❃❃❃

وكانت السيدة "**ينج نينج**" و"**نينا**" تصغيان بكل انتباه، وقلباهما يدقان دقّا عنيفا، واستطرد السيد "**يانج تشو**" قائلا: "واستراح القوميسيير لهذا القول من "**شياو**"، فأشار إليّ كي أستعد لتسجيل الأقوال التي سيدلي بها. وتضرع "**شياو**" إليه أن يأمر بفك قيود معصميه، كي يريه العلامات السرية والرموز المنقوشة على جسمه ويفسر له معانيها الخفية، وكانت نية "**شياو**" الطيبة واضحة جدا، فأمر القوميسيير الحراس بحل الأغلال التي تقيد يدي السجين وأمر كذلك أن يقدموا إليه قدحا من الماء. فشرب "**شياو**" من

القدح جرعة واحدة ثم سقط على الأرض كمن أصابه دوار، وأفلح بصعوبة في الجلوس على كرسيه مرة أخرى. ولما لم يتكلم، قال القوميسيير بغضب للحراس: "اخلعوا عنه ثيابه، واكشفوا عن صدره وظهره وفخذيه. هيا!" .. فنزعوا عن "**شياو**" ثيابه كلها، وجعلوا يفحصون جلده ظهرا لبطن، فلم يعثروا على علامة واحدة. فاستشاط القوميسيير غضبا، وتوعده قائلا:

"لقد خدعتنا أيها الوغد!.. أجب عن الأسئلة المحددة التي سأوجهها إليك، وإلا فسوف نجعل الفيران تأكل سائر رأسك، أيها الخنزير!" .. وأخذ **القوميسيير** يوجه إليه سلسلة من الأسئلة: لحساب من تعمل؟ ومن الذي يدفع لك ثمن خيانتك؟ ومن هم شركاؤه في "**كوان تونج**" وغيرها من الأقاليم؟.. ولم تفلح الأسئلة ولا التهديدات في إخراجه عن صمته. وكان "**شياو**" ينظر إلينا وكأنه لا يدري ولا يسمع ولا يفهم. وكانت بشرته قد تحوّلت إلى لون قريب من الخضرة الباهتة، وأخذت رقبته تختلج كمن به تقلصات، واعتراه فواق عنيف. ولم يلبث أن سقط على الأرض يتلوى، وجعل ينبش التراب بأظافره، ثم سكن بلا حراك، فأطلق القوميسيير صيحة غضب، وركله.. ثم قلب جفنيه، وأعلن أنه مات بالسم! ولما فحصنا ثيابه اكتشفنا أن أحد أزراره مشقوق مجوف، ولا شك أنه كان يحتوي على قرص سام لفوره، ابتلعه بعد أن فككنا قيود يديه. وعلمنا أنه تصنّع الدوار في البداية، وسقط على الأرض بعد حل يديه، كي يتمكن من تنفيذ خطته خلسة. وهكذا حمل سره معه إلى العالم الآخر، وأفلت من العقاب الذي يستحقه جواسيس الأعداء الخونة من أمثاله!

وسكت السيد "**يانج تشو**"، وانصرف لارتشاف بقيّة قدح الشاي في تلذّذ، وتبادلت السيدة "**ينج نينج**" و"**نينا**" النظرات، وقد أذهلتهما المفاجأة، واستولت عليهما شتى المشاعر المتناقضة لسماع هذه الأنباء العجيبة.. فقد كان معنى ذلك انقضاء خوفهما وقلقهما على غير انتظار!.. وقدمتا قدحا آخر من الشاي إلى السيد "**يانج تشو**"، الذي انتقل إلى الحديث في مواضيع شتى، من هنا وهناك، بعد أن عقّب على قصة "**شياو**" بقوله: "أعتقد أن انتحار "**شياو**" بهذه الصورة سيكلف القوميسيير منصبه. إذ كان من واجبه أن يكون أكثر حذرا مما كان، وأن يفتش ثياب سجينه تفتيشا دقيقا.. ولكن

السجين – على كل حال – كان داهية في مكره وحيلته. فمن ذا الذي كان يتصور أن زرا صغيرا مستديرا يمكن أن يخفي في داخله حبة قاتلة بهذه السرعة؟!".

*****

وفي نحو الساعة العاشرة مساء، شكر السيد "**يانج تشو**" السيدتين على حفاوتهما البالغة، واستأذن في الانصراف. وما إن صارت السيدتان وحدهما، حتى تناولت القوادة العجوز كفي "**نينا**" بين يديها وقالت لها همسا: "والآن يا صغيرتي، أظن أنك لن تشعري بأدنى خوف؟".. فأجابت "**نينا**": "يا للسيد "**شياو**" المسكين... لقد كان شجاعا حقا!".

– كنت واثقة بأنه لن يشي بنا مهما يحدث له. والآن، يحسن بنا أن نفكر تفكيرا واقعيا يا صغيرتي. لسنا الآن بحاجة إلى الهرب. أليس كذلك؟

– طبعا... وسأعود إلى السفينة.

– إننا للأسف قد خسرنا في شخصه رسولا أمينا حاذقا، وسوف أكلف شخصا أعرفه وأثق فيه، كي يبلِّغ المأساة إلى السيد "**فان لونج**"، حتى يحتاط لنفسه ويتدبر شؤونه!

وبعد نصف ساعة، كانت "**نينا**" تحتل مكانها المعهود فوق سطح "**سفينة الملذات**". أما "**لؤلؤة التنين**" و"**صباح الخير**"، فكانتا تنادمان ثلاثة من الضباط، وأحد كبار الموظفين في المحافظة. وكان الجميع يضحكون في انشراح وحبور، بينما انصرفت "**نينا**" إلى التحديق في مياه النهر السوداء، وقد أحسّت بالخجل من خوفها وضعفها وجبنها، لاسيما بعد الذي علمته عن بسالة "**شياو**" وصبره وتجلده.. لقد ضرب الرجل لها المثل والقدوة!.. أجل، لقد مات السيد "**شياو**" لكي ينقذ حياة زملائه في شبكة الجاسوسية، فعليها الآن أن تحمل الشعلة التي سقطت من يد الشهيد، وتستأنف السباق نحو البطولة والمجد!

الفصل الحادي عشر

رحلة إلى "كانتون"

شعر "**فرانسيس**" بالضّجر والملل في "**هونغ كونغ**"، فقد ثقل عليه كثيرا فراق "**نينا**". أجل، لقد عرف مدة إقامته الطويلة في الشرق الأقصى، فتيات كثيرات من فتيات المراقص والملاهي، وألف عاداتهن وأمزجتهن وأذواقهن. وكان يعلم جيدا أن أهم ما يعنيهن في ملاقاتهن للرجال هو "حفظ المظاهر".. وطالما تسلى "**فرانسيس**" بألاعيبهن المكشوفة الساذجة، دون أن يشعر بتعلق أو هيام صادق. وكانت "**نينا**" هي المرأة الوحيدة التي استولت عليه استيلاء كاملا، ولهذا شعر بأسى عظيم لفراقها، وبفراغ ممل، وبسخط على نوع الحياة التي كانت تحياها في "**كانتون**". وقد أعانه صدق حبه لـ"**نينا**" على التخلص من مغريات ومآزق كثيرة. فلم يكن له من تسلية – طوال شهور غيابها الثلاثة – سوى تلك المهام التي كان يكلفه بها السيد "**فان لونغ**".. من الطيران إلى "**فورموزا**" أو "**ماكاو**"، ومن إلقاء المهربات ليلا في ريف "**كوان تونغ**" أو "**يونان**". حتى إذا عاد إلى "**هونغ كونغ**"، ذهب لزيارة صديقه "**ماك فيرسن**" في بار "**اللوتس الأسود**"، حيث يحتسي الشراب مع هذا أو ذاك من المعارف السطحيين، ثم يعود بمفرده إلى فندق "**الملك إدوارد**"، حيث تراوده صور وذكريات خلواته مع "**نينا**" في تلك الحجرة، فيسائل نفسه: ماذا عساها تفعل في تلك الساعة، في الجانب الآخر من الحدود؟.. هل هي في خطر؟.. وكثيرا ما كان يحلم بها، ثم يصحو من نومه مجفلا، فيحملق في الوسادة التي بجواره، والأمل يملأ قلبه في أن يجدها راقدة هناك، وقد افترت شفتاها عن ابتسامة ملائكية، وهي مستغرقة في النّعاس!

وفي ذات صباح اتخذ قرارا خطيرا، فاتصل تليفونيا بالسيد "**فان لونغ**" وطلب منه موعدا للمقابلة. واستقبله مدير الشركة الآسيوية للاستيراد والتصدير في داره، في الساعة السابعة من الليلة عينها. فقال له "**فرانسيس**": "يا سيد "**فان لونغ**".. لقد قضيت في خدمتك أكثر من ستة أشهر. وجدير بك أن تعترف بأني قد خدمتك

بإخلاص، وإن لم أكن أكترث إطلاقا للمنازعات التي تقسم "**الصين**" إلى معسكرين في الوقت الحاضر، وجازفت بحياتي في سبيل قضيّتكم. وقد يكون جوابك على ذلك أنني أتقاضى عن هذه الخدمات ألف دولار في الشهر، وهذا صحيح. ولكن المال لا يكفي لشراء الإخلاص. وأنا لست مجنّدا ولا ملزما بالخدمة والولاء.. ومع ذلك وضعت حياتي في كفّة الميزان من غير تردّد. ألست توافقني ذلك؟!".

– يا سيد "**أرنولد**"، إنني أوافقك وأقدر خدماتك. وبعد؟

– إني في خلال هذه المدة قد عرفت أشياء كثيرة، منها أن الشركة الآسيوية للاستيراد والتصدير. تتجر سرا مع الأعداء، رغم سمعتها المتينة. وهذا يدل على أن الأعداء الشيوعيين يجهلون نشاط شركتكم السري. وهذه براعة تهنأ عليها!

– إنني أقيم علاقات تجارية مع الأعداء، لأنه من الطبيعي أن أحصل من الذين أتجسس عليهم، على مكاسب أغطي بها نفقات ذلك التجسس الباهظة.

– إن هذا يدل على ذكاء وضيع، لا يكترث للمبادئ!

– هذا هو شأن جميع رجال الدولة والساسة والبرلمانيين. وهو أيضا حال جميع رؤساء أقلام المخابرات.

وقال "**فرانسيس**": "يا سيد "**فان لونغ**". أنا أعلم أنك كنت من البراعة بحيث حصلت من "**الصين الشيوعية**" على ترخيص بوجود وكيل دائم لك يمثل شركتك في "**كانتون**".." فقاطعه الرجل متعجلا بقية حديثه: "هذا صحيح يا سيد "**أرنولد**". فاستطرد "**فرانسيس**" قائلا: "وهذا الممثل الدائم يدعى "**كارل فان دروتن**". وهو "**هولندي**" قادم من "**باتافيا**" من جزر "**الهند الغربية**"، وقد عاش ثلاثين عاما في الشرق الأقصى على ما سمعت!".

– وهذا أيضا صحيح. إذ إن "**فان دروتن**" يعاونني في عقد الصفقات والاتصال بسلطات "**كوان تونغ**"، حيث أبيع السلع المختلفة كالمصابيح والتوصيلات الكهربائية وما إلى ذلك. وأضيف إلى هذا أن السيد "**فان دروتن**" لا يقوم إلا بالنشاط التجاري المحض، فليست له أية مهمّة سرية، بل إنه – فوق هذا – لا يعلم بالجانب السري من نشاطنا. فهو يعمل في وضح النهار وتبارك أعماله السلطات المحلية هناك.

وقال "**فرانسيس**" : "إنني أدرك هذه الحقيقة يا سيد "**فان لونج**"، ولكن إقامة السيد "**فان دروتن**" في "**كانتون**" جعلتني أفكر في شيء آخر. أفلا تظن أنه قد يحتاج ولو لمدة أسابيع قليلة إلى مساعد خبير في الأدوات الكهربائية، لخدمة عملائك هنا؟".

فتساءل "**فان لونج**" : "ومن يكون هذا الخبير؟".

وكان الجواب: "أنا!.. فإن معلوماتي الفنية تتيح لي أن أؤدي خدمات جزيلة في هذا الصدد!". وإذ ذاك سأله "**فان لونج**: "ولماذا داخلتك فجأة الرغبة في الاهتمام بشئون السيد "**فان دروتن**"؟. وأجاب "**فرانسيس**" : "لأن إقامتي لمدة قصيرة في "**كانتون**"، ستسمح لي بالاتصال بشخصية عزيزة.."

ونهض السيد "**فان لونج**" وجعل يذرع الحجرة ويداه في جيبيه، ثم قال دون أن ينظر نحو "**فرانسيس**" : "إن ما تطلبه مني جد خطير، يا سيد "**أرنولد**".. إنني أقدر أسباب رغبتك في الاجتماع بالآنسة "**ونج**"، لما بينكما من روابط عاطفية وثيقة، ولكن التقاءكما في "**كانتون**" قد يؤدي إلى نتائج خطيرة على أعمالنا السرية، وعليها هي، وعليك أنت!".. فقال "**فرانسيس**" : "لقد فكرت في هذا كله، وأنا آخر من يريد الإساءة إلى أعمالكم في الجانب الآخر من الحدود. ولكن اسمح لي أن أوجه اهتمامك إلى العمل الذي تقوم به الآنسة "**ونج**"، وهو إدارة سفينة من سفن الأزهار. فإن هذه السفن تستقبل الزوّار المستعدين للإنفاق بسخاء، لمجالسة ومنادمة فتياتها!".

– طبعا، ولكنك أوروبي، ولست صينيا!

– أنت تعلم – كما أعلم أنا – أن آلافا من الروس – خبراء ومستشارين في كل نوع – موجودون الآن في "**الصين**"، وهم يتجولون ويتحركون بكل حرية، فلا يثير منظرهم أية دهشة لدى حلفائهم الصينيين. وبفضلك، وبفضل علاقات السيد "**فان دروتن**"، أستطيع الحصول على إذن بالإقامة المؤقتة هناك، مما يخمد فضول الشرطة.

– ومع هذا فمن التهور أن تقابل الآنسة "**ونج**" في "**كانتون**".

– أعلم هذا، ولكن السيد "**فان دروتن**" يستطيع أن يكلفني بإصلاح المصابيح التي تضيء سفن الأزهار، وهي توقد بغاز الأستيلين.

فوقف "**فان لونج**" أمام "**فرانسيس**" وقال: "هل أنت مصر على رؤيتها؟". فأجاب

الشاب: "إذا كانت خدماتي الصادقة تستحق في نظرك مكافأة صغيرة، يا سيد "**فان لونج**"، فأرجو أن تجيب رجائي!". ولزم السيد "**فان لونج**" الصمت بضع لحظات، ثم قال: "كنت حريًا أن أرفض طلبك. لما ينطوي عليه من خطر بالغ للجميع، لو لم يكن السيد "**هو**" قد قذف من الطائرة هذين الصينيين اللذين اعتديا عليك في "**ماكاو**". فقد علمنا بعد ذلك أنهما من رجال مقاومة الجاسوسية في "**كوان تونج**"، وأنهما كانا يتعقبانك منذ رحلتك الأولى إلى "**ماكاو**". ولولا حزم السيد "**هو**" في القضاء عليهما فورا ما قدرت لك أكثر من ثلاثة أيام في "**كانتون**"، ثم تعتقل ويجهز عليك. فإن أعداءنا ما زالوا يحققون في أسباب اختفائهما. ولحسن حظك أن أحدا لا يشتبه في أمرك، في الناحية الأخرى من الحدود، ولذلك فلن أمانع في إجابة طلبك بشرطين. يجب أن تتعهد بشرفك أن تحترمهما". فتساءل "**فرانسيس**": "وما هما؟".

– سأحصل لك على إذن بالإقامة لمدة أسبوع واحد في "**كانتون**". وفي خلال هذا الأسبوع تستطيع أن تدبّر مقابلة واحدة مع الآنسة "**وونج**"، على ظهر سفينتها.. مرة واحدة فقط، وأنا أصرّ على هذا الشرط!.. إذ إنك تعرضها للخطر إذا أصبحت زائرا مألوفا لـ"**سفينة الملذات**"، ولا أظن أن هذا ما تسعى إليه.. أما الشرط الثاني، فهو ألا تسعى لإطالة إقامتك هناك أكثر من أسبوع واحد.. وثق بأنني لن أزكّي أي طلب لك بمد الإقامة، بل سأكون أول من يحرّض بوليس "**كانتون**" على إعادتك بالقوة إلى "**هونج كونج**".. وفي هذه الحالة ستخسر الألف دولار التي تتقاضاها من شركتنا شهريا!

وأشعل "**فان لونج**" سيجارة أخرى، ونفث دخانها نحو السّقف واستطرد قائلا: "والآن هب أن مسلكي في هذا الصدد ضايقك، وأنك فكرت في الانقلاب علينا والوشاية بنا إلى أعدائنا.. وهو طبعا افتراض خيالي جدا، ولكن لواعج الغرام قد تدفع الإنسان أحيانا إلى أشد الأعمال نزقا.. وقد تحملك رغبتك في ملازمة الآنسة "**وونج**"، على شيء من ذلك القبيل. فلنفترض أنك ذهبت إلى مدير مكافحة الجاسوسية في "**كانتون**"، وقلت له إن الشركة الآسيوية للاستيراد والتصدير مجرد مظهر خادع، يخفي وراءه شبكة للجاسوسية، وأن "**فان لونج**" حقير منافق من أعوان الماريشال، يبث عيونه في جميع أنحاء "**كوان تونج**".. أتدري ما الذي يحدث عندئذ؟ سيتصل مدير مكافحة

الجاسوسية في "**كانتون**" بي تليفونيا، ليخبرني بأن أحد رجالي - وهو فرنسي يدعى "**أرنولد**" - يشيع صدى أراجيف لا أساس لها من الصحة، وربما كان ذلك عن موجدة لقلة مرتبه أو لأسباب أخرى مادية!.. وسأخبرك لماذا سيكون موقف مدير مكافحة الجاسوسية بهذه الصورة.. ذلك لأنني أقدم له - منذ مدة طويلة - معلومات قليلة الأهمية بالنسبة لنا، ولكنها تكفي لإشعاره بأنني أخون "**فورموزا**". وفي مقابل ذلك، أحصل على تسهيلات كثيرة أظنني في غنى عن تعدادها لك. فهل فهمت الآن حقيقة موقفي يا سيد "**أرنولد**"؟.. إنني أتجسس لحساب الماريشال وفي الوقت ذاته، أوهم الأعداء بأنني أخون الماريشال. وهذه هي أفضل سياسة في أفضل عالم ممكن!.. والآن أعود إلى موضوعك الخاص يا سيد "**أرنولد**".. إنك لن تستطيع أن تقول للسلطات هناك - مثلا - إنك اشتركت في إنزال المخربين بالمظلات. وإلا كان معنى ذلك إعدامك في مدة أربع وعشرين ساعة. ومن هذا يتضح يا سيد **أرنولد**" أن مصالحنا متلازمة، وهذا كل ما أردت أن أثبته لك، وإن كنت نسيت أن أذكرك بأن عزيزتك الآنسة "**وونغ**" ستكون أول ضحية لتهورك في هذه الحالة. وأرجو أن تغفر لي قسوتي الشديدة في إملاء شروطي، فإن أمورا مهمة جدا في كفة الميزان، وهي أهم في نظري بكثير من قضائك بعض الوقت مع امرأة جميلة. إذ إن الآنسة "**وونغ**" أصبحت من أهم العناصر في جهازنا السري، وهي منذ شهرين - على الخصوص - تقوم لنا بخدمات رائعة، ببراعة فائقة. وقد كان للمعلومات التي حصلت لنا عليها، تقدير كبير في "**فورموزا**". وهانذا قد صارحتك بكل شيء، و"لعبت معك على المكشوف"، لأنني أعتبرك رجلا رصينا، يقدّر الحجج المعقولة. وقد سمحت لك بفرصة الاجتماع بصديقتك مرة واحدة. وهذا القليل خير من لا شيء!".

- إنني أقدّر صراحتك يا سيد "**فان لونغ**"، وأعدك بشرفي أن ألتزم الشرطين اللذين أمليتهما عليّ. وسأعود إلى "**هونغ كونغ**" بمجرد انتهاء الأسبوع.. وتستطيع بعدها أن تعتمد على جهودي وإخلاصي كسابق العهد!

- وما دمنا متفقين يا سيد **أرنولد**"، فسوف أجهز لك ما يلزمك من أوراق رسمية، وأرجو أن يتم الحصول على إذن التصريح بالإقامة خلال أسبوع من اليوم، كي تسافر

بصفة رسمية إلى "**كانتون**" . وهناك تستطيع أن تدبّر أمورك مع السيد "**فان دروتن**" ، وسيكون قد تلقى تعليماتي ليرسلك بتكليف منه لتركيب مصابيح جديدة جميلة للسفينة التي تديرها السيدة "**عطر السماء**" !

*****

وانقضت أربعة أيام بذل فيها "**فان لونج**" جهده لإجابة ملتمس "**فرانسيس**" . وعلى متن "**سفينة الملذات**" ، كانت الحياة تمضي على وتيرتها المعهودة. و"**نينا**" تقوم بمهمتها مطمئنة، وعلاقاتها مع ضباط الحامية على خير ما يرام. وكذلك كانت "**لؤلؤة التنين**" و"**صباح الخير**" راضيتين كل الرضا.. بل إن "**صباح الخير**" كانت أكثر من راضية لأن السيد "**هو وين يو**" المخيف لم يعد إلى السفينة. وفي ذات ليلة قالت "**صباح الخير**" لـ"**نينا**" : "لقد توسلت إلى السماء أن تخلصني من هذا الرجل الشرير، ووعدت الآلهة بنذور جليلة لو أنها استجابت لتوسلاتي، ولهذا أسألك الإذن لي بالتوجه غدا إلى معبد "**بوذا الأعظم**" ، كي أفي بهذه النذور" . ومع أن **نينا**" لم تكن تؤمن بهذه الخرافات، إلا أنها لم تشأ أن تخالفها الرأي، فأذنت لها.

وفي المساء، شاء سوء الحظ أن يقبل الزورق البخاري بأضوائه الحمراء، وصعد منه السيد "**هو وين يو**" برشاقته المعهودة، وكأنه قط وحشي من قطط سيام" . وكانت "**صباح الخير**" نائمة في مخدعها، فلم تشعر بوصوله. وأسرعت "**نينا**" تستقبله بحفاوتها المألوفة وبشاشتها. فجلس بجوارها، وأشار إلى "**لؤلؤة التنين**" أن تبتعد. ثم نظر إلى "**نينا**" وابتسم ابتسامة معسولة، فتساءلت عما كان يخفيه – وراء هذا التلطف المفاجئ – إذ كانت تتوجس من أساليبه وأغراضه. وأخيرا قال بعد صمت مقصود: "لقد حضرت الليلة – يا سيدتي "**عطر السماء**" – لغرضين: لكي أرى طبعا غزالتنا الصغيرة النافرة، التي أرجو أن تكون قد خففت من نفورها.. ولكي أبلغك مفاجأة سعيدة تنتظرك" . فتساءلت "**نينا**" موجسة، "ماذا تعني بذلك يا صاحب السعادة؟" . فقال: "لست أملك أن أقول لك أكثر من هذا. ولكني أستطيع أن أقول لك إنك بعد قليل جدا ستفاجئين بمفاجأة سارة للغاية!" .

– أريد أن أعرف مناسبتها، على الأقل.

– ليس لي أن أحدد نوعها. بل إن الذي أخبرتك به لم يكن مباحا أن أقوله!

– يا صاحب السعادة، إن كلماتك الغامضة تثير في نفسي الاضطراب، لاسيما وأنني لا أتوقع شيئا غريبا عن مألوف حياتي!

– أرجو ألا تلحّي في السؤال، وقد قلت لك ما دفعني شعوري العميق بالمودّة نحوك إلى قوله.. والآن، سيسعدني أن أشرب كأسا من الشراب مع الحسناء الصغيرة "**صباح الخير**". فأين هي؟

فصفّقت "**نينا**"، حتى إذا أقبلت "**لؤلؤة التنين**"، سألتها أن تدعو زميلتها. وما إن جاءت "**صباح الخير**" ووقع نظرها على السيد "**هو وين يو**"، حتى ظهر الرّعب على وجهها، وأدركت أن الآلهة قد غرّرت بها، أو أصمّت أذنيها عن توسلاتها.. وبإشارة من "**نينا**"، أقبلت فجلست بجوار الضابط، وكأنها عصفور بين مخالب صقر. وبعد ربع ساعة، قام الضابط مع فريسته إلى حجرة النوم. فهمست "**نينا**" في أذن "**لؤلؤة التنين**"، قائلة: "اذهبي معهما. فربما كان في قربك منهما بعض الحماية للمسكينة!".

وأطاعت "**لؤلؤة التنين**"، وبقيت "**نينا**" وحدها على ظهر السفينة، فأخذت تقلّب في ذهنها عبارات السيد "**هو وين يو**"، دون أن تفقه كنه المفاجأة السارة التي أشار إليها.. وكانت توجس من الرجل شرا، فخامرها القلق!

*****

تستغرق الرحلة بالقطار – بين "**هونغ كونغ**" و"**كانتون**" – ثلاث ساعات، قضاها "**فرانسيس**" جالسا في الديوان، كأي مسافر عادي، ومعه الأوراق اللازمة لتأمين سلامته رسميا. وأخذ صبره ينفد كلما أوغل القطار في المسير. وشرعت الأفكار الخيالية المفرطة في الغرابة تنفذ إلى ذهنه. ففكر أولا في قرب ضم فتاته بين أحضانه، وشكر لـ"**فان لونغ**" هذه المنّة التي تدل على مودّة وإكرام.. ولابد أن الرجل كان على صلات قوية بالسلطات – في "**كوان تونغ**" – وكانت له علاقات سرية مجهولة، تتيح له الحصول في مدى خمسة أيام على تصريح بالمرور والإقامة. فقد كان الحصول على مثل هذا التصريح

يتطلب – في الظروف العادية – مدة لا تقلّ عن ثلاثة أشهر، مع السعي الحثيث!.. وفكر "**فرانسيس**" كذلك في موقفه الذي لم يكن يخلو من طرافة، على ما فيه من كدر وخطر. فها هو ذا يسافر حاملا أوراقا تحميه من سلطان بوليس الأمن نفسه، وهو الذي كان منذ أسبوع واحد يجتاز الحدود خلسة بالليل، ليقذف بالمهربات، وبرجال المقاومة السرية!.. وكانت طائرات "**الميج الصينية**" الحمراء تطارده وهو يروغ منها!

وكان من المتفق عليه أن ينتظره السيد "**فان دروتن**" في محطة "**كانتون**". ولم يجد "**فرانسيس**" عناء في التعرف إلى ممثل "**فان لونج**"، حين رأى أمامه هولنديا بدينا، مجعّد الشعر، أحمر الوجه، له لحية طويلة كلحية "**نبتون**" إله البحر، وبطن عال ينمّ عن حبّ للطعام والشراب.. وشدّ "**فان دروتن**" على يد "**فرانسيس**" بميل فطري نحو هذا الرجل الذي كانت عيناه الزرقاوان تومضان في لمعان الماس، وتنمان عن الصراحة التامة والاستقامة المطلقة.. ودعا الرجل "**فرانسيس**" إلى سيارته "**البويك**"، التي رفرف على مقدمتها العلم الهولندي، وكتب على لوحة رقمها عبارة "هيئة سياسية". ودهش "**فرانسيس**" لذلك، فقال له "**فان دروتن**" ضاحكا:

– لقد نسي "**فان لونج**" أن يقول لك شيئا خطيرا.. إنني قنصل "**هولندا**" في "**كانتون**". ولئن كان الدخول في زمرة الدبلوماسيين أمرا غير سار، إلا أن هذا الوضع لا يخلو من فوائد، لاسيما أنني قنصل "**صيني**" أكثر من "**الصينيين**" أنفسهم، فلا يستطيعون اللف والدوران معي.. كما أنني أستطيع أن أكيل لهم الصاع صاعين بلغتهم التي أتقنها تماما، بما في ذلك دائرة معارف من الشتائم المنتقاة! ولقد كانت سياستي دائما – منذ عشرين سنة – أن أكون قنصلا لأية دولة في أي مكان أحل به، ولو لجمهورية صغيرة مثل "**سان سلفادور**"، تقرب مساحتها من مساحة مائدة الشاي! فإن لي ثلاثين سنة في الشرق الأقصى، وأنا أعرف تماما عقلية هذه البلاد.

وكان "**فان دروتن**" مضيافا كريما، دعا "**فرانسيس**" إلى الغداء في بيته القائم في الشمال من "**كانتون**".. وهو بيت من الخشب، أنيق البناء، رشيق تحيط به حديقة أزهار غنّاء. وقدم لضيفه الشراب في قاعة الجلوس الحافلة بتذكارات وتحف من كل مكان، لاسيما من "**الهند**" و"**الهملايا**" و"**التبت**"، و"**الصين**"، و"**الهند الصينية**"،

و"**أندونيسيا**" .. وما لبث الهولندي أن ألحّ على "**فرانسيس**" بأن ينزل في داره، فقبل الطيار الدعوة شاكرا. وسرت إليه عدوى اللطف والثرثرة من "**فان دروتن**"، فراح يروي له مغامراته في بلاد الشرق الأقصى، وهو يحتسي القهوة، فقال له مضيفه: "وماذا رأيت أنت من "**آسيا**"؟.. إنني هنا منذ ثلاثين سنة، فلم أخضع - طوال هذه السنوات - لإغراء العودة - ولو لمرّة واحدة - إلى "**أوروبا**" .. "**أوروبا**" المنهوكة، المكبلة بقيود من اللوائح والقواعد والقوانين. صدقني أن ليس بين القارات الخمس سوى قارة واحدة تصلح للسكنى، وتلك هي "**آسيا**"!.. فهي الجدة الكبرى للحضارات الحقيقية، وليست حضارتها كتلك المدينة الآلية، التي يتخبط فيها أهل "**باريس**" و"**لندن**" و"**نيويورك**".. كلا! فـ"**آسيا**" عظيمة، كريمة، سمحة رائعة.. إنها مزيج عجيب من القذارة والفخامة، ومن الجوع والتّخمة، ومن البذخ والمسبغة!.. والعجيب من أمر "**آسيا**" أن أصنام آلهتها تمثلهم سمانا بطانا باسمين، وحياة شعبها ترينا أهلها عجافا محرومين.. إنهم قوم غرباء الأطوار، همّوا أن يذبحوني ذات مرة. أتدري ماذا أنقذني من هذا المصير الأليم؟".

فتساءل "**فرانسيس**": "حصانتك الدبلوماسية؟". فأجاب "**فان دروتن**": "إطلاقا!.. بل قدرتي على شفاء المرضى! أجل يا سيدي! لقد منحتني الطبيعة سيالا مغناطيسيا أتاح لي أن أنافس السحرة من كهنة المعابد، انظر إلى يدي هاتين هذه الكف ذات نشاط إشعاعي. انظر إليها جيدا... أجل يا صديقي الصغير، وقعت ذات يوم أسيرا في أيدي القراصنة، فساقوني مكبّلا في منطقة مصب نهر "**اللؤلؤ**".. والقراصنة أشخاص غاية في خفّة الدم على شاشة السينما، لا سيما في الأفلام الملونة، بيد أنهم - في الواقع - أشخاص في غاية الرهبة. وكان زعيم الذين أسروني رجلا يدعى "**لي يو**"، أبغضني بغضا شديدا، لأني سمين وهو نحيف كأنه هيكل عظمي. ولما أمر بي أن أشنق في مدى أربع وعشرين ساعة، ما لم تدفع الفدية المحددة، نظرت في عينيه وقلت له، وأنا ألوح بسبابتي في وجهه: "اقتلني إن شئت، ولكنك ستموت في مدى أربعة أشهر، لأن الشيطان الأحمر الأعظم ساكن في عمودك الفقري!".. وكنت قد لاحظت أن القرصان يعاني "**اللمباجو**". فشخص ببصره نحوي في دهشة بالغة، وتحسّس كليتيه وهو مذهول. وإذ ذاك عرضت عليه صفقة طيبة، إذ قلت له: إذا عدلت عن شنقي في فجر

الغد، فسأطرد الشيطان الأحمر الأعظم من ظهرك!". وظهر عليه التردّد.. ولكن "**اللمباجو**" كان يزعجه منذ عدة أيام، فقبل الصفقة.. وكان الأمر سهلا هينا للغاية، فقد أرقدت "**لي يو**" عاريا على لوح خشبي – وقد التف حولي رجاله القراصنة، وفي عيونهم نظرات الارتياب والوعيد – واستحضرت كل معلوماتي في وظائف الأعضاء، وأعدت إحدى فقرات العمود إلى موضعها بالتدليك، وأنا أتمتم وكأني أتلو صلاة لرب مجهول، بينما كنت أنهال بشتائم – باللغة الفرنسية – على أجداد القرصان الميامين، ثم ترنمت بأغنية بذيئة من أغاني "**مونمارتر**".. كل هذا وأنا مقطب الجبين، في غاية الرهبة والجد!.. وما لبثت أن وقفت وأمرت "**لي يو**" بأن ينهض، وأنا أضربه على عجيزته بلا احتشام.. فنهض القرصان بلا عناء، وسار عدة خطوات متشككا.. وانحنى وانتصب، فتبين أنه استرد رشاقته المعتادة.. ولم يكد يصدق عينيه وحواسه، وتقدّم نحوي، ويداه معقودتان فوق صدره وصاح: "يا صانع المعجزات! اطمئن، فحياتك لم تعد معرضة للخطر، وقد جعلناك ساحرا خاصا لنا!".. وأطلق القراصنة الآخرون صيحات الإعجاب الشديد. وظللت بضعة أسابيع مضطرا لعلاج أوجاع هذه العصابة القذرة، إلى أن انتهزت فرصة، وتسللت في زورق وعدت إلى البر!".

ونظر "**فان دروتن**" في ساعته وقال: "لقد صارت الساعة الآن الثالثة، فهيا بنا إلى مكتبنا، لأن "**فان لونج**" قال لي إنك ستقوم بإصلاح أجهزة الإذاعة الخاصة ببعض كبار رجال البلدية. وسأضع بين يديك هذه الأجهزة.. وفي المساء سأحتفل بوصولك، وأعرفك بخبايا "**كانتون**"، وأطوف بك ملاهيها طواف الدوقات!.. ها ها!.. إنها طوفة بسفن الأزهار.. فقبل ثورة "**ماوتسي تونج**"، لم يكن السائحون يحضرون إلى "**كانتون**"، إلا لكي يزوروا هذه السفن، أو قل هذه المواخير.. حيث تجد آنسات مستعدات للهيام بك نظير خمسة دولارات، وللتعبد إليك مقابل عشرة دولارات، وللذهاب معك فورا إلى أقاصي الأرض مقابل مائة دولار، وللإقامة معك بصفة دائمة وخدمة بيتك نظير ثلاثمائة دولار!".

✽✽✽✽✽

وكان هذا الاقتراح من جانب "**فان دروتن**" هو خير ما يصبو إليه "**فرانسيس**"، فجعل ينتظر حلول المساء بصبر نافد. وبعد العشاء، استأجر "**فان دروتن**" زورقا، وأمر الملاح أن يتوجه إلى سفن الأزهار الراسية وسط النهر.. وكان الليل صافيا، ومصابيح آلاف من الزوارق تتلألأ في الظلام، وتنعكس على صفحة النهر.. وقال القنصل "**الهولندي**" للملاح: "إلى سفينة المتعة الخالدة"، فالشراب هناك طيب، ولديهم فتاة اسمها "**ياسمين الربيع**"، تحسن لعبة "**بوذا**" والديك والنملة!"..

واستقبل القنصل على سفينة "المتعة الخالدة"، وكأنه العم الثري الذي سيرثه أهلها يوما، فهم يتمنون رضاه. وكانت أشد الجميع حفاوة به ثلاث فتيات "كانتونيات"، كلهن جميلات.. وكن شقيقتين وابنة عم لهما، هن عماد العمل والنشاط في هذا الماخور العائم، فشعر "**فرانسيس**" بأنه في مجتمع عائلي.. ولما قدّم الشراب الوطني المعروف بالساكي، تحدّى "**فان دروتن**" الآنسة "**ياسمين الربيع**"، ثم أخذ يشرح لـ"**فرانسيس**" لعبة "**بوذا**" والديك والنملة: "إن الإبهام هو "**بوذا**"، والسبابة هو الديك، والخنصر هو النملة. واللاعبان يجلسان مطبقي اليدين. وعند صدور الإشارة، يبسط كل منهما نحو الآخر أحد هذه الأصابع الثلاثة. فإذا بسطت السبابة، وأنت بسطت الإبهام، كنت أنت الرابح، لأن "**بوذا**" يأكل الديك. أما إذا بسطت أنا خنصري، فبسطت أنت الإبهام، فإنني أكسب.. لأنّ النملة تستطيع أن تقرض "**بوذا**"!".

واستمر "**فان دروتن**" يلعب هذه اللعبة المملة الساذجة مع "**ياسمين الربيع**"، وابنتا عمها تضحكان.. ولكن "**فرانسيس**" لم يجد فيها تسلية ما، فتمنى لو أن القنصل سئم اللعب، لينصرفا إلى استكمال جولتهما النهرية.. وفي نحو الساعة العاشرة أصدر "**فان دروتن**" إشارة الرحيل.. وقال الهولندي إن زيارتهما – في هذه المرّة – لسفينة "**التنهدات**"، فوافق "**فرانسيس**"، وهو يضغط أعصابه. وصعدا معا إلى سطح الماخور، فوجدا المنظر واحدا، ولكن.. مع مزيد من القذارة. فلم يستطع "**فرانسيس**" صبرا، وقال لمضيفه: "ألم تسمع بسفينة من هذه السفن اسمها "**سفينة الملذات**؟".

– بلى! وهي ملك للعجوز "**شانغ فاي**" الذي علمت أنه باعها..

– لقد امتدحوها لي كثيرا، وأنا في "**هونغ كونغ**".

واستقلا زورقهما ويمما شطر "**سفينة الملذات**"، التي فاقت في منظرها السفن الأخرى. وكانت مصابيحها تضيء لافتة حريرية، عليها كلمات الترحيب بأحرف صينية.. وترامت إلى سمعهما ضحكات رقيقة، وأطراف أحاديث، وصوت دندنة. فأخذ قلب "**فرانسيس**" يخفق بشدة.. ها هو ذا - أخيرا - سيرى حبيبته "**نينا**"!

واستقبلت "**لؤلؤة التنين**" في ثوبها الحريري القرمزي اللون هذين الزائرين. ودهش القنصل لفخامة السفينة التي كانت تختلف كثيرا في أناقتها عن سائر السفن، وكان "**فرانسيس**" قد تعلم شيئا من لغة أهل **كانتون**"، بما يكفي للأحاديث العادية الشائعة. فسأل "**لؤلؤة التنين**" قائلا: " أين السيدة "**عطر السماء**؟"..وسأله "**فان دروتن**": "ومن تكون هذه السيدة؟". فكان جوابه: "يبدو أنها السيدة التي تدير هذه السفينة!". بينما قالت "**لؤلؤة التنين**": "سأتولى إبلاغها خبر حضوركما، فهي الآن تجالس ثلاثة من الضباط ومعهم الآنسة "**صباح الخير**"!".

*****

وبعد لحظات، ظهرت "**نينا**".. فلما التقت بـ"**فرانسيس**" وجها لوجه، أبدت قوة خارقة على ضبط أعصابها، الأمر الذي أدهش عشيقها كثيرا.. وحيت الزائرين بكل رزانة وتهذيب، ودعتهما للجلوس في المقاعد الوثيرة. وكان "**فان دروتن**" يجهل - بطبيعة الحال - أن "**عطر السماء**" تتكلم اللغة الفرنسية، فمال على "**فرانسيس**" وقال بتلك اللغة: "لعمري أن حوريات هذه السفينة رائعات!". ثم راح يثرثر مع "**لؤلؤة التنين**"، بينما وقف "**فرانسيس**" وسأل "**نينا**" عن الأضواء التي تتراءى على الضفة الأخرى من النهر. وكان هذا السؤال مجرد ذريعة لينسحب بها إلى طرف السفينة. حتى إذا صارا هناك قالت له "**نينا**" هامسة: "أية معجزة أتت بك إلى هنا؟".

- أين يمكن أن نتكلم على انفراد؟

فأدخلته "**نينا**" إلى مقصورتها. وهناك احتواها "**فرانسيس**" بين ذراعيه، وأخذ يغمرها بالقبلات.. فأجابت قبلاته بحماسة فضحت سرورها العميق به. وجلس "**فرانسيس**" على حافة الفراش، وقال لها بسرعة وبصوت منخفض: "إنني لم أستطع أن

أعيش أكثر من هذا الوقت في "**هونج كونج**"، وأنا أجهل جهلا تاما ماذا حدث لك. ولهذا رتّبت الأمور، بحيث أحضر لزيارتك، فقد كنت أشعر بشقاء مقيم!".

– ولكن هذا جنون! أتدري مقدار الخطر الذي يحيط بك؟

– كلا، اطمئني، فقد كان "**فان لونج**" من اللطف والكرم بحيث حصل لي على إذن بالدخول والإقامة هنا كمهندس كهربائي يساعد "**فان دروتن**"، ممثل الشركة الآسيوية للاستيراد والتصدير في "**كانتون**". وقد سمح لي بالحضور لزيارتك مرة واحدة. ولكن زيارة هذا المساء لا تدخل في الحساب، لأن "**فان دروتن**" نفسه هو الذي دعاني لقضاء السهرة في المرور على سفن الأزهار!

فقالت "**نينا**" منزعجة: "لكنك تلعب بالنار يا "**فرانسيس**"، يا حبيبي، فإن سفينتي يتردّد عليها العسكريون وبوليس الأمن يرقبني عن كثب!". ولكن "**فرانسيس**" طمأنها قائلا: "إن جميع أوراقي مستوفاة فلا تخافي يا يمامتي الصغيرة!.. والآن أريد أن أقضي معك ليلة على ظهر السفينة!". فتساءلت: "متى؟". وأجاب: "في أي وقت ترينه مناسبا".

– يوم الأربعاء إذن.

ليس قبل الساعة الواحدة صباحا. وسأدبّر الأمر بحيث ينصرف الزوار قبل ذلك الوقت. وأين تقيم الآن؟

– لدى القنصل "**فان دروتن**". والحقيقة أن حظّي من السماء. فهو مضيف ساحر كريم!

– لا تطل المكث الآن معي!

وضمها إلى صدره، وسألها: "ألست سعيدة بهذه المفاجأة؟".

– بل إني في غاية الذهول حتى الآن.. وأوصيك بالحذر.. ألا تعلم ما حدث لـ"**شياو**"، الذي كان يعبر الحدود برسائلنا السرية؟.. لقد قبضوا عليه وعذبوه. واعتقدت أنه سيبوح لهم بالأسماء، ولكنه كان من الشجاعة بحيث انتحر حتى لا يضعف ويتكلم بما يعرفه،، فاحذر، فنحن هنا تحت رحمة أقل هفوة!

وتبادلا قبلة طويلة في القمرة المظلمة، ثم صعدا إلى سطح السفينة، حيث كان "**فان**

دروتــن" يـروي لـ"**لـؤلـؤة التـنـين**" حكاياته المضحكة.. وانصرف الزائران متّجهين إلى "**كانتون**". وكان "**فرانسيس**" يجلس في الزورق مفكرا مطرقا، و"**فان دروتن**" ينظر إليه باسـمـا.. وفـجأة ضرب "**فـرانســيس**" على ظهره، وصـاح: "مـاذا بك؟.. إنك تبـدو ساهمـا!". فقـال "**فـرانسـيس**": "لا شيء، إنما كنت أفكر في هذه السيدة اللطيفـة!". ولكن الهولندي قال: أراهن أنك تعاني الوجد والهيام بالحسناء "**عطر السماء**"؟.. ومن حسن حظّك يا عزيزي أنك ستقوم بتركيب أجهزة جديدة للإضاءة في هذه السفينة.. وأنت شاب جميـل، فانتهز هذه الفرصة واستـمتع، فالحياة قصيرة، والأبديّة طويلة جدا ومملة!".

الفصل الثاني عشر

السيدة "عطر السماء" ليست.. للبيع!

لم يشعر "**فرانسيس**" باستطالة أمد نهار، كما شعر بطول ذلك النهار من يوم الأربعاء.. وكان – في فترة الصباح – قد فحص جهاز الاستقبال الإذاعي الخاص بموظف كبير في بلدية المدينة، ثم تغدى مع مضيفه، واستطاب مرة أخرى كرم هذا الرجل ومرحه العظيم.. ولو أنه كان في ظروف أخرى – أقل إرهاقا للأعصاب – لأسلم نفسه للذة الحياة وسرورها لدى هذا النديم اللطيف الروح.. وعند تقديم الحلوى، أخذ القنصل يداعب ضيفه حول مغامرته – التي كان موعدها تلك الليلة – قائلا: "آه. آه!.. أهكذا تخطف – على أسنة الرماح – حوريات "**كانتون**"؟ تهنئتي الحارة لك أيها الصديق العزيز، على نجاحك السريع، المكتسح!.. فلقد خبرت هؤلاء الصينيات الصغيرات القدود البديعات الحسن، عشرين عاما.. وكنت – أثناء إقامتي في "**بيبنج**" – أستبقي في متناولي جيشا كاملا منهن، بحكم الضرورة لا الترف!.. فإن هؤلاء الراقصات – من فتيات الملاهي والمواخير – من أكثر نساء العالم تقلبا ونزقا، حتى إنك لا تدري في أية لحظة ستتسلل الواحدة منهن من بين أحضانك كالزئبق.. فلابد من أن يكون لديك "احتياطي" كاف لمواجهة هذه المواقف! إن الواحدة منهن تعطيك موعدا في الساعة السادسة، ثم تصل ناضرة مشرقة في الساعة العاشرة. فلابد أن تكون تحت يدي أخرى لملء هذا الفراغ بدلا من الانتظار الممل!.. وإذا غلى دمك وثرت على أحداهن لهذا التكاسل المزعج، ابتسمت في إشراق خلاب، وقالت لك وهي تهز كتفيها برشاقة مثيرة: "**مي يو فاتسي**"!.. ومعناها بالصينية الفصحى "لا حيلة لي في ذلك!".. ومن ثم تراني مبهوتا لإسراع السيدة "**عطر السماء**" إلى إجابة رغبتك في إمضاء ليلة معها!".

وانفجر القنصل مقهقها ثم استطرد: "لابد أن لديك حيلا رائعة لا تخيب مع النساء..! يا لهؤلاء الفرنسيين!".

فقال "**فرانسيس**" بتواضع: "بل إنني أشد دهشة منك لهذه النتيجة الباهرة!".

وبعد العشاء استأذن "**فرانسيس**" مضيفه، وذهب إلى رصيف الضفة اليسرى، حيث استأجر زورقا. وكان قد عرف الآن كيف يسير الزورق متسللا بين سفن الأزهار الكثيرة.. ولبث ينتظر بفارغ الصبر الإشارة المتفق عليها بينه وبين "**نينا**"، وعندما يغادر آخر زائر "**سفينة الملذات**".. وما إن آوت "**لؤلؤة التنين**" و"**صباح الخير**" إلى قمرتهما، حتى لوّحت "**نينا**" بمصباح من نافذة قمرتها. فقفز "**فرانسيس**" برشاقة من زورقه إلى ظهر السفينة الخالي المعتم، واحتواها بين ذراعيه!

*****

وفي القمرة المظلمة المعطرة، أسكرته لذة السعادة التي نعم بها. فقد ظل ثلاثة شهور يتوق إلى هذه الدقائق السحرية.. وراحا يتهامسان بصوت ناعم خفيض، و"**نينا**" تداعب جبين حبيبها وفجأة قالت له: "حبيبي، أريد أن أقول لك شيئا يقلق خاطري.. لقد زارني – قبل وصولك المفاجئ إلى "**كانتون**" – السيد "**هو وين يو**".. إنه مساعد حكمدار بوليس الأمن هنا.. وكانت السيدة "**ينج نينج**" قد حرصت على أن تقدمني إليه قبل أن أمارس أعمالي هنا.. وكانت حصيفة حقا في مرضاة الرجل الذي سيكون رقيبا رسميا وسريا علينا. وقد عرضت عليه السيدة أوراقي المزورة التي كانت أشد إتقانا من أية أوراق أصلية، فأظهر اغتباطا لحسن اختيارها، واعتبرني أهلا للثقة. ثم أكثر من التردد علينا، لأنه أغرم بالصغيرة المسمّاة "**صباح الخير**".. ولكن الذي يدهشني حقا أنه حضر ذلك اليوم، وأخبرني – وهو يسيل رقة وظرفا – بأن مفاجأة سعيدة جدا في انتظاري عما قريب!".

– ألم يحدد لك نوع هذه المفاجأة؟

– كلا، بل ظل متكتما، يزعم أنه لا يملك أن يوضح لي أكثر من ذلك.. وبعد ثلاثة أيام، تمثلت أمامي هذه المفاجأة في شخصك.. فما رأيك في ذلك؟

– إنه لغز يعجز عن حله عقلي يا "**نينا**". فأنا أعرف أن "**فان لونج**" قام بالمساعي اللازمة للحصول من بوليس "**كانتون**" على التصريح اللازم لحضوري وإقامتي هنا أسبوعا. ولكنه كان حريصا – كما تعهدينه – على ألا يخبرهم أن المهندس خبير

الكهرباء، الذي سيساعد "**فان دروتن**"، هو – في الوقت ذاته – عشيق السيدة "**عطر السماء**"! وطبعا من باب أولى لم يقل لهم أنه ينوي زيارتها!

– إذن، فلست أنت "المفاجأة السارة" التي عناها!

– بالطبع لا.. فهذا غير معقول!

– إنه موضوع محيّر ومزعج لي!.. هل مررت على البوليس للتحرّي عنك، يوم حضورك إلى "**كانتون**"؟

– ذهب معي القنصل إلى مكتب البوليس، وقلبوا أوراقي ثم ختموها بما يفيد الإطلاع والموافقة.. وهذا كل شيء!

– إني عاجزة عن فهم الموقف.. فما حضر الثعلب الماكر "**هو وين يو**" ليقول لي ذلك الكلام عبثا.. لابد أن لديه سببا معقولا!.. هل تعقّبك أحد وأنت سائر في المدينة؟

– أنا واثق أن أحدا لم يتعقبني. فأنا أعمل هنا جهارا لحساب السيد "**فان دروتن**".. بل إنني ذهبت إلى دار موظف كبير في البلدية فاصلحت له المذياع.. ولا أعتقد أن أحدا يرتاب فيّ!

وظلت "**نينا**" ساهمة.. وفي نحو الساعة الثالثة صباحا، أيقظت "**فرانسيس**" من إغفاءة انتابته، وقالت له: "يجب أن تعود الآن إلى "**كانتون!**" فتساءل: "ولماذا؟ نحن هنا معا في غاية السعادة!".. فهتفت في ضراعة: "أرجوك يا حبيبي! فما من أحد يمضي الليل طوله هنا. ولو اكتشف أنك أطلت المكث لثارت الشكوك!".. وأذعن "**فرانسيس**" في النهاية لحجج "**نينا**"، واقتنع بأن من مصلحته الخاصة ألا يجازف دون طائل. فودّعها، ثم هبط إلى زورقه ويمم شطر الضفة اليسرى للنهر!

*****

وجفا النوم عيني "**فرانسيس**" حين أوى إلى فراشه، في حجرة الضيوف بمنزل القنصل "**فان دروتن**"، فإن الموضوع الذي صارحته به "**نينا**" أقضّ مضجعه. ومع أنه حاول في اللحظة الأخيرة أن يطمئنها، إلا أنه شخصيا لم يكن مطمئنا. إذ إنه لم يستطع أن يصدق وجود تلك الطيبة التي دفعت مساعد حكمدار بوليس الأمن إلى تجشم عناء

الذهاب إليها ليخبرها بأن مفاجأة سارة ستحدث لها!.. وتبادر إلى ذهنه، أن مساعد الحكمدار إنما قال لها ذلك، ليحملها على ملازمة السفينة.. وإذا كان الأمر كذلك، فإن أول واجبات الحرص تفرض على "**نينا**" أن تختفي بأسرع وقت من هذا المكان.. ولكن كيف؟

وفكر "**فرانسيس**" في السيدة "**ينج نينج**".. لم يكن ثمة شك في أنها تنتمي إلى شبكة الجاسوسية التي يرأسها "**فان لونج**". وقرر "**فرانسيس**" أن يحاول من هذه الناحية إنقاذ صاحبته أو مساعدتها. فإذا اتضح أن هناك خطرا عليها، فعليه أن يجبرها على الفرار.. لذلك تظاهر "**فرانسيس**" - بعد العشاء - بالمزاح مع "**فان دروتن**"، الذي كان يعاتبه متندرا بمغامرة الأمس، فقال له "**فرانسيس**": "أؤكد لك أن السيدة "**عطر السماء**" قد تركت في نفسي أثرا لن أنساه!". فهتف الرجل: "أحقا؟.. ظننتك محصنا ضد هذه الصواعق!".

- وما حيلة الرجل وهو ضعيف أمام الحب! وما دمت يا سيدي "**فان دروتن**" تعرف أسرار المدينة وشخصيّاتها، وعادات الصينيين. فسأستشيرك في مسألة مهمة:

- إنني مصغ إليك أيها الصديق العزيز...

- لنفترض أنك افتتنت بإحدى فتيات أو سيدات نهر "**اللؤلؤ**"، حتى أنك قررت اختطافها.. فماذا تصنع؟

- أوه!.. إن الأمر سهل جدا، فهناك تقاليد مرعية في هذا الصدد: لو أنني كنت في مكانك، لذهبت إلى القوادة العجوز التي ترعى شئون هذه السيدة الحسناء، لأساومها في التخلي لي عنها.. هذه هي الأصول المرعية في الصين منذ ألفي سنة!

- جميل جدا.. ولنفرض أن هذه الحسناء هي مديرة "**سفينة الملذات**"!

- وهذ أسهل وأسهل! فإن قوادتها هي السيدة "**ينج نينج**" التي تعرفها "**كانتون**" بأسرها. وهي تسكن ضاحية "**شامين**"، ويستطيع أي شخص أن يدلّك على بيتها!

وقطع القنصل سيجارا ضخما بخنجر فارسي، ثم أشعله بتلذذ، وصاح: "إنك يا سيد "**أرنولد**" آخر شخص كنت أتوقع أن يحدث له هذا، فقد ذهبت إلى هذه السفن مرارا مع السائحين الأجانب الذين يمرون بالمدينة، فما من واحد منهم خطر له أن يتخذ له

محظية من هؤلاء الفتيات سواك!.. ولكني لا أريد أن أمنعك من ذلك، بل أتمنى لك أن تحظى بنعيم الفردوس بين أحضان "**عطر السماء!**".

وبعد ساعة كان "**فرانسيس**" يجتاز الجسر الصغير الذي يفصل ضاحية "**شامين**" عن "**كانتون**"، ثم طرق باب منزل السيدة "**ينج نينج**"، ففتحت له الباب أمتها العجوز، ونظرت إليه نظرة ارتياب. وأدهشها أن ترى هذا الأوروبي يدخل البيت بجرأة. فأسرعت إلى حجرة سيدتها "**ينج نينج**". ووجدتها تدخن غليونا نحاسيا، فقالت لها: "سيدتي!.. لقد حضر رجل غريب وطلب مقابلتك. إنه شيطان أجنبي يتكلم لغتنا بصعوبة، وقد ذكر في كلامه اسم السيدة "**عطر السماء!**".. فنهضت السيدة من مكانها، وهتفت: "**عطر السماء**"؟!. وأمرتها بأن تقود الزائر إلى حجرتها.. ولم يضيع "**فرانسيس**" وقتا، فسرعان ما طرق موضوعه مباشرة، في خليط من لغة أهل "**كانتون**" واللغة الإنجليزية: "أيتها السيدة الجليلة "**ينج نينج**". لقد حضرت لأسألك مكرمة.. هي أن تساعديني في تحقيق رغبة عزيزة على نفسي، وستجدينها – ولا شك – رغبة طبيعية للغاية!.. إنني راغب في شراء السيدة "**عطر السماء!**".

ولاحت على وجه العجوز المتغضن ابتسامة باهتة، ثم رفعت يديها الشاحبتين وقالت ببساطة: "آه!.. لا أستطيع!". فعاد "**فرانسيس**" يلح عليها قائلا: "لقد ذهبت أمس إلى "**سفينة الملذات**"، وشاهدت بنفسي السيدة "**عطر السماء**"، فوجدتها امرأة جميلة جدا. وهي في نظري تستحق حياة أفضل من هذه الحياة التي تحياها هناك. ولهذا فأنا مصمم على شرائها!".

وعقدت العجوز يديها على صدرها وارتسمت ابتسامتها الشاحبة على وجهها المتغضن وهي تقول له مرة أخرى: "لا أستطيع!.. ولا حيلة في ذلك!". فقال: "تذكري أيتها السيدة الجليلة "**ينج نينج**"، أنني مستعد لشراء السيدة المذكورة بثمن غال.. سأشتري السيدة "**عطر السماء**" بأي مبلغ تحددينه أنت". فصاحت: "ولكن السيدة "**عطر السماء**" ليست للبيع!".

– ربما غيرت رأيك نظير مبلغ كبير من الدولارات الأمريكية. فإنني أحسب أنك وحدك التي تملكين تقرير تلك المسألة.

– كلا. فهي راضية عن العمل الذي تقوم به فوق السفينة، وليست لديها أية رغبة في الرحيل!

فأخرج "**فرانسيس**" حافظة نقوده من جيبه، وهزت السيدة "**ينج نينج**" رأسها قائلة: "كلا، كلا.. قلت لك إن هذا غير ممكن؟". وقرب "**فرانسيس**" حافظة نقوده من وجه السيدة "**ينج نينج**"، ثم قرب مقعده منها، وقال لها بصوت منخفض: "إنني من أصدقاء السيد "**فان لونج**".

وتوقع أن يرى في عينيها نظرة تدل على الفهم. بيد أن وجه العجوز ظل جامدا لم يعتوره تغير، وقالت له: "عفوا.. من؟".

فقال: السيد "**فان تونج**"، من "**هونج كونج**". وأجابته في هدوء: "لست أعرفه!".

وكان "**فرانسيس**" واثقا بأنها تكذب، فحاول مرة أخرى أن يثنيها عن موقفها: "إنني من أقرب أصدقائه إليه، وأخلص معاونيه!". ولكنها قالت بإصرار: "لم أسمع في حياتي بهذا الاسم". فقال: "ولكن السيدة "**عطر السماء**" تعرفه جيدا".. ومع ذلك فقد ظلت السيدة على تجاهلها: "جائز جدا.. ولكني لا أعرفه!".. ولجأ إلى حيلة أخرى.. وكانت "**نينا**" قد ذكرت له أثناء الليل قصتها مع السيد "**شياو**"، فحاول "**فرانسيس**" أن يزعزع "**ينج نينج**"، مستخدما هذا الاسم: "لن تستطيعي أن تتجاهلي – مع ذلك – اسم السيد "**شياو**"!.. فتساءلت: "من؟". وعاد يكرر: "السيد **شياو**".

– لست أدري عمن تريد أن تتكلم.

وبدأ "**فرانسيس**" يشعر باليأس. فمما لا شك فيه أن القوادة الماكرة كانت تتشبث بالحذر، وتأبى أن تتورط مع مجهول يذكر لها ذلك الاسم. فأطلق رصاصته الأخيرة قائلا: "لقد جئت أقترح عليك شراء السيدة "**عطر السماء**"، سعيا وراء مصلحتها الخاصة. فأنت تجهلين يقينا أنها تلقت أخيرا زيارة من السيد "**هو وين يو**"، الذي بشرها بمفاجأة سارة قريبا. وأنا أيتها السيدة الجليلة "**ينج نينج**" أخشى كثيرا على السيدة "**عطر السماء**" من هذه المفاجأة السارة، لأنها وردت على لسان ذلك الضابط. وأعتقد أن سلامتها في خطر. وإن كنت لا أدري كيف.. والآن، هلا ساعدتني على إنقاذها قبل أن يفوت الوقت؟.. سيكون لك أجر كبير على هذا، إذا نجحت في إقناعها بعدم البقاء

في "**سفينة الملذات**"، فإني واثق من أنها لن تترك عملها هناك، ما لم تأمريها أنت بذلك أمرا صريحا!".

وكانت السيدة "**ينج نينج**" تصغي باهتمام عظيم إلى "**فرانسيس**"، فإن جهلها بالدور الحقيقي لـ"**فرانسيس**" في شبكة جواسيس "**فان لونج**"، جعلها على حذر. كما أن المعلومات التي ألقاها على سمعها، كانت سببا في قلقها على "**نينا**".. وبدهاء الشرقيات، قالت العجوز له ما كان يخشاه: "لقد قلت يا سيدي أنك صديق للسيد "**فان لونج**" في "**هونج كونج**"، فقلت لك إنني لا أعرف هذا الاسم.. ولكنك ذكرت أن السيدة "**عطر السماء**" تعرفه أيضا. فإن كان هذا الرجل الغامض معروفا لك ولها، وهو صديق مخلص كما تقول، فلماذا لا تلجأ إليه؟.. ولماذا لا تتصل السيدة "**عطر السماء**" بذلك الرجل كي تطلب إليه النصح والمساعدة؟ أما أنا يا سيدي، فلن أزج بنفسي في أمور البوليس والعلاقات التي بين الضباط والسيدات!".

ولم تكن هناك فائدة من الإلحاح، فنهض "**فرانسيس**" واستأذن في الانصراف، وهو يشعر بخيبة الأمل!

*****

وإذ عاد "**فرانسيس**" إلى منزل "**فان دروتن**"، وجد مضيفه يحتسي كوبا من عصير الليمون المثلج، في حديقته الصغيرة. وحيّاه الهولندي قائلا: "مرحبا بقنّاص القلوب!.. لقد ذهبت لزيارة القوادة العجوز في "**شامين**"، فهل أفلحت في عقد الصفقة؟".. ولكن "**فرانسيس**" أجاب في أسى: "قالت لي إن هذا مستحيل!".

– هذا يدهشني جدا، لأن تلك العجوز لا يمكن أن ترفض صفقة رابحة.. فهي تحب المال حبا جما!

ولم يستطع "**فرانسيس**" أن يكشف للقنصل جميع ما لديه من المعلومات. واكتفى بأن هزّ كتفيه وقال كالمستكين، وهو يقول: "لا بأس!.. سأنشد السلوان في مكان آخر!".. وكان لدى "**فان دروتن**" وسيلة عاجلة للسلوى.. إذ كان قد دعي إلى حفلة عشاء أقامها رئيس أركان حرب الجيش الثالث، في أفخم مطعم بالمدينة، فاستأذن

ليصطحب "**فرانسيس**" إليها.

وفي الساعة السابعة، وقفت سيارة القنصل "**البويك**" أمام مطعم "**يوينج**"، عند ناصية شارع الفأر الصغير، وكانت قاعة المطعم في الطابق الأول.. وهي قاعة طويلة، زينت للمناسبة السعيدة بأعلام الجمهورية الصينية الشعبية، وبصورة ضخمة للرئيس "**ماوتسي تونغ**". وبدلا من الموائد الطويلة، التي تستخدم في المآدب الأوروبية، جلس المدعوون إلى موائد صغيرة، مستطيلة غرست فوقها أعلام صغيرة.. ووجد "**فرانسيس**" والقنصل نحو ثلاثين ضابطا من جميع الرتب، قد بكروا بالحضور، وراحوا يدخنون ويتحدثون ويضحكون بصوت عال. ونهض الكولونيل "**تاي تشن**" لتحية القنصل وصديقه الفرنسي، وأرشدهما من بعيد إلى مائدتهما.. وأقبل "**فان دروتن**" يحيي رجلين أوروبيين كان يعرفهما، وقدم إليهما "**فرانسيس**". وكان أحدهما هو "**هاريسون**" – المهندس الإنجليزي الذي يتعاون مع بلدية "**كانتون**" في مشروع بناء أحد جسور السكك الحديدية – أما الآخر فهو "**بوريس**".. مستشار فني أوفدته "**موسكو**" لبحث الأحوال المائية في ذلك الإقليم. وكان المرح يسود بين الأوروبيين البيض، بالرغم من اختلاف معسكراتهم السياسية!

وجذب القنصل "**بوريس**" من ذراعه، وسأله: "قل لي أيها الرفيق، لماذا أقيمت هذه المأدبة؟". فأجابه المستشار: "كيف؟ ألا تعرف؟.. إنها أقيمت احتفاء بوصول الجنرال الجديد إلى "**كانتون**"، ليتولى قيادة الجيش الثالث من المشاة".

– هذا جميل. ويجب أن تكون الأنخاب كثيرة.

وضحك الروسي. وكانت الحفلة في هذه اللحظة قد وصلت إلى ذروتها، وقد اجتمع فيها بضع عشرات من الضباط – من جميع الرتب – وبضع عشرات من المدنيين البارزين في "**كانتون**". وفجأة برز الكولونيل "**تاي تشن**"، وصاح بصوت جهْوري: "أيها السادة! لي عظيم الشرف أن أعلن لكم وصول قائدنا الجديد.. والآن.. انتباه!".

فوقف الجميع ثابتين، ثم ظهر رجل بدين يرتدي الثياب العسكرية، وعليها علامات رتبة الجنرال. وكان رأسه عاريا أصلع، كأنه بيضة.. كما كانت ساقاه نحيلتين تكادان تعجزان عن حمل جسمه الممتلئ. وكان وجهه سمينا لامعا، وحاجباه يتفصّدان عرقا،

رغم غزارة شعرهما، فكأنهما قطعتان من فرش تنظيف الأظافر!.. وردّ الجنرال التحية للحاضرين. وانقطع الصمت، فاستأنف الجميع أحاديثهم والتفت القنصل نحو "**هاريسون**"، وسأله: "من هو هذا الجنرال؟.. من أين أتى؟". فقال "**هاريسون**": "لست أدري يا عزيزي. سل "**بوريس**"!.. ونظر هذا إلى ضيف الشرف في المأدبة، ثم قال: "انتظروا انتظروا!.. إن هذا الجسم البدين يذكِّرني بشيء.. بشخص.. في مكان ما.! سأتذكره.. عجبا! لا أدري ما الذي دهى ذاكرتي؟!.. آه، أجل.. إنه الجنرال "**كيانج تو**"!. فاعترض "**هاريسون**" قائلا: "مستحيل، فقد أذيع موته منذ سنتين أو ثلاث".

– ولكنني أؤكد لك أنه هو.. ويبدو لي أن هناك أمواتا ليسوا أمواتا مائة في المائة!

الفصل الثالث عشر

ميت بين الأموات

كان الضيوف جالسين حول الموائد.. وبدأ العشاء الصيني الطويل، المكون من ثلاثين لونا مختلفا. وكان ضجيج القوم يصم الآذان.. والقنصل الهولندي في غاية الانسجام، كأنه تلميذ انطلق في إجازة، وراح يروى آخر النوادر والنكات للإنجليزي "**هاريسون**"، والرفيق "**بوريس**" ينافسه في رواية النكات والقهقهة!

أما "**فرانسيس**"، فلم يكد يصيب من الطعام شيئا، لأن اسما معينا كان يطن في رأسه طول الوقت، وهو: "**كيانج تاو**".. "**كيانج تاو**"!. وكان من المستحيل عليه أن يصدق أن هذا الاسم، هو الذي ذكرته له "**نينا**" عندما قالت له في "**هونج كونج**" إنها ستقوم بتمثيل المحظية الأولى لجنرال قتل في الجبهة الكورية!.. وكان "**فرانسيس**" يتذكر جيدا أن اسم ذلك الجنرال ينتهى بلفظ "آو" ولكن ما أكثر الأسماء التي تنتهي في اللغة الصينية بلفظ "آو"، فجعل ذلك الشك يثقل على نفسه ويكاد يخنقه ويفسد عليه استمتاعه!

وراح "**فرانسيس**" يختلس النظرات في اتجاه المائدة الرئيسية، حيث كان الجنرال البدين يتكلم باستمرار، وهو جالس بين رئيس أركان حربه وكولونيل في الطيران.. وكان يتساءل – طول الوقت – في قلق متزايد: "أتراه هو الرجل الذي كان فيما مضى مولى لـ"**عطر السماء**"؟.. لو أن ذلك صحيح لكانت كارثة لا مفر منها!".. وفجأة تصبب "**فرانسيس**" عرقا باردا، لأنه ربط بين هذه الفكرة وبين المفاجأة السارة الغامضة التي بشرت بها "**نينا**"، على لسان مساعد حكمدار بوليس الأمن. فلا شك أن هذه المفاجأة السّارة هي العودة المفاجئة لمولاها الذي كانت مدلهة بحبه.

وكان القنصل ينظر – بين الحين والحين – إلى جاره الفرنسي، ويقول له: "إنك لا تبدو على ما يرام يا صديقي!". فتعلل بأنه كان يعاني صداعا حادا.. وتحول الهولندي يحدثه عن الطعام الصيني، فكاد "**فرانسيس**" أن ينطلق باكيا متضرعا إلى "**فان دروتن**" أن يكف عن هذا الحديث، فقد كان القلق يعذبه، والحيرة تضنيه!

وكانت المأدبة التي بدأت في السابعة، قد سلخت ثلاث ساعات، توالت خلالها الأطباق العجيبة طبقا بعد طبق.. وفجأة نهض الكولونيل "**تاي تشن**"، وأعلن أن صاحب السعادة سيلقي كلمة، فساد الصمت التام أرجاء القاعة، واختفى الخدم منها كما تختفي الفيران مذعورة عند ظهور القط الضخم.. وتكلم الجنرال بلغة صينية فصحى، فقال: "أيها السادة! إنكم ترون أمامكم الليلة ميتا نفض الأكفان، وعاد إليكم من بين الموتى!.. وهذا صحيح حتى أنني حين أتطلع إلى وجهي في المرآة، إخال أنني أرى شبحا. وإني أعترف لكم أن عظامي كانت خليقة – في هذه اللحظة – بأن تكون قد أصبحت رمادا تذروه الرياح في سهول "**كوريا الشمالية**" المثلوجة لولا رعاية الأرواح الطيبة. والذين خدموا منكم في منطقة "**بيبنج**" قد يذكرون أن الحكومة – في أثناء الحرب الأخيرة – كلفتني بأن أكون الخبير الفني في المصفحات، في جيش الجنرال "**تام**"، في إقليم "**يم هوا**"، جنوبي خط عرض ١٧ .. ثم حدث هجوم من طيران الأعداء أمطرنا بقنابل كالسيل المنهمر. وكنت في خط النار الأمامي، في موقع للمراقبة، ومعي فصيلة من الرماة. واندلعت الحرائق والإنفجارات. ونسف الموقع بالقنابل الحارقة – على ما علمت فيما بعد – فطرنا في الهواء، واحترقت ثيابنا وأجسامنا. واعتقد الكوريون الشماليون أننا متنا، فتركونا منسحبين من ذلك القطاع.

"وكان جرحي شديدا بالغا. ولكن ناقلي الموتى من الأمريكيين – في ذلك القطاع – عثروا عليّ بعد اثنتي عشرة ساعة، فإذا هم أمام رجل عار، محترق، ثلاثة أرباع ميت، وليس هناك ما يدل على شخصيته، ومن المرجح أن يموت في تلك الليلة.. ولكن روحا كريما كان يشملني بعنايته، كما قلت لكم، فنقلوني إلى المؤخرة. ويجب أن أعترف بأنهم عالجوني بعناية وصبر، ثم نقلوني إلى المستشفى العسكري الكبير في "**طوكيو**".. وأرجو أن تتذكروا – أيها السادة – أن الصدمة العصبية الناتجة عن الانفجار والحروق والجروح، كانت قد أفقدتني الذاكرة فقدانا تاما. فلم أستطع أن أدلي بشيء يكشف عن شخصيتي فإن كل حياتي – قبل الانفجار – محيت تماما من ذاكرتي. ولم يبق لي إلا فهم لغتنا. من غير معلومات شخصية!.. وقد ظللت عامين تحت ملاحظة الأطباء اليابانيين الذين اهتموا اهتماما عظيما بحالتي. وأجروا عليّ بحوثا وتجارب كثيرة، بقصد

إعادة ذاكرتي. ولكن شيئا لم يفلح في إثارة شيء في ذاكرتي الخامدة. وأخيرا، أدركهم السأم فقرروا إعادتي إلى "**بيبنج**"، لكي تتولى شأني الإدارة الطبية في الجيش الصيني.. وعندما نزلت إلى أرض أجدادي، لم أتذكر شيئا، فنقلوني إلى المستشفى العسكري في "**بيبنج**"، باعتباري جنديا صينيا بغير اسم، محيت من ذهنه جميع آثار أربعين عاما من عمره. ووضعوني مع الجرحى من عامة الجند، لأن أحدا لم يخطر بباله أنني جنرال، ولاسيما بعد أن أذيع أن الجنرال "**كيانج تاو**" قد استشهد!

"وذات يوم، كنت جالسا متضجراً - مع خمسين مريضا آخرين - في بهو المستشفى، وإذا برجل يدخل. وكان شيخا أبيض اللحية من علماء العهد البائد، وهو شاعر له آثار جليلة. وكان قد حضر لزيارة ابن أخت له، فمر من أمام سريري، ووقف وقد بدت عليه دهشة بالغة، ثم صاح: "سيدي الجنرال!.. بأية معجزة من السماء أنت على قيد الحياة؟ لقد ظننا جميعا أن المنون استأثرت بك براثنه!".

وظن الممرضون أن الشيخ قد اختبل، ولكنه أصر على استدعاء كبير الأطباء. فلما حضر هذا أشار الشيخ نحوي وصاح:

- أيها الكولونيل، ألا تعرف من هذا؟.. إنه الجنرال "**كيانج تاو**"!

- إنك واهم!.. هذا جندي مسكين فقد ذاكرته وقد عجزنا عن علاجه.

- لست واهما يا كولونيل، فقد عرفت هذا الجنرال منذ كان في العشرين من عمره.. وقد تعلم على يدي نظم الشعر.

"وإزاء إلحاح الشاعر الشيخ، استدعى أخي - الذي كان يعيش عندئذ في مدينة "**تين تسن**" - واستدعوا أيضا ضباطا كانوا قد خدموا معي في الجبهة الكورية، فاتفقت كلمة الجميع على أنني الجنرال "**كيانج تاو**"!.. وكنت أنا وحدي الذي أجهل ذلك!.. حتى اسمي القديم لم يكن يعني في نظري شيئا. فخطر لكبير الأطباء عندئذ أن يأخذوني إلى حي "**هونونج**" في "**بيبنج**". وكان لي هناك - فيما مضى - بيت.. وكانت أرملتي قد اختفت منذ زمن طويل، واعتزلت العالم في دير بعيد. أما محظياتي، فقد تشتتن في أرجاء "**الصين**".. وبناء على نصيحة الطبيب أعدوا لي تمثيلية متقنة، فصعدوا بي إلى الطابق الأول، حيث كانت حجرة نومي.. وكان السلّم معتما، والحجرة

مضاءة بنور قوي ينبعث من وراء بابها المقفل. وكان الطبيب قد ثبّت وتدا وراء الباب. بحيث اصطدم به عندما افتحه. فلما اصطدمت وقعت وارتطم رأسي وأصابني دوار دام لحظات قليلة. ثم أخذت أحملق في تفاصيل تلك الحجرة. وفجأة شعرت بأغرب ما يمكن أن يشعر به إنسان.. وتصوروا أنكم أمام منظر رائع فوق قمة ذلك الأفق، ثم إذا بسيف خفي يشق تلك الغمامة فجأة، فتنجاب، وتبدو لكم المنطقة كلها مكشوفة بجبالها وغاباتها وسهولها وبحيراتها!.. هذا بالضبط ما حدث لي. فقد أخذت الذكريات تقفز من كل جانب، وكأنها تتزاحم وتتدافع!.. وهكذا أيها السادة استطاع أن يعود إلى شرف الخدمة ذلك الذي مات في "**كوريا**"، وفقد ذاكرته في "**طوكيو**"، وأسعده الحظ بقيادتكم في "**كانتون**"!".

ودوى التصفيق الحاد للجنرال الذي استطرد قائلا: "وأحب أن أضيف – أيها السادة – إنني فخور وسعيد بأن أكون على رأس الجيش الثالث، الذي سيكون – كما تعلمون – في المقدمة، حين يدق الناقوس، ويقرّر قادتنا العظام تحرير "**فورموزا**" من عصابات "**تشانج كاي شك**". وتعلمون أيضا – كما أعلم – أن أيام هذا الماريشال قد باتت معدودة. فقد عرف منذ سنوات قدر قوة "**الصين**" الجديدة، التي عرفت كيف تطهر أرضنا من هذا القرصان ومن وزرائه الخونة وموظفيه المرتشين!".

وكان "**فان دروتن**" قد فهم خطبة الجنرال وراح يلخصها لـ"**فرانسيس**"، الذي كان يفكر طول الوقت في شيء آخر غير بلاغة الخطبة.. فقد كان هذا آخر يوم له في "**كانتون**"، وغدا تنتهي رخصة الإقامة المؤقتة، ويجب أن يعود إلى "**هونج كونج**".. فلم يكن أمامه إذن وقت طويل للعمل.. يجب بأي ثمن – أن ينبه "**نينا**" إلى الخطر الماحق الذي يتهددها. فإن المسألة لم تعد تحتمل الانتظار إلى حين الحصول على إذن من "**فان لونج**" برحيلها، لأن واجبها نحو "**فان لونج**" لا يقتضيها أن تلزم مكانها إلى أن تطبق عليها الشراك. وربما كان الانتظار إلى الغد معناه الهلاك!.. وصممّ على إخطار "**نينا**"، كي تهرب ناجية بنفسها إلى داخل "**كوان تونج**"، ثم تبحث عن وسيلة تذهب بها إلى "**ماكاو**"، حيث تغدو في أمان.. أجل، ينبغي أن تنفذ هذا العزم منذ الفجر، فلم تعد المسألة مسألة أيام، بل هي مسألة ساعات فحسب!

وكان العشاء قد انتهى، فلم يلبث الجنرال أن نهض، فنهض الجميع، واتجهوا إلى صدر القاعة، حيث صفت موائد صغيرة من الخيزران، عليها الأكواب والأقداح.. والتف حول "**فرانسيس**" الإنجليزي "**هاريسون**" والروسي "**بوريس**" والهولندي "**فان دروتن**"، الذين أخذوا يتناقلون ذكرياتهم عن الشرق الأقصى. فكان في وسطهم أشبه بفريسة أحدقت بها كلاب الصيد المدربة، وهي تتلمس ثغرة للنجاة!.. وفي ركن من القاعة المزينة بالنباتات جلس الجنرال "**كيانغ تاو**" – وقد شبع وشرب فوق كفايته – يصغي مسرورا لما كان يهمس به إليه مساعد حكمدار بوليس الأمن، السيد "**هو وين يو**": "يا صاحب السعادة. مادام الجو قد خلا لنا الآن، فاسمح لي أن أقدم لكم بكل احترام نبأ لا شك عندي في أنه سيقع منكم موقع السرور.. فلعله لم يخطر ببالكم أن المصادفة شاءت أن تجدوا في "**كانتون**" شخصية عزيزة!".

– ومن الذي تعنيه بهذا؟

– إني أعني بهذا السيدة "**عطر السماء**"!

فبهت الجنرال وقال: "هنا في "**كانتون**"؟.. وماذا تصنع؟".

– لقد عثرنا عليها يا صاحب السعادة. منذ أربعة أشهر.. وهي المشرفة على إدارة "**سفينة الملذات**"، على ضفة نهر "**اللؤلؤ**".

– مستحيل!.. مستحيل أن تكون "**عطر السماء**" كذلك!

– إنها ليست وحدها على السفينة، بل معها فتاتان هما اللتان ترفّهان عن الرواد، أما هي، فتستقبلهم فحسب!

– لعمري.. إنني مازلت أحبها.. إنني أتحرّق شوقا للقائها!

– إنني أضع تحت تصرفكم زورقا من زوارق البوليس، وسأسبقكم بزورقي إلى هناك لكي أمهد ذهنها، ونخلي السفينة من الرواد حتى لا يزعجوا خلوتكما السعيدة..

وحياه السيد "**هو وين يو**" باحترام وانصرف. فاتجه الجنرال إلى رئيس أركان حربه، وهمس في أذنه ثم تسلل خارجا، وكان "**فرانسيس**" يرقب عن بعد تحركات الجنرال. فأسرع يتسلل بدوره، واندفع نحو السّلم ملهوفا، إذ إنه أيقن أن هذه فرصته الأخيرة لإنقاذ "**نينا**"!

الفصل الرابع عشر

الصقر العجوز "كيانج تاو"

وفي تلك الليلة، كانت "**صباح الخير**" و"**لؤلؤة التنين**" تلعبان الورق مع تاجرين من الأثرياء.. وكانت "**نينا**" مضطجعة على أريكة في قمرتها، في العتمة، تستعيد بخيالها تلك الساعات الجميلة التي قضتها في أحضان "**فرانسيس**".. وانتهى بها الخيال السعيد إلى نعاس هنيء..

ونظرت "**لؤلؤة التنين**" – وكان مجلسها في مواجهة الضفة اليسرى للنهر – وإذا بها تقطّب حاجبيها، وتقول: "ها هما زورقان بأضواء حمراء! هل سيقوم البوليس بجولة تفتيشية أخرى في هذه الليلة أيضا؟".

وبعد دقائق معدودة رسا زورق مساعد حكمدار بوليس الأمن بجوار "**سفينة الملذات**"، وحيا السيد "**هو وين يو**" الفتاتين، وأومأ إلى "**لؤلؤة التنين**" أن تدنو منه، ليهمس في أذنها. وسألها عن الرجلين، ثم قال: "وأين السيدة "**عطر السماء**"؟. فأجابته: "إنها في قمرتها. هل أدعوها"؟

– ليس الآن. يجب أولا صرف هذين الرجلين، لأن شخصية عظيمة الخطورة ستحضر إلى هنا!

وذهبت "**لؤلؤة التنين**"، فتحدثت إلى التاجرين اللذين كانا ينظران خلسة إلى مساعد حكمدار بوليس الأمن، فلم يلبثا أن انصرفا مغادرين السفينة. وإذ ذاك أمر مساعد الحكمدار بتنظيف السفينة، لتكون مهيأة لاستقبال الزائر العظيم. فسألته "**لؤلؤة التنين**": "ومن هو يا صاحب السعادة؟". فأجابها: "إنه رجل ستسبب رؤيته فرحا عميقا للسيدة "**عطر السماء**"!.. وما لبث أن وصل الزورق الثاني، فأسرع "**هو وين يو**" نحو الجنرال ليساعده على الصعود إلى السفينة. وألقى الجنرال نظرة على السطح الخلفي للماخور، وقال مازحا: "إنها لسفينة رشيقة لتبادل الهوى!". ثم أردف:

– عظيم، عظيم!.. هذا لا يعنيني. أبلغوا السيدة "**عطر السماء**" بوجودي.

فقالت "**لؤلؤة التنين**" بتردّد: "إنها نائمة يا صاحب السعادة". وهنا صاح السيد "**هو وين يو**"!.. قولي لها إن الجنرال ...". فقاطعه هذا قائلا للفتاة: "لا تقولي لها اسمي، فإني أريد أن أفاجئها.. قولي إن قائد الجيش الثالث حضر!".

واختفت المرأتان. فجلس الجنرال في المقعد الكبير الوثير. بينما جلس السيد "**هو وين يو**" في مقعد صغير. ثم قال: "إنني كلما فكرت في أننا ظننا سعادتك قد متّ منذ زمن طويل، أجد ما حدث لكم شيئا خارقا للمألوف حقيقة!".. فقال الجنرال: "أجل.. والمثل يقول: إن المرء لا يعيش إلا مرة واحدة. أما أنا فأعيش للمرة الثانية، مع أن العالم كلّه كان يظنني تحت التراب. حتى النساء اللواتي أحببتهن واللائي أحببنني تفرّقن في أنحاء الأرض!؟.. فبادر "**هو وين يو**" قائلا: "ما عدا السيدة "**عطر السماء**" التي كان من حظي أن أعثر عليها!".

- هل حدثتك عن مولاها الراحل؟

فقال السيد "**هو وين يو**" الذي كان يجيد ارتجال الأكاذيب: "أوه! كثيرا جدا ما حدثتني عنه يا صاحب السعادة، وبولاء رائع!.. وكم بكتك بدموع غزار يا صاحب السعادة. مع أنها كانت تستحي أن تظهر عواطفها أمامي بطبيعة الحال!".

وبينما كان الجنرال ومساعد الحكمدار يتحدّثان معا، ذهبت **لؤلؤة التنين**" إلى قمرة "**نينا**"، وأيقظتها قائلة: "لقد وصل السيد "**هو وين يو**"، ومعه ضابط كبير بدين، أمرني بأن أقول لك إنه قائد الجيش الثالث. والسيد "**هو وين يو**" يناديه بلقب صاحب السعادة!".. فنهضت "**نينا**" بتكاسل، وأخذت تتزين أمام مرآتها الصغيرة، وأمرت "**لؤلؤة التنين**" قائلة: "اذهبي وقولي لهذا الرجل البدين إنني قادمة!". فأسرعت "**لؤلؤة التنين**" نحو السطح الخلفي للسفينة، وانحنت باحترام عظيم أمام الجنرال، قائلة: "إن السيدة "**عطر السماء**" تتأهب للقدوم يا صاحب السعادة، وقد أمرتني، بأن أبلغ سعادتكم أنه سيشرفها جدا أن تقابلكم بعد برهة!".

وإذ ذاك "نهض السيد "**هو وين يو**"، وانحنى أمام الجنرال قائلا: "يا صاحب السعادة، أعتقد أنك ترغب في الانفراد بالسيدة "**عطر السماء**". ولهذا ألتمس الإذن بالانصراف.. وسيكون الزورق والملاح رهن إشارتكم!" وانحنى من جديد حتى كاد

يلمس الأرض بجبهته مرتين على التوالي، ثم قفز إلى زورقه وانصرف.. وكانت "**لؤلؤة التنين**" قد لحقت بـ"**صباح الخير**" في قمرتها، فبقي الجنرال وحده في مؤخرة السفينة، ينتظر بفارغ الصبر عزيزته السيدة "**عطر السماء**"، التي روت موته وذكراه بالدموع الصادقة!

*****

وأخيرا ظهرت "**نينا**".. وتقدمت على مهل نحو الجنرال الذي راح يحدق فيها، وقد حيّره ظهور هذه المرأة في الوقت الذي كان يرجو أن يخلو فيه إلى محظيته السابقة.. وإذ رأته "**نينا**" صامتا، حيته وقالت: "يا صاحب السعادة، أبلغني السيد "**هو وين يو**" حكمدار بوليس الأمن أن قائد الجيش الثالث يرغب في مقابلتي". فقال: "ومن أنت؟.. وماذا تصنعين هنا؟".

– أنا؟ أنا مضيفة "**سفينة الملذات**".. مديرتها يا صاحب السعادة!

فمطّ الجنزال شفتيه شأن المتسامح الذي يفهم المزاح ووضع يديه البدينتين على خديه النديين بالعرق، وقهقه ضاحكا، ثم قال: "هكذا؟.. هل نصَّبت نفسك فجأة مديرة للسفينة؟ ولي أنا تقولين هذا؟ هذا مضحك جدا!".

ولم تفهم "**نينا**" شيئا من كلام الجنرال، فقالت: "نعم يا صاحب السعادة. ويؤسفني أن السيد "**هو وين يو**" ليس موجودا هنا كي يقدّمني إلى سعادتك رسميا.. أنا السيدة "**عطر السماء**"!. فكفّ الجنرال عن الضحك، وجعل يحدّق في "**نينا**" بنظرات ثاقبة، وقال ويداه متشابكتان فوق حزامه: "أأنت السيدة "**عطر السماء**؟". فأجابته: "أجل!".

وراح يتفحّص "**نينا**" بعينيه الجاحظتين، وقد بلغت به الحيرة الآن غاية مداها، وانقلبت أفكاره رأسا على عقب.. فإن السيد "**هو وين يو**" قد قال له بنفسه إن السيدة "**عطر السماء**" فوق هذه السفينة، فتحلب لذلك ريقه، وسال لعابه.. وإذ به يفاجأ – على ظهر السفينة – بشابة منشورية تزعم أنها السيدة "**عطر السماء**". وتريث الجنرال، فلم يكشف عن أفكاره، وقال متمشيا معها: "ما دمت أنت السيدة "**عطر السماء**"، فأنا أعتذر ألف مرة لظني أنك امرأة أخرى.. وسوف أشرح لك لماذا رغبت في مقابلتك

هذه الليلة. فقد حدثني السيد "**هو وين يو**" عن علاقاتك بأحد زملائي في جيش الشمال. فهل ترينه كان يخدعني؟".

– إطلاقا يا صاحب السعادة. هل التقيت يوما بالجنرال "**كيانج تاو**"؟

وأغمض الجنرال عينيه، كمن يبذل مجهودا في التذكر، ومرّ بيده فوق جبينه برهة، ثم قال بلهجة طبيعية جدا: "آه.. الجنرال "**كيانج تاو**".. "**كيانج تاو**".. طبعا، طبعا! هو الذي قتل منذ ثلاث سنوات في "**كوريا الشمالية**". فقالت في أسى: "أجل، مات في الميدان وذهب ضحية بطولته. وجميع جنوده يذكرونه كما يذكرون المثل الأعلى للبسالة الخارقة!".. وفي حذر ورفق، أخذ الجنرال "**كيانج تاو**" يستدرج تلك المرأة البارعة في التمثيل، كي تتورط في مزيد من الأكاذيب. وتصنّع الإشفاق عليها قائلا: "يا للسيدة "**عطر السماء**" المسكينة!.. إنني أشاركك عواطفك!".

وأطلق الجنرال زفرة عظيمة، وهو يستطيب ذلك التمثيل، ثم قال: "يبدو أنك كنت المحظيّة الأثيرة لدى الجنرال".

فأجابت: "أجل، وقد بكيته طويلا".

– إذن، فقد كنت تحبّين ذلك الصقر العجوز "**كيانج تاو**"؟

فغضّت "**نينا**" بصرها، وهي تمثل دور الأرملة المفجوعة، التي تخجل من الكشف عن عواطفها، وقالت: "نعم، كنت أعبده. ولكن يحرجني أن أتحدث في هذه الأمور أمام شخص غريب. فلا تؤاخذني!". فقال: "إنني لست غريبا تماما، فقد كنا زميلين في الجيش الصيني الباسل، وكنا طالبين معا أنا و"**كيانج تاو**" في الأكاديمية العسكرية.. ولذا نستطيع أن نتكلم عنه معا بصراحة!".. واقترب من "**نينا**"، وقد ازداد إتقانا للنفاق المموّه. وخفض صوته وهو يسألها: "خبريني، بيني وبينك.. أين كنت تشاطرينه فراشه؟". فأجابت: "في "**بيبنج**" يا صاحب السعادة".

– وكم كان عددكن في بيته؟

– وكنا، فضلا عن زوجته الأولى الشرعية، ثلاث محظيات.

– وهل كان كريما جدا معكن؟

وأخذت أسئلة الجنرال تتطرق إلى العلاقات الخفية في الفراش، فتصنّعت "**نينا**"

الحرج، وقالت: "لا يليق، ولا يمكنني أن أحدّثك عن هذه الأمور!"..

- بل تكلمي. تكلمي يا سيدتي "**عطر السماء**" فالمسكين الآن تحت التراب. وكم يرضيه أن تتحدثي بمحاسنه للناس.

- أوه يا صاحب السعادة! إنك تسألني أسئلة محرجة حقا.

- "أليس قد مات؟. إن الثناء على الموتى أشبه بالأزهار التي توضع على قبورهم. والآن قولي لي.. كيف كان، فإني لم أره لخمس عشرة سنة قبل وفاته؟.. أكان بدينا قليلا؟".

فقالت: "أجل". وعاد يسألها: "وفي مثل قامتي؟".. ومرة أخرى، أجابت: "أجل". فقال: "لقد كان مشهورا بين زملائه في الجيش بولعه بالنساء.. فهل كان كذلك حقا؟".. فارتبكت، وتفرج وجهها، ولكنها قالت تحت إلحاحه: "كان عاشقا عظيما، ومثقفا، وذكيّا في نفس الوقت!". واستمرأ الجنرال هذا المديح، واندمج في اللعبة مع "**نينا**". ثم غير لهجته، وتصنع الجد، وهو يسألها: "أرجو أن تكوني مواظبة على تقديس ذكراه بحسب الشعائر الدينية!".

- لم أكن لأتوانى عن ذلك، لو أنني كنت أعرف مثواه. ولذا أحمل دائما القرابين المقدسة إلى معبد السحاب الذي تتبعه جميع الجثث المجهولة المقر!

فزفر الجنرال زفرة أليمة. وقال: "هذا شيء مؤثر حقا.. مؤثر جدا.. جدا!".

*****

لم يكد "**فرانسيس**" يغادر المطعم، حتى أسرع نحو الشاطئ، فاستأجر زورقا، ويمّم شطر أسطول سفن الأزهار. وكان الليل حالك الظلام، والمصابيح التي تزين السفن تكون هالات مضيئة فوق الماء، تسمح لـ"**فرانسيس**" بأن يحدد طريقه.. وراح - وهو يجدف - يدبر خطته.. ولكي لا يلفت إليه الأنظار في السفينة، قرر أن يتسلق المقدمة، وهي عادة غير مضاءة بالمصابيح. وكان يعلم أن الكوة الثانية من المقدمة، تفضي إلى قمرة "**نينا**" الخاصة، فوقف بزورقه تحت تلك الكوة مباشرة، وقد عوّل أن يتسلل إلى داخل القمرة، ثم ينتهز أية فرصة لإشعار "**نينا**" بوجوده وإخبارها بالخطر الذي تتعرض له بين لحظة وأخرى. ثم يحملها في زورقه إلى "**شامين**" ويعهد إلى السيدة "**ينج نينج**" التي

ستقدر الموقف حق قدره، وتدبر لهما أسباب الفرار، حتى لا يفتضح أمرها.. أما هو فسوف يعود إلى بيت مضيفه السيد "**فان دروتن**".

وقبل أن يقفز خلال الكوة، سمع من فوق السفينة لغط حديث – باللغة الصينية – في المؤخرة، فاعتقد أن هناك رواداً عاديين. وظن أن اللحظة مناسبة كي يتسلل إلى السفينة، فتعلق بالكوة، وتسلل إلى القمرة. ثم فتح الباب المفضي إلى الدهليز، ووقف يترقب مرور "**نينا**" كي يشير إليها ويدخل معها إلى قمرتها. ولكنها كانت مشغولة مع زوارها، فظل ينتظر وقد عزم على أخذها فورا – عن طريق الكوة – إلى الزورق ليهربا تحت ستار الظلام!

وفي هذه الأثناء، كانت الخلوة مستمرة بين "**نينا**" والجنرال "**كيانج تاو**"، الذي كان يؤدي دوره بمهارة عظيمة، وكأنه ممثل عريق.. إلى أن اكتفى من التمثيل، فغيّر لهجته – مرة أخرى – واستخدم اللهجة العسكرية التي تفرض السيطرة والطاعة. وسأل "**نينا**" فجأة: "ما دمت المحظية الأولى للجنرال "**كيانج تاو**"، فلابد أنك رأيته على طبيعته في الخلوة.. أعني الحالة التي يوجد عليها رجل وامرأة تحت تأثير الغرام!". فقالت "**نينا**": "طبعا يا صاحب السعادة، ولكن لماذا تسألني هذا السؤال؟".

ولم تكن "**نينا**" بحاجة إلى فطنة شديدة لتحس بالخطر في لهجة الرجل الذي دخل في ميدان حافل بالمزالق والشّراك.

واستطرد الرجل بلهجته الحازمة: "ستفهمين مرادي يا سيدتي "**عطر السماء**" فورا.. أعني أنك رأيت مولاك الراحل متخففا من ثيابه، بل وعاريا في بعض الأحيان فيما أظن.. فلابد – في هذه الحالة – أنك لاحظت شيئا خاصا في جسمه..".

وشعرت "**نينا**" على الفور بقطرات العرق تتجمع تحت شعر عارضيها، فقد كانت هذه النقطة – للأسف الشديد – مما نسي أساتذة مدرسة الجاسوسية في "**فورموزا**" أن يحسبوا حسابها. وبذلت مجهودا أخيرا كي تتحاشى السؤال والجواب، فتصنعت الخجل والارتباك، وقالت في تذلل: "آه يا صاحب السعادة!.. لا أستطيع أن أحدثك في أشياء من هذا القبيل.. أشياء خاصة جداً.. ولكنه ألحّ في إصرار. ولما فرغ صبره، قال بصراحة: "قولي أية علامة كانت على صدر الجنرال.. هنا!.. إنني آمرك!".

– لا تسألني.. رحماك!

– لقد كان الجنرال "**كيانغ تاو**" يحمل فوق موضع القلب وشما باللونين الأخضر والأزرق، يمثل كفّ "**بوذا**"، وقد اتجه أصبعاه الأوليان نحو خط الزوال!

وفجاة، فتح الجنرال قميصه، فرأت "**نينا**" الوشم الأزرق والأخضر!.. وأحسّت بركبتيها تتخاذلان من تحتها.. وبذلت جهدا جبارا لتظل واقفة تنظر كالمشدوهة إلى شبح خرج من القبر، وتمثل في ذلك الرجل البدين القوي المخيف، الذي كان يواجهها – إذ ذاك – وقد عقد ذراعيه فوق صدره، صائحا: "إن الجنرال – على عكس اعتقادك – لم يمت.. أجل، إن الجنرال "**كيانغ تاو**" هو الذي يكلمك الآن شخصيا. ومنذ نصف ساعة وأنا أسمع منك سلسلة من الأكاذيب تتساقط حلقاتها من فمك كالحبوب السامة.. منذ نصف ساعة وأنا أسمعك ترددين لي ما لقنوك إياه عني. ولكن من هم الذين لقنوك ذلك؟.. هذا ما سنراه!".. وأرادت "**نينا**" أن تخفف من حدة غضبه فقالت: "لا تحكم عليّ يا صاحب السعادة، قبل أن تعلم..". فقاطعها قائلا: "قبل أن أعلم ماذا؟.. قبل أن أعلم أنك امرأة حقيرة تزعم أنها محظيتي مع أنها لم ترني في حياتها؟".

– إني أعترف بجريرتي يا صاحب السعادة، ولكن لا تتهمني بنوايا إجرامية. لقد كنت فقيرة، بائسة، فأردت أن أكسب قوتي بأمانة، وقد قالوا لي إنني أشبه السيدة "**عطر السماء**"، فكانت غلطتي أن اتخذت لنفسي شخصية حبيبتكم كي أظفر من السلطات بتصريح لإدارة هذه السفينة.. وهذا كل ما في الأمر!

فصاح: "وهذه جريمتك الكبرى فأنا لا أصدق أسطورة فقرك وحاجتك، إذ إن البوليس ذكر لي أن هذه السفينة يتردد عليها ضباطنا، فهي مكان صالح جداً لالتقاط الأحاديث التي تنساب عفوا، وجمع المعلومات المفيدة لعصابات "**فورموزا**" التي تقاتل تحت لواء "**تشانغ كاي تشك**". وإذ ذكر اسم عدوه، بلغ غضبه القمة، واحمرت عيناه وهو يثبتهما في "**نينا**" بهياج وحقد، فكأنه صورة مجسمة للشيطان الذي تزدان به بعض المعابد، رمزا لآلهة الشرّ التي تهيمن على الأوبئة والكوارث والمذابح والحروب. واعتقدت "**نينا**" أنه سيقتلها في الحال، فتراجعت قليلا قليلا نحو الدهليز المفضي إلى

قمرتها.. فتسلطت عليها نظرات الجنرال الذي تقدم في أثرها، باسطا يديه، وقد تشنجت أصابعه مثل مخالب الصقر!

*****

وكان "**فرانسيس**" يقف في فرجة باب القمرة - في عرض الدهليز - حين سمع احتداد لهجة الحديث. وعلى ضوء ذبالة ساهرة في الدهليز، رأى "**نينا**" تتراجع مذعورة، متجهة نحوه بظهرها، والجنرال "**كيانغ تاو**" يتقدم في بطء. فتوارى "**فرانسيس**" إلى أن تجاوزته "**نينا**" متقهقرة في الدهليز، وترك الجنرال يتقدم خطوة أخرى، ثم قفز خارج القمرة، ورفع في يده مقعدا خشبيا صغيرا، وجذب به مؤخرة رأس الجنرال الصيني فهوى على الأرض فاقد الرشد!

ولم تفقه "**نينا**" - في غمرة الذّعر - كنه هذا التدخل الذي أنقذها، إلى أن سمعت صوتا يناديها قائلا: ""**نينا**"! "**نينا**"! لا تخافي!".. فارتمت بين ذراعي "**فرانسيس**"، وانفجرت تبكي بكاء هستيريا، بذل الطيار جهده كي يخفف من حدته فوق فراش القمرة.. وجعل "**فرانسيس**" يهمس لها، وهي تجهش بالبكاء: "لا تخافي، سندبر كل شيء!.. كنت أعرف الخطر الذي يتهددك، لأنني حضرت الليلة مأدبة ضباط الحامية للجنرال الجديد، فلما عرفت حقيقة شخصيته، أسرعت إلى هنا، ولكن.. بعد فوات الأوان للأسف الشديد. فقد كنت أريد أن أنذرك بالكارثة قبل وقوعها كي تهربي!"

- لقد هلكنا نحن الاثنين، يا "**فرانسيس**"!

- لا تقولي هذا، فإن الجنرال سيظل فاقد الوعي ساعة أو ساعتين. ولن يحضر أحد قبل انبلاج الصبح ليبحث عنه، لعلمهم بأنه سيقضي الليلة هنا معك. والآن خبريني، كيف حضر الجنرال؟

- مع "**هو وين يو**"، الذي انصرف على الفور في زورقه، تاركا للجنرال زورقا آخر ينام فيه ملاحه الآن، في انتظاره!

- وأين هذا الزورق؟

- هناك في الناحية الأخرى من السفينة.

ونهض "**فرانسيس**" وأطلّ فوجد الملاح نائما، وعاد إلى "**نينا**" في القمرة وقال لها: "إن وجودنا في "**كانتون**" معناه الموت، يا حبيبتي.. أي تأخير معناه الموت، فيجب أن نهرب. ووسليتنا الوحيدة هي زورق البوليس!". فصاحت "**نينا**" مأخوذة: "هل أنت مجنون؟". ولكنه قال في هدوء: "مهلا! أيقظي الملاح وقولي له بلسانه إن صاحب السعادة كلفك بالذهاب لإحضار راقصة تقضي الليلة معكما على ظهر السفينة.. وإنني صديق للجنرال مكلف بأن أصحبك في هذه المهمة!" فهتفت في قلق: "ثم؟". فأجاب: "ثم أركب معك، فتسنح لي الفرصة لتوجيه الزورق". فعادت تتساءل: "في أي اتجاه؟".

– في اتجاه "**كون لون**"، طبعا. وأؤكد لك ياعزيزتي أن هذه هي فرصتنا الوحيدة للنجاح.

– والملاح؟

– دعي هذا لي!

الفصل الخامس عشر

خمسمائة دولار، أو الموت!

ربتت "**نينا**" كتف الملاح النائم في زورق البوليس، فرفع رأسه على الفور، وكم كانت دهشته عظيمة عندما رأى امرأة جميلة تبتسم له في بهمة الليل، وأبلغته "**نينا**" – باللغة الصينية – الرسالة التي كلفها بها الجنرال، فبادر برفع المرساة وفكّ الحبال. وفي تلك الأثناء، قفز "**فرانسيس**" إلى الزورق. فقالت "**نينا**" للملاح إنه كولونيل "**روسي**" صديق للجنرال. فظهرت على الملاح علائم الفطنة وقال لـ"**نينا**" باسما: "إذن، فمن أجل سيادة الكولونيل سنذهب لإحضار هذه الراقصة؟.. إنني أعرف راقصة في شمال "**شامين**"، فهل تريدين أن...؟".

– لقد ذكر لنا صاحب السعادة عنوانا معينا. فاتجه بالزورق نحو الجنوب. وسوف ندلّك على الموقع..

وأدار الملاح المحرك، واتجه جنوبا نحو البحر. وكان تيار النهر يضاعف من سرعته، فلما طوى الزورق حوالي ثلاثين كيلو مترا، التفت الملاح وسأل: "هل اقتربنا؟". فقالت "**نينا**": "كلا.. استمرا". واستأنف السير في دهشة. حتى إذا ابتعد الزورق تماما عن "**كانتون**" مال "**فرانسيس**" على أذن "**نينا**"، وأخذ يقول لها بالفرنسية، التي لم يكن الملاح يفهمها: "لابد الآن من عمل حاسم، فنحن نقترب من خط حدود "**كون لون**"، وهناك سيتوقف الملاح عن السير ويستوقفنا البوليس فيعيدنا إلى "**كانتون**". كما أن هذا الملاح لن يقبل – بأي حال – أن يقودنا إلى "**هونغ كونغ**" في المياه الإنجليزية!". فتساءلت "**نينا**": "وما العمل؟".

– هناك حلان: أحدهما أن ألقي به في الماء، ونهرب نحن في الظلام فنصل عند الفجر إلى الحدود، فنحاول اجتيازها بالزورق مسرعين رغم النيران، تاركين مصيرنا للحظ.. وهي مخاطرة كبيرة لا أحب أن أعرضك لها!

وقالت "**نينا**": والحل الآخر؟". فأجاب ببساطة: "أن نكسب الملاح إلى صفنا". وعادت تتساءل: "وكيف؟". فأجاب: "بالإرهاب أو بالترغيب. ولعلك نسيت أنني

اختلست من حزام الجنرال مسدسه.. فلنقم الآن معا، ونقف وراء الملاح، وكأننا نتفرج على الزوارق التي نمر بها. وعلى حين غرة، سألصق فوهة المسدس في ظهره، وستترجمين له بالصينية ما أقول لك!".

ونهضت "**نينا**"، فأخرج "**فرانسيس**" المسدس خلسة من جيب سترته، وبعد ثوان أومأ بيده إلى زورق شراعي، وكأنه يسأل عن شيء. وفجأة غرس فوهة المسدس بين ضلوع الملاح. وشرعت "**نينا**" تترجم لهذا أوامر "**فرانسيس**": استمر في طريقك، ويداك على عجلة القيادة!". وعاد "**فرانسيس**" يقول: "قولي له أيضا، إنني سأصرعه إذا قاوم برصاصة في القلب!".. وترجمت "**نينا**" هذه العبارة، فأطاع الملاح دون أن يتكلم، بينما راح "**فرانسيس**" يفك حزام الرجل – بيده اليسرى – وأخذ مسدسه فألقاه في الماء، وقال لـ"**نينا**": "لقد أصبح الأن أعزل من السلاح، فاسأليه: هل يفضل الموت غرقا في قاع نهر "**اللؤلؤ**"، أو الخروج من جمهورية "**الصين**" وقبض خمسمائة دولار أمريكي في مدينة "**هونج كونج**". وترجمت "**نينا**" عبارات "**فرانسيس**"، ثم نقلت الجواب لهذا: "إنه يقول إنه لا يريد أن يموت، وإنه يقبل الخمسمائة دولار أمريكي في "**هونج كونج**" شاكرا ممتنا. ولكنه يود الحصول على وعد باعتباره لاجئا سياسيا، له حق الإقامة هناك!".

– قولي إني أعده بالحصول على حق الإقامة الدائمة.

وترجمت "**نينا**" ذلك الكلام، ثم ترجمت اعتراضات الملاح: "إنه يقول أيضا أن من الصعب عليه اجتياز خط الحدود، لوجود أسلاك تعترض مجرى النهر وزوارق للحراسة تابعة لبوليس الأمن".. فقال "**فرانسيس**": "قولي له إننا عندئذ سنختبئ تحت مقاعد القمرة، وعليه أن يذكر لزملائه حراس الحدود أنه يحمل رسالة من الجنرال قائد الجيش الثالث في "**كانتون**"، ولابد له من قضاء ساعة في "**كون لون**"".. واستمر الحوار بضع دقائق، بين الفتاة والملاح، ثم التفتت إلى "**فرانسيس**"، وقالت: "إنه يقول إن أمر الجنرال "**كيانج تاو**" لابد أن يكون كتابيا ليقتنع به حراس الحدود. وهناك كراسة مذكرات عليها شعار بوليس الأمن داخل القمرة، يمكن أن نستخدمها في كتابة الأمر. ولكنه سوء الحظ لا يعرف الكتابة؟"

– لا بأس. اكتبي أنت الأمر. فإنك على إلمام بالكتابة الصينية ودخلت "**نينا**" إلى القمرة فأوقدت مصباحا صغيرا، ثم خطّت على ورقة بيضاء خطوطا رأسية حمراء، هي عبارات الرسالة الرسمية المزعومة، وعادت إلى "**فرانسيس**" الذي كان جالسا خلف الملاح والمسدس في يده، وراحت تتلو عليه ما كتبت تحت عنوان "أمر إداري":

"أمر إلى ملاح زورق بوليس الأمن رقم ٣، بالتوجه إلى "**شون شون**" فوراً، لإحضار الحقائب الشخصية الخاصة بصاحب السعادة الجنرال "**كيانج تاو**"، قائد الجيش الثالث في "**كانتون**" – "**هو وين يو**" مساعد حكمدار بوليس الأمن".

– هذا رائع يا يمامتي الصغيرة!

– من حسن الطالع إنني أعرف اسم "**هو وين يو**". وهذا سيعزز قيمة الورقة التي كتبتها.

وأسلما الورقة إلى الملاح، الذي أخبرهما بأن القارب سيصل بعد ساعتين – أي قبيل الفجر – إلى المنطقة الخطرة.. وجلست "**نينا**" و"**فرانسيس**" في المؤخرة متلاصقين، يتهامسان ويتبادلان الآمال، والمخاوف.. كانا يخشيان أن يخفق كل شيء في آخر لحظة، إذ إن كل شيء كان متوقفا على ما يدور الآن في "**كانتون**".. فإذا لم يكن أحد قد فطن إلى طول غياب الجنرال، وإذا لم يجد أحد غرابة في أن يظل طوال فترة الصباح مع حظيته السابقة "**عطر السماء**"، فلن يكون لدى مراكز الحدود أي إنذار بالبحث عنهما وفجأة قفزت "**نينا**" عن مقعدها، ونظرت محملقة في وجه "**فرانسيس**" وقالت:

– لقد نسينا "**لؤلؤة التنين**" و"**صباح الخير**".. من المستحيل أن تكونا قد بقيتا طول الليل في قمرتهما، إذ إن من عادتهما أن تحضرا – بعد انصراف الزائرين – لتبادل بضع كلمات معي، ولتناول الأقداح الأخيرة من الشاي.. لسوف تدركان – حين يسود الهدوء سطح السفينة – إنني صرت وحدي، فتذهبان إلى قمرتي، وتكتشفان الجنرال ملقى على الأرض في الدهليز.

وشاطر "**فرانسيس**" "**نينا**" قلقها، وهمس قائلا: "وماذا تظنينهما ستفعلان، حين تكتشفان الجنرال فاقد الرشد؟". فأجابت: "ستطلقان الصراخ الثاقب، وتهرعان لإيقاظي. فإذا وجدتا القمرة خالية مني، فسوف تصرخان لإيقاظ نساء السفن

الأخرى.. ولك أن تتصور الأثر الذي سيحدثه هذا الضجيج في السفن كلها، وكيف ستقوم المدينة وسلطاتها وتقعد لأن الجنرال قائد الجيش الثالث وجد مغشيا عليه في إحدى سفن الأزهار!".

– وفي أيّة ساعة تعتقدين أن ذلك يمكن أن يحدث؟

– لقد حضر الجنرال في نحو الساعة الحادية عشرة وثلاثين دقيقة. وتحدثنا معا مقدار نصف ساعة. وبفرض أن "**لؤلؤة التنين**" و"**صباح الخير**" تركتا لي أربع ساعات، ريثما أفرغ من زائر رفيع الشأن كالجنرال، فمن المرجح أن تكتشفا وجود الجنرال على الأرض في نحو الرابعة صباحا.. فكم الساعة الآن يا "**فرانسيس**"؟

– الرابعة وعشرون دقيقة.. إن حياتنا تتوقف الآن على السرعة التي تبلغ بها الأوامر إلى الحدود لضبط الهاربين!

– لقد بدأ الفجر ينبثق.. انظر إلى رؤوس الجبال من جهة الشرق...

– سلي الملاح، هل أمامنا مسافة طويلة؟

وقبل أن تسأل **نينا**" الملاح، التفت هذا إليهما وقال باهتمام: "كونا على حذر، فها هو ذا زورق من زوارق الحدود، على مسافة كيلو متر إلى اليمين. اختبئا بسرعة.. هيا!".

وترجمت "**نينا**" لـ"**فرانسيس**" الأوامر.. واختفيا تحت المقاعد، وأرخيا الأغطية فوقهما. وأصبحت حياتهما الآن في كفّ القدر.. وجعل "**فرانسيس**" يرهف أذنيه، فلاحظ أن آلات الزورق أبطأت في حركتها، مما نمّ عن أن الملاح قد خفف من السرعة، بعد أن تلقّى إشارة ضوئية من زورق الحراسة. ثم سكتت الآلات تماما، واستقرّ الزورق في وضعه لا يتحرك. واقترب صوت زورق آخر وازداد وضوحا، ثم سمع "**فرانسيس**" نداءات تنبعث خلال بوق، فأجاب الملاح بدوره، خلال بوق لتضخيم الصوت. واهتز الزورق، فأدرك "**فرانسيس**" أن الزورق الآخر قد رسا بجواره.. ودارت بعد ذلك مناقشة، كانت مدتها عذابا شديدا للهاربين المختفين!.. فقد تصور "**فرانسيس**" الملاح وهو يقدم المذكرة إلى الجندي الحارس في الزورق الآخر، ثم تخيل الحارس يقول له أن الخطاب غير مختوم بالخاتم الرسمي، وإن نقط الحدود لم تتلق أي خبر سابق عن هذه المهمة!

وخيل إليه أن تلك المناقشة لن تنتهي. ولكنه اطمأن، عندما تذكّر أن الملاح لم يكن

بحاجة إلى إطالة النقاش، لو أنه أراد أن يشي بهما. وما لبث أن سمع – أخيرا – صوت هدير المحرك في الزورق الآخر، وهدير المحرك في زورقهما، الذي سرعان ما استأنف سيره. فتنفس الصعداء. ثم سمع كلمة تنطلق من زورقهما، أجابتها قهقهة ضحك من الزورق الآخر، ورفعت "**نينا**" الأغطية عن وجهها، وقالت له: أتدرى ماذا يقول؟. لقد قدم للحارس مذكرة البوليس المزعومة، فنظر فيها الحارس وهي مقلوبة، وقال لقد نسيت نظارتي الليلة. اقرأ لي أنت ما فيها"!.. فأوضح له ملاحنا المسألة بقدر استطاعته، لأنه الآخر لا يعرف القراءة.. وتناقشا مناقشة شكلية، ثم سمح له الحارس باستئناف المسير!".

– ولكن لماذا ختمت المناقشة بهذه القهقهة العالية؟

– لأن أحدهما عيّر الآخر بعاهته. وهي جهل القراءة..

– ما أشبه هذا بسخرية الخنفساء من الصرصار!

وانطلقا ضاحكين، وقد سُرّي عنهما لأول مرة بعد هذه المحنة.. فمع أن الإنذار قد يصل بعد نصف ساعة إلى نقطة الحدود، إلا أن ذلك سيكون بعد فوات الأوان.. إذ كانت مشارف "**هونج كونج**" قد أخذت تلوح في ضوء الفجر الوردي، وقد ارتسمت رؤوس الجبال بيضاء ورمادية على تلك الصفحة البديعة من أشعة الشروق، التي تخترق الضباب الكثيف، وتوشي أطراف السحب بمثل الهالات التي تتوج رؤوس القديسين في صور الرسامين الطليان!

*****

وصل رجل في ثياب مدنية لتسلّم نوبة عمله في مكتب إدارة الميناء.. وكان هذا الرجل هو "**هـ. و. بيرتون**"، موظف الجوازات، الذي لم يكد يفرغ من حشو غليونه، حتى تناول – كعادته كل صباح – منظاره المقرب، وجعل يستعرض السفن الراسية في الميناء، وحركة الدخول إليها والخروج منها..

ولفت نظره زورق بخاري صغير يسير ببطء شديد، ويبحث فيما يلوح عن موضع يرسو فيه. وعرف على الزورق علامات بوليس الأمن الصيني. ولم يكن مألوفا أن تأتي إلى مياه "**هونج كونج**" الإنجليزية زوارق البوليس الصيني الشيوعي. فتولت الحيرة السيد

"**بيـــرتون**"، ورفع مسماع التليفون فطلب بوليس الميناء، كي ينبهه إلى هذه الظاهرة.. وإن هي إلا ساعة، حتى دخل مفتش بوليس إلى مكتب السيد "**بيرتون**"، وخلفه موكب ثلاثي تألف من رجل أوروبي بلا قبعة، وصينية حسناء في ثوب وردي مشجر، ورجل من رجال بوليس الأمن الصيني في "**كـانتـون**"، لا يعرف كلمة واحدة من اللغة الإنجليزية. وقال مفتش البوليس: "لقد قبضنا على هؤلاء بمجرد رسوهم عند الرصيف رقم "٧". وسألناهم عن أوراقهم. فأعطاني هذا السيد جواز سفره الفرنسي، وتصريحا مؤقتا بالإقامة في "**كـانتون**" لسبعة أيام. أما هذه المرأة الصينية فلا تحمل أوراقا من أي نوع. كما أن هذا الجندي قال لنا كلاما ترجمته المرأة الصينية، مؤداه أنه هارب من "**كانتون**" لينجو بحياته من الإعدام، ويطلب اعتباره لاجئا سياسيا في "**هونج كونج**".. وإني أترك بين يديك هذه القضية، وأترك لك حل ألغازها!".

وصرف "**بيرتون**" مفتش البوليس، وأجلس الثلاثة، ثم بدأ يفحص أوراق "**فرانسيس**". وبعد أن تصفّح جواز سفره، وقرأ فيه أنه طيار سأله بعض الإيضاحات، فقال "**فرانسيس**": "إنني ملازم سابق في سرب "**اللورين**"، الملحق بالسلاح الجوي الملكي البريطاني.. وحامل وسام "**اللجيون دونير**"، وصليب الخدمة الممتازة".. وكان لذكر هذا الوسام الإنجليزي أثر كبير في نفس مستر "**بيـرتون**". فوضع غليونه على المكتب، ومال إلى الأمام وقال باسما: "إنك أمام رفيق قديم في السلاح يا سيد "**أرنولد**"، فأنا الملازم الطيار "**بيرتون**"، من سلاح الطيران الملكي البريطاني!".. وراحا يتبادلان أسماء معارفهما من الطيارين، وكأنهما صديقان قديمان التقيا فجأة بعد غيبة طالت عشر سنوات!

وبعد أن استعرضا معا ذكريات الغارات على ألمانيا بالقلاع الطائرة، سأله السيد "**بيـرتون**" قائلا: "الآن، أرجو يا سيد "**أرنولد**" أن تفسر لي وصولك بهذه الصورة إلى "**هونج كونج**"، مع هذه السيدة الصينية وهذا الشرطي الصيني الذي يلوح لي أنه هارب من حكومته!".. فروى "**فرانسيس**" له جانبا من مغامرته في "**كانتون**"، دون أن يشير - طبعا - إلى الدور الذي كانت تؤديه "**نينا**" على متن "**سفينة الملذات**". ثم ختم كلامه بقوله: "وعلى كل حال، إذا كنت بحاجة إلى ضمان، فاطلب تليفونيا السيد "**فان لونج**"، مدير الشركة الآسيوية للاستيراد والتصدير".

وبادر "**بيرتون**" إلى إبلاغ السيد "**فان لونج**" وجود "**فرانسيس**" عنده، ومعه الآنسة "**نينا وونج**". فقال السيد "**فان لونج**" إنه يضمنهما ضمانة كاملة شاملة. ثم تحدث إلى "**فرانسيس**" تليفونيا، قائلا: "إن وصولك في المدة المقررة أمر طبيعي، ولكنني لا أفهم سبب وصول الآنسة "**وونج**" معك!".

– إذا تكرمت باستقبالنا، شرحنا لك كل شيء!

– احضر إذن إلى داري في الثانية بعد الظهر.

ووعد السيد "**بيرتون**" بأن يعنى بشأن الشرطي الصيني قائلا إن سلطات "**هونج كونج**" لن تتواني في منحه حقوق اللاجئ السياسي!

وفي الساعة الثانية، دخلت "**نينا**" مع "**فرانسيس**" إلى قاعة الجلوس بدار "**فان لونج**"، فوجداه في انتظارهما على أحرّ من الجمر، ولما سمع القصة، قال: "إذن، فخلاصة الموضوع أن وجودكما هنا أمامي الآن، إنما هو توفيق خارق للعادة، نتيجة محالفة سعيدة بينكما وبين الحظ. ولابد أنهم يقلبون "**كانتون**" كلها رأسا على عقب بحثا عنكما الآن.. ولابد أن العجوز المسكينة "**ينج نينج**" تعاني مع "**لؤلؤة التنين**" و"**صباح الخير**" ألوان النقمة كلها!".. ثم تحول إلى "**نينا**" قائلا: "وأنت يا آنسة "**وونج**"!.. لقد كنت ضحية مصادفة نادرة، لا تحدث إلا مرة واحدة في ألف مرة.. فلقد أعلن موت الجنرال "**كيانج تاو**"، ونشرت صحف "**بيبنج**" مصرعه في "**كوريا**"، وكان رؤساؤه في هيئة أركان الحرب على يقين من هذا.. لهذا لم يخطر بأذهان أصحابنا في "**تايبه**" أن تجدي نفسك يوما أمام "المرحوم" وجها لوجه!.. والحق أن جرأة السيد "**أرنولد**" وسرعة بديهته، هما اللتان انتزعتاك من براثن موت محقق. وكان فقدك خليقا بأن يحزننا جدا. لأنك أديت خدمات عظيمة جدا لنا، بما قدمته من معلومات ثمينة، ولما لك من خبرة وفطنة نادرتين!".

ولم يكن من عادة السيد "**فان لونج**" أن يكثر في الكلام، ويطنب في المديح. ولذا فقد قال له "**فرانسيس**": "والخلاصة يا سيد "**فان لونج**" أننا – الآنسة "**وونج**" وأنا – لا نستطيع أن نخدمكم في "**كوان تونج**" في الوقت الحاضر. فنرجو أن تسمحوا لنا بإجازة نقضيها في "**أوروبا**" لتسوية بعض مسائل خاصة وإذا تراءى لكم في المستقبل أننا نستطيع أن نؤدي لكم خدمة في مكان آخر غير "**كوان تونج**"، فنرجو أن تخطرونا!".

ونهض السيد "**فان لونغ**"، وأجابه بإخلاص وحرارة: "لن يكون شيء أحبّ إلى نفسي من تحقيق أمنيتكما هذه. وأؤكد لكما أنني سأفقد بسفركما اثنين من أصدق وأبرع المتعاونين معي.. وإني أتمنى لكما أطيب وأخلص التمنيات بالسعادة والتوفيق!".

*****

كان "**فرانسيس**" و"**نينا**" مستلقيين جنبا إلى جنب على كرسيين طويلين من القماش، فوق السطح العلوي للباخرة الفاخرة التي استقلاها، في طريقهما إلى "**مرسيليا**"، وقد أزفت ساعة الإقلاع، وشمس الأصيل قد نفضت أرديتها الأرجوانية المذهبة على البحر المترامي الأطراف.. وصمت "**فرانسيس**" و"**نينا**" أمام هذا الجمال الرائع لا نظير له في الدنيا.. وكانا قد قرّرا الإقامة في "**فرنسا**"، والزواج هناك.

وقال "**فرانسيس**": "يا يمامتي الصغيرة!.. عندما يخاطر رجل بحياته، لإنقاذ حياة امرأة، ألا يحتم عليها الذوق أن تشاطره حياته ومتاعبها؟".. فألقت "**نينا**" بنفسها بين أحضانه قائلة: "يا حبيبي!.. عندما تدين امرأة لرجل وسيم شجاع بحياتها، فأقل ما تستطيعه هو أن تشكره أربعا وعشرين ساعة في اليوم، في كل يوم من أيام عمرها!".

وراحا – كغلمان المدارس – يضعان الخطط للمستقبل القريب. وكانت "**نينا**" تحسّ بأنها مقدمة على دخول عالم عجيب. غير عادي.. عالم جديد عليها، وهي التي لم تعرف إلا عالم المعابد والهياكل والأصنام النحاسية والحجرية التي تمثل "**بوذا**" البدين الباسم، والبساتين المسوَّرة بالجدران العالية، وحقول الأرز المتشابهة، والأعياد الدينية التي يحوطها جو السحر والطلاسم!.. وشاعت في نفسها سعادة أدفأت قلبها، وهي تضغط كفّ "**فرانسيس**" بين كفيها، وتهمس في أذنه بصوت ضعضعه الهيام: "يا حبيبي المعبود! كم أنا سعيدة.. إلى درجة الجنون!".

وتناول "**فرانسيس**" اليد التي كانت تضغط على أصابعه برفق، وغمغم مفتونا: يا "يمامتي الجميلة، إنني أسعد رجل في العالم!".

ودوت صافرة الباخرة إيذانا بالرحيل، فردّدت الجبال القريبة صدى ذلك الصفير، وكأنها تودع الراحلين بصوت نائح النبرات. ثم تصاعدت أعمدة البخار من السفينة إلى السماء، فخيّل إلى "**فرانسيس**" أنها توجه وداعا ساخرا إلى الجنرال "**كيانغ تاو**"!

تمّت بعون الله

هذه فرصتك الآن...

أرسل طلبك اليوم ..!

الروايات الكاملة... والمعرَّبة لشوامخ الكتاب العالميين.

كتب لا تموت ولن تموت... من **روائع الأدب العالمي**...
وباللغة العربية.

أخي القارئ العربي :

تحية طيبة وبعد،
هذه فرصتك الآن لقراءة أشهر القصص والروايات العالمية المعرّبة لشوامخ الكتَّاب العالميين وباللغة العربية.
لقد قمنا بترجمة هذه الروائع ترجمة أمينة وصحيحة ومنقَّحة بلغة عربيَّة صحيحة وَسَلِسَة يفهمها الكبار والصغار. فلا غِنى لك أو لأحد أفراد عائلتك من البدء في شراء هذه الكتب التي تُثري مكتبتك.

هذه فرصتك اليوم.. وليس غداً.

إنّ دار **البشير** تتيح لك هذه الفرصة النادرة للإطلاع على حضارات وروائع أشهر كتَّاب العالم.
وقد قامت بترجمة هذه الروائع من لغات مختلفة واضعة بين يديك دائماً قصص وروايات عالمية قد تفيدك في دراسة الآداب العالمية.
فما عليك سوى الكتابة إلينا لنُرسِل لك مجاناً لائحة مفصَّلة بآخر إصدارتنا من هذه السلسلة العالمية.
<u>قصص وروائع جديدة تصدر كل شهر...</u>

وهذه قائمة بأسماء الكتب التي صدرت حتى تاريخ طباعة الكتاب الموجود بين يديك .

سارع الآن بإرسال طلبك.

ولا تنسى أن تُرْسِل شيك بقيمة ما تطلب من كتب حتى لا تُهْمَل رسالتك.

تُرسَل الطلبات بموجب شيك مصرفي باسم "**دار البشير**" مسحوب على أي مصرف في لبنان وبالدولار الأميركي. ودار البشير لا تتحمل مسؤولية إرسال أي مبالغ نقدية داخل الرسائل.

ويجب أن يُكتب على الشيك عبارة (يُصرف للمستفيد الأول فقط)

تُرسل الطلبات على العنوان التالي :

دار البشير ص.ب 5329-13 بيروت – لبنان.

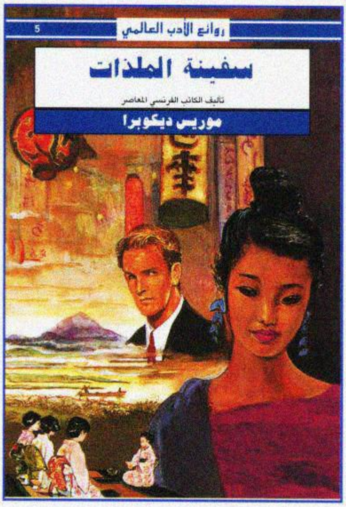
وهذه قائمة بأسماء الكتب التي صدرت حتى الآن مع أسعارها بالدولار الأميركي شاملة أجور البريد.

ثمن أي كتاب 7 دولارات أميركية.

إدفع ثمن خمس (5) كتب واحصل على السادس (6) مجاناً.

الرقم	إسم الكتاب	إسم المؤلف
١	أوديب	أندريه جيد
٢	الخمسمائة مليون ثروة البيجوم	جول فيرن
٣	الحرب والسلام	ليو تولستوي
٤	مدام بوڤاري	جوستاف فلوبير
٥	سفينة الملذات	موريس ديكوبرا
٦	البؤساء	فيكتور هوجو
٧	الثأر للوطن	جون شتينبك
٨	الخاطئة	سومرست موم
٩	الأمير	نيكولاس ماكيافلي
١٠	الإلياذة	هوميروس
١١	الكونت دي مونت كريستو	ألكسندر ديماس
١٢	أرواح هائمة	سومرست موم
١٣	المقامر	فيودور دستوفسكي

الرقم	إسم الكتاب	إسم المؤلف
١٤	عاشقات في الخريف	ستيفان زفايج
١٥	ديكاميرون	جيوفاني بوكاشيو
١٦	إعترافات جان جاك روسو	جان جاك روسو
١٧	صافو	ألفونس دوديه
١٨	دم... وخمر	ليو تولستوي
١٩	الآلهة عطشى	أناتول فرانس
٢٠	مياه الربيع	إيفان ترجنيف
٢١	أنّا كارنينا	ليو تولستوي
٢٢	رسول القيصر	جول فيرن
٢٣	حذار من الشفقة	ستيفان زفايج
٢٤	ضحكة في الظلام	فلاديمير نابوكوف
٢٥	مرتفعات ويذرنج	إميلي برونتي
٢٦	الخطيئة الأولى	ألبرتو مورافيا
٢٧	جين إير	شارلوت برونتي
٢٨	الدكتور جيفاجو	بوريس باسترناك
٢٩	المسبحة	فلورنس باركلي
٣٠	رجال ونساء	مكسيمو جوركي
٣١	حياة	جي دي موباسان
٣٢	ليالي بلزاك	أونوري دي بلزاك



ولد "موريس دو كوبرا" عام (١٨٨٨) في باريس، وقد قام بجولات كثيرة حول العالم، وكتب العديد من الروايات التي لاقت نجاحاً كبيراً وتحولت إلى أفلام، وقد قام بكتابة السيناريو لـ"سيدة الأحلام" "النار واللعب"....

وحصل (موريس دو كوبرا) على درجة الدكتوراه من جامعة (أوندرا) الهندية، وكان من أعضاء الشرف للأكاديمية الدولية، وحصل أيضاً على جائزة من "مقر البوليس القضائي" في "فرنسا" (١٩٥١)، وحصل على الميدالية الذهبية لمدينة "باريس" (١٩٥٤).

إن سفن الزهور من أعجب الطرائف في الصين. فعلى نهر "اللؤلؤ" في "كانتون"، ترسو سفن عائمة حافلة بأبدع نماذج الجمال الصيني.. وفي هذه العائمات، يحظى الزائر بجو شاعري، وبألوان من اللهو والملذات، لا قبل له بها في أي مكان آخر من العالم..
ولكن الأطماع السياسية والحرب الباردة التي تجتاح العالم في هذه الأيام، انعكست على جو هذه العائمات الحالمة، فأصبحت أوكارا للجاسوسية وللمؤامرات التي تكتنف الصراع الدائر بين "فرموزا" و"الصين الشعبية".

ومن هذا الجو الفريد، الحافل بالملذات وبالغموض وبأعنف المغامرات، استمد الروائي الفرنسي ذو الصيت العالمي "موريس ديكوبرا" - الذي قضى عشرين عاما في ارتياد القارة الآسيوية، من قناة السويس حتى شمال اليابان - أحداث هذه القصة المشوّقة.. واستطاع بأسلوبه البارع أن يتيح للقارئ ساعات يعيشها بين أعنف مغامرات الحب الشاعرية، وأعنف مخاطر الجاسوسية والمؤامرات!

ISBN 9953-443-18-1
9 789953 443188